جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ميسان/ كلية التربية
قسم اللغة العربية

المرجعيات النصّية والثقافية في فن الرسائل عند ابن أبي الخصال الأندلسي(ت ٥٤٠ هـ)

رسالة تقدَّمت بها الطالبة

رجاء حسين علي البهادلي

إلى

مجلس كلية التربية -جامعة ميسان

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير

في اللغة العربية (الأدب)

بإشراف

أ.د.عبد الحسين طاهر محمد الربيعي

١٤٤١ هـ

٢٠١٩م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا
بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

صدق اللّٰه العلي العظيم

(الرعد:٢٨)

الإهداء

إلى الزهراء البتول (عليها السلام)

إلى من خصهما رب العزّة في قوله المبارك ((وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا))(الأسراء:٢٤)

أبي وأمي

إلى من كان له الفضل الأكبر في وصولي لهذه المرحلة

زوجي الفاضل

إلى الذي لم يدخر جهداً في تقديم العون والتشجيع الأستاذ الدكتور عبد الحسين طاهر الربيعي

إلى بلسم الفؤاد ولدي

حسين

الباحثة

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ-و
التمهيد	١-١١
١- تأصيل المصطلح (المرجعية، النص، الرسالة)	٢-٦
٢- الرسائل الاندلسية وتطورها	٦-٨
٣- الكاتب وعصره	٩-١١
الفصل الأول: المرجعية الدينية	١٢-١١١
المبحث الأول: القرآن الكريم	١٦-١٨
١- الألفاظ والتراكيب القرآنية	١٩-٥٧
٢- الصورة القرآنية	٥٧-٦٩
٣- القصة القرآنية	٦٩-٨٢
المبحث الثاني: الحديث الشريف	٨٣-١١١
الفصل الثاني: المرجعية الأدبية	١١٢-١٩٦
المبحث الأول: الشعر العربي	١١٥-١٧٧
١- الشعر العربي ما قبل الإسلام	١١٧-١٣٤
٢- الشعر العربي ما بعد الإسلام	١٣٥-١٧٧
المبحث الثاني: الأمثال	١٧٨-١٩٦
الفصل الثالث: المرجعيات التاريخية والأسطورية	١٩٧-٢٣٩
المبحث الأول: المرجعية التاريخية	١٩٨-٢٣٤
١- الحوادث	١٩٩-٢٠٥
٢- الشخصيات	٢٠٥-٢١٦
٣- الثقافة النسبية والقبلية	٢١٦-٢٢٤
٤- الأماكن التراثية	٢٢٥-٢٣٤
المبحث الثاني المرجعيات الأسطورية والاعتقادية	٢٣٥-٢٣٩
الخاتمة	٢٤٠-٢٤٢
المصادر والمراجع	٢٤٣-٢٥٩
الملخص باللغة الإنكليزية	A-C

المقدّمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمدُ لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاةُ وأتمُّ التسليم على المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا وقائدنا مُحمّد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، ورضي الله عن أصحابه الصالحين الذين جاهدوا معه في الله حقّ جهاده وما بدّلوا تبديلا، والذين كانوا أشداء على الكفار رحماءَ بينهم، ومن تَبِعهم بإحسان من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

وبعد...

فقد توثقتْ صلتي بالأدب الأندلسي في السنة التحضرية لدراسة الماجستير، ورغبت في اختيار موضوع في هذا الاختصاص والكتابة فيه، وكان لأستاذ هذه المادة الأستاذ الدكتور عبد الحسين طاهر محمد الربيعي أكبر الأثر في هذا التلقي، إذ إنّ أكثر الطلبة من زملائي مالوا إلى الأدب الأندلسي ورغبوا أن يكتبوا فيه تحت إشراف الأستاذ نفسه، ولكن حيل بينهم وبين ذلك بسبب تعدد الاختصاصات، وضرورة تدخل قسم اللغة العربية في توزيع الطلبة على المشرفين في اتجاهات الأدب المختلفة.

وبعد أخذٍ وردٍّ وإحضار عدد من الموضوعات الصالحة للكتابة في هذا الاختصاص ، وقع اختيار اللجنة العلمية على دراسة رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي المتوفى في القرن السادس الهجري ،وتعدّ رسائله التي تركها ذروة انتاجه الفنّي، لما أودع فيها من ثقافته العميقة وفنية بنائه، وتمكنه من استحضار ما لاءم تعابيره وخطابه النثري من مفاصل هذه المرجعية التي ابتدأت بالثقافة الدينية الراسخة، بوصفه فقيهاً متضلعاً في كتاب الله وفي علوم الحديث، وامتدت ثقافته لتشمل ولعه بالأدب العربي ،شعره ونثره إذ كان هو شاعراً مجيداً كما تراءى لنا ذلك في شعره الذي ضمنّه رسائله الكثيرة ، واهتم بالنثر العربي لاسيما الأمثال والأقوال السائرة، وعدا هذا فقد كان ذا اطلاعٍ على أحداث التاريخ وشخصياته وحكاياته ،وذا اهتمام لافت بالأساطير ، فنهض الباحث الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية الى تحقيق نصوص

الرسائل تحقيقاً علمياً ووضعها بين أيدي الدارسين ،وهو جهد علمي خلاق لما لاحظته الباحثة من دقة متناهية في ضبط نصوص الكاتب وإغناء التحقيق بالهوامش اللازمة .

قُسمت الدراسة على ثلاثة فصول تسبقها المقدّمة والتمهيد وتتأخر عنها الخاتمة، وجاء التمهيد ليقدّم إيجازاً شديداً حول تأصيل المصطلحات التي بني عليها عنوان الدراسة، بوصف العنوان هو العتبة النصّية التي تطلّ على ما سيأتي من متون هذه الدراسة، فكان الحديث عن المصطلحات (المرجعيّة، النص، الرسالة) في اللغة العربية والمفهوم الاصطلاحي.

أمّا الفصل الأول فقد تناول المرجعية النصّية الكبرى التي شكّلت معظم ثقافة الكاتب وتراءت في كثافة استحضارا ته منها والاتكاء عليها، وهي المرجعية الدينية الوطيدة الصلة بثقافته وميوله الاعتقادية وتضلّعه بالمباني الفقهية العقيدية التي تمتُّ الى الفكر الإسلامي بالصلة الشديدة، وخصّصتُ لهذا الفصل مبحثين : الأول المرجعية الدينية المتمثلة بالقران الكريم لما لوحظ من تمكن الكاتب من حفظ القران وتمثله لآياته والتضلّع في تفسيره وفهم أحكامه وأوامره ونواهيه ،وتبعه المبحث الثاني الذي استوعب اهتمام الكاتب بالحديث النبوي الشريف وكثره استدعاء نصوصه وتوظيفها توظيفاً فنّياً في خطابه النثري المتمثل برسائله اللافتة .

ويأتي الفصل الثاني من هذه الدراسة ليقف على مرجعية نصّية أخرى استأثرت باهتمام ابن أبي الخصال، وهي المرجعية الأدبية إذ لاحظت الباحثة عمق الثقافة الأدبية التي حملها الكاتب والمتمثلة باستدعاء النصوص الشعرية والنثرية واستثمارها في نصوصه النثرية استثماراً يوحي بفنية الكاتب وتمكُّنِه من هضم النصوص بعد استحضارها في ذهنه نتيجة لسعة إطلاعه وحفظه لها، ثم إ جراء ما يمكن إجراؤه من تغيير في بنيتها النصية إن لزم الأمر ذلك لتنسجم مع خطابه النثري انسجاماً عزّ نظيره في أدبنا العربي.

وقد وقفنا على فنيّة هذا الاستحضار للشعر العربي، الشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي والأندلسي، وربطنا بين النصوص المستدعاة أوما يعرف بالنصوص الغائبة وبين النص النثري المتمثل برسائل ابن أبي الخصال أي النصوص الحاضرة وأشرنا الى فنية الكاتب ومواطن إبداعه الفني وقدرته على الاستفادة من الموروث الثقافي في ترصين بنائه الفني وتعميق مضامينه النثرية.

وجدير بالذكر أنّ مرجعيته النصّية الأدبية امتدت للنثر العربي فجاء المثل العربي في طليعة الأشكال النثرية التي اهتم بها ابن أبي الخصال ووعاها وتمثلها فتسللت الى خطابه النثري بعفوية لافته ،فاندمجت في رسائله اندماجاً زاد من فنية الرسائل وخدم مضامينها وعزّز فاعلية التعبير ،إذ آتت أكلها ،لأنّ الكاتب الاندلسي الكبير كان في مواقع السلطة المتقدمة بصفته كاتباً ديوانياً يصدر عن زعماء المرابطين ، لذا كان التلقي النثري واسعاً وكبيراً جداً وخاصة إن المرابطين حملوا راية الجهاد لإسلامي والدفاع عن المدن الإسلامية ومجاهدة الصليبيين الذين تكالبوا على أرض الإسلام في القرن السادس الهجري .

واستوعب الفصل الثالث الثقافة التاريخية والأسطورية في مبحثين تناولت في المبحث الأول ثقافته التاريخية وما اشتملت عليه من حوادث وشخصيات تاريخها له حضور في رسائله ، بوصف الأحداث وقائع لابدّ أن ترتبط بالشخصيات ارتباطاً جدلياً ،وكان كلّ هذا التناول قد عرض بإيجاز شديد يتناسب مع مجال الدراسة وضرورة التناسب بين فصولها ومباحثها، بينما أوجز المبحث الثاني من هذا الفصل ما يمتُّ الى الثقافة الخرافية والاعتقادية التي وردت في رسائله ، من صلة ، بعد توطئة عن الأسطورة ومفهومها وتميزها من الخرافة والحكايات الشعبية ، عرّج هذا المبحث على الثقافة الاعتقادية التي لوحظ لها أثر في فنه النثري.

وجاءت الخاتمة لتلخص أهمَّ ما توصلت اليه هذه الدراسة من نتائج مستوحاة من قراءة رسائل الكاتب قراءة تحليلية والوقوف على إبداعه الذي يومئ إلى عمق مرجعياته النصية وتشعبها.

وعلّي أن أقول أنّ ثمة صعوبات واجهت الباحثة تتصل بالتحليل الأدبي ومعاينة النص الأندلسي، والوقوف على فنية التعبير فيه ومقارنته بالنصوص المستدعاة، لكن هذه الصعوبة واجهتني في الخطوات الأولى وقد ذُللتْ بهمة المشرف وخبرته ومتابعته لفصول الدراسة ومباحثها.

وعلى صعيد المنهج المتّبع، فإن المناهج -عموماً- تنقسم على قسمين فهي إمّا مناهج سياقية وإما مناهج نصّية، والدراسة عوّلت على المنهج التحليلي الذي يستند إلى معاينة النص الأندلسي وقراءته واستكناه عناصر شعريته وإبداعه بعد مقارنته بالنص المستحضر، والوقوف على مستوى فنية التداخل بين هذه النصوص المستدعاة ونص ابن أبي الخصال

وأسلوبه في الإفادة مما علق في ذهنه من هذه النصوص الهائلة ذات السياقات المختلفة وكيفية الاهتداء إلى الإفادة منها بفنية ومهارة تفضي إلى فاعلية التعبير بهذا الاستحضار.

أما مصادر الدراسة ومراجعها فكانت كثيرة ومتنوعة، إذ شملت التفاسير وكتب الحديث وبعض كتب البلاغة العربية، فضلاً عن دواوين الشعراء، وكتب الأمثال والدراسات والأبحاث الحديثة فضلاً عن المعاجم القديمة والحديثة.

وفي صدد الدراسات السابقة التي توجهت لرسائل ابن أبي الخصال بصورة مباشرة أو غير مباشرة ،فثمة رسالة أكاديمية رائدة وسمت ب(ابن أبي الخصال الأندلسي حياته وأدبه) للباحث ستار رزيج، وهي رسالة ماجستير توجهت لدراسة حياة الكاتب وأدبه تناولاً موضوعياً مختلفاً عما نحن بصدد دراسته والوقوف عليه، ونُوقشت أطروحة دكتوراه في جامعة البصرة كلية الآداب بعنوان(رسائل ابن أبي الخصال دراسة موضوعية فنية) ثم عدّل العنوان الى دراسة البناء الفني في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي للباحثة إيمان ناصر، وكذلك رسائل ابن أبي الخصال دراسة حجاجيّة أطروحة دكتوراه لحسن عفات في الجامعة المستنصرية الّا أن هذه الدراسة لم تتوجه الى المرجعيات النصّية في رسائل ابن أبي الخصال .

وقد كتب باحثون في النثر الفني الأندلسي عموماً وفي فن الرسائل الأندلسية خاصة الّا أنَّ كلَّ هذه الدراسات ،على أهميتها في الجوانب التي تناولتها، لم تُعْن بالمرجعيات النصّية التي استندت اليها رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي وعدّت عنصراً بارزاً من عناصر إبداعه الفني في فنه النثري (رسائله).

وختاماً فإني أشكر الخالق العظيم الذي منّ على بكل هذا، وأشكر مخلوقيه الذين كان لهم أبلغ الأثر في إتمام هذا العمل الأكاديمي، وفي طليعتهم الأستاذ الدكتور عبد الحسين طاهر الذي تفضل بالإشراف على هذه الدراسة واختار لي عدداً من الموضوعات حتى استقر الرأي على هذا الموضوع، وكان لملاحظاته السديدة وافكاره البناءة وقراءاته المستمرة ومتابعاته، الفضلُ في أنّ يصل البحث الى هذه الصورة.

واشكر قسم اللغة العربية رئيساً وأساتذة لما بذلوه من اهتمام وجهد ومتابعة لطلبة الدراسات العليا.

واشكر رئيس لجنة المناقشة واعضاءها لتفضلهم بمناقشة البحث وسيكون لملاحظاتهم السديدة بالغ الأثر في تقويم الرسالة وبلوغها المراد.

ولا أنسى ان أتوجه بالشكر الى عائلتي ولاسيما زوجي الفاضل المهندس علاء الذي وقف معي طوال مدة الدراسة، واشكر كلَّ من مدّ لي يد العون والمساعدة، مدّ الله في أعمارهم وأضفى عليهم ثوب العافية.

وكلَّ ما أرجوه أن تشكل هذه الدراسة لبنةً صالحة في صرح الدراسات الأندلسية، هذه غايتي التي اسعى اليها ((وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)) (النجم:٣٩).

الباحثة

التمهيـــد

تأصـــــــيل المصـــــــطلح (المرجعيـــــة، الـــــنص، الرســـــــالة)

التمهيد

١. تأصيل المصطلح (المرجعية، النص، الرسالة):

المرجعية لغة: جاء في لسان العرب رَجَع يَرْجع رَجْعاً ورجوعا ورُجْعَي ورُجعانا، ومَرَجِعاً ومَرْجعة: أي انصرف (١).

وفي القران الكريم قال تعالى ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٣) أي الرجوع والمرجع وفي الآية الثانية رجوعكم .

ويُقَال رجّعت الناقةُ في حنينها: قطّعتهُ ورجع الحمام في غنائه واسترجع، قطعه ورُجعان الكتاب جوابه.

أما في القاموس المحيط رَجَع، يَرجع، رجوعاً، ومَرْجعاً، كمنزلٍ ورُجعى ورُجعاناً بضمهما أنصرف، ورجع الشيء عن الشيء وإليه رَجْعاً ومَرجعاً، لمقعدٍ ومنزلٍ: صَرَفه وَرده كأرجعه ورجع كلا من فيه أي أفاد، ورجع العلف في الدابة، نجَعَ، وجاءتني رجعى رسالتي كبشرى، أي مرجوعُها ويؤمن بالرجْعَة، أي بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت والرّجُعة والرّجُعانُ والرّجُعى بضمهّن: جواب الرسالة.

والترجيعُ: المطر بعد المطرَ ومَرجْعةُ كمحسنةٍ: لها ثوابٌ وعاقبةٌ حَسَنة وراجعه الكلام عاوَدَه والناقة رجعت من سير إلى سير (٤).

فمفهوم المرجع يعني الردّ ويأتي بمعنى القطع أو بمعنى جواب الكتاب.

---

(١) لسان العرب: مادة رجع.

(٢) العلق:٨

(٣) المائدة:٤٨

(٤) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بأشراف محمد نعيم العرقسوسي، لبنان –بيروت، ط ٨ ،١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م، ٧٢٠-٧٢١.

المرجع اصطلاحاً :

جاء في معجم المصطلحات اللغوية: "المرجعُ يدلُّ على ما تُحيل إليه العلامةُ اللسانية، سواء في العالمِ الحقيقي (الواقع غير اللساني) أم في عالم الخيال [١].

"والمرجع هو أحد أمّات الكتب الجامعة لشتى المعارف أو لنوع خاص منها ملتزماً أحياناً ترتيباً معيناً لتيسير البحث فيها، مثال ذلك المعاجم ودوائر المعارف"[٢].

والمرجعية: وهي التي تحيلُ على الأشياء التي تُشكّلُ موضوع الحديث وتُساعدُ على الحديث عنه"[٣] وأيضاً المرجعية: هي العالم الذي يُحيلُ عليه ملفوظ لغويّ، علامة منفردة كانت أم تعبيراً مركباً ويكون ذلك العالم واقعياً أم متخيلاً"[٤].

وتتكون مرجعية الأديب عبر تفاعل خطابه مع خطاب آخر سابق عليه أو معاصر له ليشكل المرجع لذلك النص.

فالمرجعية-إذن-كُلُّ ما من شأنه أن يُعدَّ منبعاً ثقافياً أو فكرياً لكلِّ ما يُلفظ أو يكتب، إذ يستحضره القائل أو الكاتب في أثناء تكوين عمله (نصّه) بقصدٍ أو بغير قصد منه.

ويتفاوت الأدباء والمفكرون في قيمةِ ما يُقدّمون، فكلّما كانت مرجعياتُهم عميقةً وواسعةً، ظهر إبداعُهم وبرزت قدراتُهم على التأثير في متلقيهم.

(١) معجم المصطلحات اللغوية، خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٥م،١٢٢.
(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ط٢ ،١٩٨٤م، ٣٥١-٣٥٢.
(٣) شعرية الخطاب الصوفي، محمد يعيش، منشورات كلية الادب والعلوم الإنسانية فاس، المغرب، سلسلة رسائل واطروحات رقم ١، ٢٠٠٣م، ٦٩.
(٤) مرجعيات بناء النص الروائي، عبد الرحمن التمارة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م، ٥٢.

النص لغةً: جاء في لسان العرب: النصّ هو رفعُك الشّيءَ نص الحديث نصّاً، رفعه وكلّ ما ظهرَ فقد نصّ، ونصّ الحديث إلى فلان أي رفعهُ، والنصّ والنصيصُ: السيرُ الشديد والحثُّ وأصل النَّص أقصى الشيء وغايته، ونصَّ كلِّ شيء مُنتهاه [١] .

أمّا في القاموس المحيط" نصَّ الحديث إليه: أي رَفَعَهُ ونصَّ ناقته استخرج أقصى ما عندها من السيرِ ونصَ الشيء حرّكهُ، ومنه فلان ينصّ أنفه غضباً، وهو نَصأْع الأنف، ونصّ المتاع: جَعَل بَعْضَهُ فوق بعض، ونصَّ فلاناً، استقصى مسألته عن الشيء ونصّ العروس، أقعدها على المنصة وهي ما ترتفع عليه فانتصت ونصّ الشيء أظهرهُ [٢].

النص اصطلاحاً: إنّ كثيراً من الباحثين خلطوا بين مفهوم النص ومفهوم الخطاب، ودفعاً لهذا الالتباس، واستناداً لما وقفنا عليه فيما استقر عليه المصطلحان النقديان، نشاطر الدكتور محمد مفتاح رأيه من أن النص "مدونة كلامية، وحدثٌ متصل بالزمانِ يُوصف بأنه تواصلي، وتفاعلي منغلق في سمته الكتابية، وله صفة لتوالد والتناسل"[٣].

وعرّفه محمد عزام بأنه "وحدات لغوية ذات وظيفة تواصلية دلالية تحكمها مبادئ أدبية تنتجه ذات فردية أو اجتماعية"[٤].

ونطالع في معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب قول مؤلفيها "النص: (أ)الكلمات المطبوعة أو المخطوطة التي يتألف منها الأثر الأدبي (ب) اقتباس أو جزء من الكتب المقدّسة والتعليق عليها في الوعظ (ج)الاقتباس الذي يعتبر نقطة انطلاق البحث أو خطبه"[٥].

---

(١) لسان العرب :٧/٩٧-٩٨
(٢) القاموس المحيط: ٦٣٢.
(٣) تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د . محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي ، ط١، ١٩٨٥م، ١٢٠.
(٤) ينظر: النص الغائب-تجليات التناص في الشعر العربي -، محمد عزّام(دراسة) منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ٢٦.
(٥) معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب :٤١٢.

الرسالة لغة: جاء في لسان العرب: أرسل الرسل القطيع من كلّ شيء وجمع الرسالة، رسائل وقد أرسل إليه، والاسم الرسالة والرُّسلُ قطيعٌ بعد قطيع، وأرسلوا إبلهم إلى الماء إرسالاً أي قِطَعَاً.

والرسّل والرّسالة: الرّفق والتؤدة، يُقال يَرسل الرجلُ في كلامهِ ومشيتهِ إذا لم يَعَجْل والترسل من الرّسل في الأمور والمنطق كالتمهُّل والتوقرُّ والتثبتُ وتراسلَ القوم: أرسَل بعضُهم إلى بعض [١] ووردت في القران الكريم ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢].

فمفهوم رُسُل عند ابن منظور اتسم بالتأني والرفق من دون العجلةِ، وحملت مفهوم التتابع والتكرار، وقال صاحب القاموس المحيط "والرسَّل مُحرّكة: القَطيع من كلّ شيء والرَّسولُ المُرسل جمع أرسُلٌ ورُسلٌ ورُسلاءُ"[٣].

ونطالع تعريفاً للرسالة في كتاب صبح الأعشى إذ يقول القلقشندي "الرسائل وهي جمع رِسالة والمرادُ فيها أُمور يُرتِّبها الكاتِبُ من حِكايةِ حالٍ من عَدُوّ أو صَيْدٍ، أو مَدحْ وتَقْريضٍ أو مُفَاخرةَ بين شيئين، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، وسُميتْ رسائل من حيثُ إنَّ الأديب المُنشئ لها ربّما كَتب بها إلى غيره مُخبراً فيها بصورة الحال، مُفتحةً بما تُفتح به المكاتبات ثم تُوسَّع فيها فافتتحت بالخُطب وغيرها"[٤].

والرسالة يعرّفها عبد العزيز عتيق قائلاً: "قطعة من النثر الفني تطول أو تقصر تبعاً لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه وقد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سبباً، فقد يكون هذا الشعر من نظمه أو مما يستشهد به من شعر غيره، وَتكون كِتابتُها بِعبارة بليغة وأسلوبٍ حسنٍ رشيق، والفاظٍ مُنتقاةٍ، ومعانٍ طريفة، والنثر الفني الأندلسي يتمثل أكثر ما يتمثل في الرسائل التي أنشأها كُتّابه"[٥].

---

(١) لسان العرب: ١١/ ٢٨١ -٢٨٣.
(٢) الشعراء:١٦
(٣) القاموس المحيط : ١٠٠٥-١٠٠٦.
(٤) صبح الأعشى ، الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية -القاهرة ، ١٩١٩م، ١٣٨/١٤.
(٥) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٩٧م، ٤٤٨

بيد أنَّ كثيراً من العلماء والباحثين قد خلطوا بين فن الرسائل وأجناس نثرية أخرى كالمقالة مثلاً ،فهذا الدكتور محمد يوسف نجم يقول "وظهرت بُذور المقالة في أدبنا منذ القرن الثاني للهجرة وتمثلت على أحسنِ صورها في الرسائل وخاصة الإخوانية والعلمية"(١).

ومثله محمد الخطيب حين يشبّهُ الرسالة بالمقالة: إذ يقول" بوحدة الموضوع العام وغايته وصغر الحجم تشبه الرسالة القديمة إلى حدّ ما المقالة الحديثة"(٢).

وفي الرؤية الغربية نلحظ أنّ مفهوم الرسالة قد يختلف عمّا ألفناه من تعريفات، فقد قال بوثور "وكثيراً ما تكون الكتابة موجهة إلى شخصٍ واحدٍ وهذا ما نفعله في رسائلنا"(٣).

٢.الرسائل الاندلسية وتطوراتها:

ازدهرت الرسائل في الاندلس وتنوعتَ أغراضُها، فقد مرّت هذه الرسائل بمراحلَ زمنيةٍ و ظروفٍ مختلفة أسهمت في تطورها وساعدت على تنويع مضامينها وموضوعاتها وحتى شكلت الرسائل، فنلاحظ أنّ النثر في القرن الخامس وما بعده يختلف اختلافا جذرياً عن الرسائل في القرون الأولى (الأول والثاني والثالث وما بعدهما) فبعد أن كانت الرسائل الأندلسية مُحاكاة للرسائلِ المشرقية ،إذ كُتبت بنفسٍ مشرقي وتطورت بمرور الزمن وأصبحت ٤فناً له مميزاته الخاصة ،وطُبعت بطابع أندلسي خالص ، فقد أحتلت الرسالة مكانة عظيمة ومرموقة في الأندلس وأخذ الكتاب الأندلسيون بالتجديد في هذا الفن، فغيروا في شكل الرسالة المعهود وبنائها وظهرت موضوعات لم تسبق لها الرسائل المشرقية ،مثل رسائل الوجد الديني ورسائل الزرزوريات ،وذلك رغبة منهم في تأكيد الذات الأندلسية ومع حلول عهدِ الطوائف ،ثم المرابطين أصبحت الرسائل فناً مميزاً، واصبح للكتاب أثر مهم، ومما شجع على ازدهار فن الرسائل في الأندلس هو تشجيع الأمراء لهذا الفن ،وحرصهم على أن يكون في حوزتهم أفضل الكتاب لما يحتله الكاتب من مكانة مهمة في الدولة ،لذا اشترطوا في الكاتب شروطاً

(١) فن المقالة، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، لبنان –بيروت، ط٤، ١٩٦٦م، ١٧.
(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٣) بحوث في الرواية الجديدة، ميشيال بوثور، ترجمة فريد أنطونيوس- عويدات للطباعة والنشر، بيروت- باريس ، ط٣، ١٩٨٦م، ١٣٦.

عديدة منها : أن يكون ذا ثقافة واسعة تشمل النحو والصرف والبلاغة والاطلاع على أيام العرب واللغة والأدب العربي والعلوم الدينية وغيرها.

ومع ازدهار هذا الفن فقد تميزت الرسائل الأندلسية بمزايا وخصائص فنية عدة منها ،أن الرسائل الأندلسية كانت تميل إلى البساطة في القول ،وعدم التعقيد، وذكر الغريب، والوحشي من الكلام إلا ما ندر، ومن خصائص الرسائل الأندلسية ،المزجُ بين الشعر والنثر في الرسائل وقد يكون الشعر الذي يوردهُ الكاتب من نظمه، أو من نظم شاعر آخر والكاتب يأتي (بالشعر والنثر معاً) لدفع السأم والملل عن المتلقي وخاصة في الرسائل الطويلة فإذا كان الشعر من نظم الكاتب أظهر براعتهً وإلمامه بالأدب بجناحيه (الشعر والنثر) أما إذا كان الشعر الذي يورده ليس من نظمه، إنما من نظم شاعر أخر- وهذا يدل على ثقافة الكاتب وإلمامه بالتراث العربي واتساع مرجعيته النصيّة.

ومن الخصائص التي تميزت بها الرسائل الأندلسية ،هو توشيها بالشعر والأمثال والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ،فكان الأدباء يرصّعون رسائلهم بشيء من الشعر ما يضيف لها لمسات جمالية وأبعاداً دلالية عميقة وقد كثر كذلك الاقتباس من القران الكريم والحديث النبوي الشريف ،إذ شكل القران الكريم الرافد الأول في إغناء النثر الأندلسي فأخذ الكاتب يستحضر الآيات القرآنية والألفاظ والتراكيب القرآنية وكذلك القصص القرآنية ليُزيّن بها رسائله، ايضاً احتوت الرسائل الأندلسية على الدعاء وهو الدعاء بالقوة والنصر والسعادة وما إلى ذلك من أمور الخير، ويكثر الدعاء في موضوعات المدح والتهاني والتعازي والشفاعة ويقلُّ في مخاطبة المتمردين والعُزَّل"[1] وتضمنت الرسائل الأندلسية جُملاً معترضة تعترض السياق وتأتي تأكيداً لجملة أو تغييراً او تقريباً أو دعاء وتسمى بالحشو ايضاً[2] .

(١) ينظر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، حازم عبد الله خضر، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة الدراسات العراقية ٢٤٤، ١٩٨١م، ٣٦٣.

(٢) الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، زينه عبد الجبار محمد، سلسلة الدراسات الاسلامية المعاصرة ٢٩، ط١، ٢٠٠٩م، ١٣١ .

وما ميز الرسائل الأندلسية هي، مناسبتها للمقام من حيث الإطناب والإيجاز فقد اختلفت فيها الرسائل الأندلسية كما يقول الدكتور أحمد هيكل تبعاً لمقامها "فأحيانا هي موجزة إذا تطلب المقام الإيجاز وهي تتميز بالإطناب في الموضوعات التي تتطلب بسط القول والتفصيل فيه مثل الوصايا والمشورات"(١) .

وأيضاً من الخصائص التي تميزت بها الرسائل الأندلسية ،هي تغيرها في بناء الرسالة فلم تلقَ المقُدمة الاهتمام الذي لقيتهُ بالرسائل المشرقية فقد عنى الكاتب المشرقي بصياغة المقدمات واعطائِها أهمية كبيرة، فهي المدخل الذي يقودُ الأديب إلى الدخولِ إلى صلبِ الموضوع لكن في الرسائل الأندلسية لم يولِ الكتاب الأندلسيون المقدمات أهمية كبيرة ولم يهتموا بصياغة المقدمات الطويلة بل يكتفون بمقدمة موجزة أو أحياناً يدخلون إلى صلب الموضوع مباشرة من دون مقدمات ،أما خاتمة الرسالة الأندلسية فغالباً ما تُختم بالدعاء والسلام فيكتب الأديب رسالته بمقدمة بسيطة موجزة ثم ينتقل إلى صلبٍ الموضوع (تعزية، توسط، تهنئة، مدح...) ثم الخاتمة وهي بسيطة وغالباً ما تكون دعاءً للمرسل اليه بتسديد خطاه أو دوام سعادته.

وأبرز ما تميزّت به الرسائل الأندلسية، احتواؤها على الملامح القصصية سواء أكانت تخص الملامح القصصية الطويلة أم القصيرة، وهذا التوظيف للملامح القصصية يُساعد الكاتب في جعلِ الرسالة تسير نحو غايتها تحقيقا لهدفها وإظهاراً لجماليتها في التعبير، فالرسائل الأندلسية تميزت بطابعها الخاص وروحها المُستقلة مع تأثرها بالرسائل المشرقية لكنها كتبت بروح أندلسية عبرت عن واقعٍ أندلسي بأفضل صورة وعكست ثقافة الكاتب الأندلسي وبيئته.

(١) الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف -القاهرة، ١٩٨٥م،١١١.

٣. الكاتب أبو عبد الله بن أبي الخصال وعصره:

هو أبو عبد الله محمد بن مَسعود بن خصلة بن فرج بن مجاهد الغافقي*المولود سنة(٤٦٥هـ) وأسرته من قرية فرغليط**من جهة شقورة التابعةٌ لمدينة جَيّان وابن أبي الخصال من أسرة موصولة بالعلم أمدتهُ بالتغذية العلمية وكان له أخوان هما ابو مروان وابو جعفر [١].

مكانته العلمية:

وابن أبي الخصال هو أحد الاعلام الأندلسيين ثقافةً، وعلماً، وكتابةً، وشعراً، وإدارةً، برَع في فن الكتابة، وكتب للكثير من الأمراء والولاة والحكام ومنهم علي بن يوسف بن تاشفين [٢] وما يؤكد علّو كعبه في الأدب والمعارف ما قاله أكابر العلماء فيه منهم ابن بسام الشنتريني " أحد أعيان كتاب الزمان، وحامل جملة الإحسان ،بحرُ معرفة لا تعبره السّفُن، ولو جرّتْ بشهوتها الرياح ،وطودُ علمٍ لا ترقى اليه الفطن، ولو سما بها الإمساء والأصباح ،وأدبٌ لا تعبر عنه الألسن، ولو أمدتها الأوتار الفصاح، إلى طول باع ورقة طباع نجم بأفقه من بلدِ شقورة فأسكت القائلين واستوفى غاية المحسنين، وهو اليوم بحيثُ لا تشير الأصابع إلا اليه ،ولا تنطوي الأضالع الآ عليه ،وله بيان لا يتعاطاه ناظمٌ ولا ناثر، وإحسان لا يبلغ مداه أول ولا آخر..."[٣] .

---

* قبيلة غافق: هي قبيلة عربية حجازية عدنانية من ذرية النبي إبراهيم (ع) .
ينظر: جمهرة النسب، لابي المنذر هشام بن محمد الكلبي : تحقيق ناجي حسن ، عالم الكتب -بيروت ،ط١، ١٨/١.

** فرغليط: قرية من نواحي شقورة من بلاد الأندلس، معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر –بيروت، ١٩٩٣م، ٢٥٤/٤.

(١) في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق- سورية ط١، ٢٠٠٠م، ٣٤٢.

(٢) المصدر نفسه الصفحة نفسها.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت-لبنان ١٩٩٧م، ٧٨٦/٣-٧٨٧.

وقال عنه ابو القاسم بن بشكوال (ت٥٧٨ هـ) (...كان متفنناً في العلومِ، مُستبحراً في الأدب واللغات، قوي المعرفة بهما مُتقدماً في معرفتهما واتقانهما، كان كاتباً بليغاً، عالماً بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسير والأشعار...وله تواليف حسانُ ظهر فيها نُبله واستبان بهما فهمهُ ...)[١] ومما نطالعه في مقدّمة كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلَحَ أهل الأندلس للفتح بن خاقان المتوفى (٥٢٩هـ)إذ كان معاصراً للكاتب ابن أبي الخصال مستدعياً من كلامه ما يثبته في كلامهِ[٢] وهكذا كان لابن أبي الخصال الاندلسي مكانة علمية عالية وثقافة واسعة وما يؤكد ذلك أقوال كبار العلماء فيه ومنها ما قاله المراكشي:

(ولأبي عبد الله بن أبي الخصال ديوانُ رسائل يَدُور بأيدي أدباء الأندلس؛ قد جعلوه مثالاً يحتذونه، ونصبوه إماماً يقتفونه ...)[٣].

فابن أبي الخصال ذو ثقافة موسوعية اشتملت على الأدب العربي بجناحيه (الشعر والنثر) فضلاً عن ثقافته الواسعة التي أمدَّت رسائله بما جعلها تبلغ أعلى درجات الرقي في الفن، إذ تميزت تميزاً لافتاً نوّه به كبار الأدباء القدماء والمحدثون فقد كان عالماً فقيهاً ذا ثقافة أدبية واسعة أطلع على الكتب العربية البليغة التي تأثرت بثقافته الوسيعة المستندة إلى القران الكريم والحديث النبوي الشريف ومرجعياته النصيّة الأخرى.

فقد ظهرت هذه الثقافة الدينية والأدبية والأسطورية والتاريخية جلية في أدبه فالمتأمل لنصوصه يكشف مدى عمق الصلة التي تربطه بمرجعياته النصية وهذه الصلة انعكست عبر توظيف الكاتب لهذه المرجعيات النصيّة في رسائله بشكل لافت يُثري الرسالة ويمدّها بالقوة والروعة وبشدة التأثير في المتلقي.

(١) الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، ابي القاسم بن بشكوال (ت٥٧٨هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٠م، ٢/٢٢٥.
(٢) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان ، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة ،دار عمار ،مؤسسة الرسالة ،١٩٨٣م،مقدمة المحقق:٢٥.
(٣) المعجب في تلخيصّ أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة -القاهرة ،١٩٤٩م، ج١/ ١٧٥.

وفاته:

قُتل ابن أبي الخصال (٥٤٠هـ) قتله المصامدة الذين دخلوا قرطبة؛ في الفتنة المبيرة التي طالت بالأندلس بين ابن حمدين وابن غانيه[١].

وقد كثُر التأسّفُ على مصابه والتفجع لمقتله "فكان آخر رجال الأندلس علماً وحلماً، وفهماً ومعرفة، وذكاء وحكمة ويقظة وجلالة ونباهة، وتفنناً بالعلوم، وكان له اهتمام بها وتقدم في معرفتهما واتقانهما"[٢].

(١) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال تحقيق محمد الداية: ١٢

(٢) الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠١ م، ٢ / ٤١٧.

الفصل الأول

المرجعيـــــة الدينيـــــة

المبحـــث الأول : القـــرآن الكـــريم

المبحـث الثـاني : الحـديـث النبوي الشريف

الفصـل الأول

المرجعيـة الدينيـة

توطئة:

إنَّ الأديب الأندلسي هو أديب عربـي تـأثر - بـلا أدنـى شـك - بمرجعيـات عـدة شـكّلت جزءاً من ثقافته، ومن أهم المرجعيات التي أثـرت فـي الأديـب الأندلسـي المرجعيـة الدينيـة ،إذ استحضر التراث الإسلامي ونهل من موضوعاته العديدة وما فيـه مـن عبـر ومواقـف ومعـانٍ، اغنت رسائله الفنية وأضافت إليها ابعاداً جماليةً ودلاليةً عاليةً، فالأندلسيون قـد أولـوا اهتمامـاً بتراثهم الثقافي الإسلامي ومنـه القـران الكـريم والحـديث النبـويّ الشـريف فضـلاً عـن تـأثرهم بمرجعيات نصيّة أخرى غير دينية كالأدبية والتأريخية ،فأخـذ الكتـاب يوظّفـون هـذا المخـزون المعرفي في نتاجاتهم الأدبية ومنها رسائلهم مستلهمين التجارب والمواعظ من تلك المرجعيـات ،فضلاً عن ترصين بناء انتـاجهم الأدبـي وتعميـق مضـامينه ،وهـذا يـديم الصـلة بـين الماضـي والحاضـر عنـد الكاتـب الأندلسـي، و يجعـل أسـلوبه مقبـولاً ومضـامينه مـؤثرة فـي متلقيـه ،والمرجعية الدينية شكّلت أهم روافد ثقافة الكاتب الاندلسي، فقد كـانوا يشـترطون فـي الكتّـاب شروطاً إذا توافرت فيه تمكنّه من الوصول إلى المناصب العالية ومـن هـذه الشـروط أن يكـون حافظاً لكتاب الله عزّ وجلّ ولأحاديث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فضلاً عن كونـه حافظاً لأخبار الملوك وأيام العرب ،هذه الانطلاقة من المرجعية النصيّة الدينية، جعلت من ابن أبي الخصال الفقيه والمترسل الذي زخرت رسائله –بأنواعها-بالمعاني الدينيـة الموائمـة لبيئتـه السياسية وعصره عصر المـرابطين-الـذي اسُس علـى الجهـاد ،ورفـع رايـة الـدين الاسـلامي الحنيف بوساطة الدفاع عن مدن الأسلام وصدّ أعدائه الصليبيين، الذين يحاولون احـتلال المـدن الاسلامية وتشريد أهلها...وكان الكاتب ابن أبـي الخصـال فـي طليعـة المتقدّمين للجهـاد ولكـن عبر قلمه برسائله الصادرة عن قادة المرابطين حملة راية الجهاد، بيد أنه لم يكن كاتبـاً ديوانيـاً تجلت في رسائله المعاني الدينية فحسب ، بل تضمنت رسائله وافراً من ثقافته الأدبية الشـعرية والنثرية، فضلاً عن أنه ملأ كثيراً من رسائله بقصائد ومقطعات من نظمه هـو، فالكاتـب الحـقّ يجب أن يتمتع بالثقافة العالية والمعرفة الموسوعية، وأكد ابن الأثير على ضـرورة تـوافر هـذه

الشروط في الكاتب وذلك في معرض حديثه عن طرق تعليم الكتابة إذ قال : "فعلى الكاتب أن يصرف همه إلى حفظ القران الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة في المعاني والألفاظ ثم يأخذ الاقتباس من هذه الثلاثة(القران الكريم ، الحديث النبوي الشريف ، والأشعار)فيقوّم ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدي حتى يستقيم على طريقة لنفسه"(١) .

وهذه الشروط تؤكد ما كان يتمتع به الكتاب من ثقافة دينية واسعة جعلتهم يبدعون في مناصبهم هذه فأخذ الكاتب الأندلسي بالعودة إلى مرجعياته الدينية موظفاً إياها بأسلوبه الخاص مما يزيد أدبه قوةً وروعة، ولابن أبي الخصال ثقافة متنوعة واسعة استقاها من الروافد الاسلامية ، وتؤكد مصادر دراسة الأديب الكاتب ابن أبي الخصال انه كان متبحراً بعلوم القران والفقه مطّلعاً على السنة النبوية الشريفة حافظاً وراوياً.

فالكاتب كان من حفظة القران الكريم متفقها في معانيه وتفسيرها فضلاً عن اهتمامه بضبط الأحاديث النبوية والاستشهاد بها في رسائله فهو يوظف كلمات القران في رسائله مستحضراً نصوصها.

وجدير بالذكر أنّ الاتكاء على التراث والاستفادة منه قد كان بارزاً في رسائله إذ إنَّ تمكنه من هذه العلوم والمعارف ، لاسّيما ما يتصل بالثقافة الاسلامية الخالصة، أفضى به إلى أن يوظِّف روافد هذه الثقافة في فنه الكتابي-رسائله-فتداخلت هذه المرجعيات النصية في خطابه لينتج خطابا جديداً رفع كفاية التعبير في رسائله فبلغت الغاية في الفن والإبداع ومما دعا ابن أبي الخصال إلى أن يكون واسع الاطلاع في الثقافة الإسلامية، أن العصر الذي عاش فيه –العصر المرابطي- عصر قام على إعلاء شأن الفقهاء وعزّز مكانتهم(٢).

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار النهضة ، القاهرة -مصر، ١٩٥٩م، ١/ ١٠٠.

(٢) ينظر:دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين -دراسة سياسية وحضارية-، سلامه محمد سلمان دار الندوة الجديدة ،١٩٨٥م، ١١٨ وما بعدها.

فضلاً على أنّ المرابطين ابتداءً من زعيمهم يوسف بن تاشفين إلى آخر ملوكهم قد وضعوا الجهاد نصب أعينهم، لذا سَخّر الأدب بجناحيه الشعر والنثر ليكون مدافعاً عن مبادئ الجهاد ضد الإسبان ، ولمّا كان ابن أبي الخصال الكاتب السلطاني المعوّل عليه ،لذا لابد له ان يكشف المعاني الدينية الجهادية خاصة معززة بنصوص القران الكريم والحديث النبوي الشريف وأقوال الائمة والصحابة والتابعين ترصيناً لمبانيه وتعميقاً للمعاني التي أراد إيصالها إلى متلقيه.

المبحث الأول

القرآن الكريم

أول المرجعيات الدينية التي تأثر بها الأدباء العرب ومنهم الأندلسيون هو القران الكريم وهو المعين الذي لا ينضب والكتاب الخالد الذي جمع بين غزارة المعنى وإحكامه ورصانة اللفظ وفصاحته، وبراعة النظم التي بلغت حدَّ الإعجاز وروعة التناسق الفني فمثّل القران الكريم الرافد الأول الذي استقى منه الكاتب الأندلسي، لما امتازت به ألفاظه من تناسق وخلوها من تنافر الحروف، ولم لا وهو المعجزة الخالدة التي أبهرت العقول، وأدهشت النفوس وقد تحدى فصحاء العرب وبلغاءهم، فألجم ألسنتهم، وعقل بيانهم وعجزوا عن مجاراته مع جدّهم واجتهادهم من إزالة أمره وإبطال دعواه، والقران الكريم يدعوهم للتحدي بين الحين والأخر قال تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) وقال تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢)

إذ اقتبس الأئمة (عليهم السلام) والصحابة والتابعون من القران الكريم فكثيراً ما عوّلوا على الاقتباس منه "لأن الفاظه سليمة عن التنافر ،بعيدة عن البشاعة، عَذْبةٌ على العذبات ، سلسةٌ على الأسلاتِ، كلّ منها كالماء في السّلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرّقّة" (٣) لذا ظل القران الكريم ميداناً فسيحاً للأدباء ينهلون منه بحسب، صلتهم به وفهمهم أسراره ومعانيه، وتمثلهم لمشاهده وأجوائه ونظمهِ وسياقاته وما إليها.

(١) هود: ١٣
(٢) البقرة: ٢٣
(٣) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ٣٤٧.

وما تميز به القران الكريم من خلوه من التعقيد وسهولة فهم المعاني المتسمة بحسن التأليف، وجمال التنسيق، وعلى هذا يذهل المتلقي ويوقظ ذهنه [١] وقد بهر القران الكريم العربَ منذ الوهلة الأولى فوقفوا مندهشين أمام هذه المعجزة الخالدة وأقرّوا بجماله وإعجازه ودُهشوا، لما عليه من ألفاظ وتراكيب وما أثار من بيان أخاذ لبلاغته وروعة تراكيبه وأسلوبه البياني الرائع، حتى إنّ الوليد بن المغيرة أقرّ بأعجاز القران الكريم وهو أحد المشركين، إذ أبهره هذا الكتاب العزيز فقال فيه "...إن له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، واسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه"[٢].

وقد أثر القران الكريم في بناء النص الأدبي، فالأديب الاندلسي قد تأثر شأنه شأن أسلافه ومعاصريه بالقران الكريم، وتسرب في نفسه، ومن أقوى بواعث تأثر الشعراء العرب بالقران الكريم وقعه الخاص، لما يحويه من حلاوة المعاني وقوة المباني المؤثرة بفصاحتها وبلاغتها وإعجازها الظاهر عن مجاراتها منذ نزوله إلى يومنا هذا، وهذا الإعجاز يتراءى في اتساقه وفي التقديم والتأخير، وفي الذكر والحذف، وأساليب الاستفهام والفواصل وغيرها [٣].

فاستحضار النص القرآني وتداخله مع النص الأدبي النثري عُدَّ سمة من سمات نثر الأندلسيين في بناء نصوصهم ويُلاحظ أنّ تلك الظاهرة أو السمة تكاد تغطي جميع الموضوعات النثرية التي عالجها الكتاب آنذاك، بما فيها موضوعات الفكاهة والهجاء والمقامات.. [٤] ولصلة ابن أبي الخصال الوطيدة بالقران الكريم أثر واضح تمثّل في بناء رسائله الأدبية ومضامينها ولما للقران الكريم من أثرٌ في نفس الكاتب، فقد كثر الاستدعاء بايات الذكر الحكيم وأخذ معانيه والفاظه ووظفها في نص الرسالة، ليضفي على رسالته القوة والجدة والبراعة في التعبير عن المضمون.

---

(١) ينظر: الصورة الأدبية في القران الكريم، صلاح الدين عبد التواب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لو نجمان، ط١، ١٩٩٥م، ١٣-١٤.

(٢) أسباب النزول، تصنيف أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري، تأليف أبي القاسم هبة الله بن سلامة أبي النصر، عالم الكتب -بيروت ،٣٣٠.

(٣) ينظر:فنون النثر الأدبي في أثار لسان الدين بن الخطيب – المضامين والخصائص الأسلوبية –، محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بنغازي، د.ت،٢٥٢/٢.

(٤) ينظر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: ٣٧٨و٣٧٩.

فاستحضر ابن أبي الخصال الألفاظ والتراكيب القرآنية بشكل مباشر(نصّي)من دون تغيير فيها أو بشكل محوّر يغير في اللفظ أو التركيب ليناسب بنية خطابه النثري ويفيد الغرض الذي اراده الكاتب وايضاً حضرت الصورة القرآنية (التشبيه، الاستعارة، الكناية) في رسائله بشكل لافت ولم يغفل ابن أبي الخصال عما للقصة القرآنية من القدرة عن الكشف عن المعنى المطلوب فجاءت القصة القرآنية في رسائله لتعبر عن غرض قصده الكاتب في استحضارها في رسالته لتزيدها قوةً وروع بيان، وتكثيف معنى ،وفي كلّ هذا وجد الكاتب أنّ القران الكريم هو الكتاب الخالد الذي لا يوجد ما يماثله فأعجب به ،وأخذ يرجع إليه بين الحين والاخر في صوغ رسائله والاستشهاد بآياته والأخذ من الفاظه والاستفادة من قصصه ومعانيه.

١. الالفاظ والتراكيب القرآنية

أ-الاستحضار المباشر (النصيّ)

ب-الاستحضار غير المباشر(المحوّر)

أ- الاستحضار المباشر (النصيّ):

وهو أن يقوم الكاتب باستحضار بعض آيات القرآن الكريم عبر اللفظ والمعاني القرآنية وايراده بشكل مباشر في الرسالة ومن دون تغيير في لفظ الآية أو معناها بشرط وجود نوع من المواءمة ونوع الرسالة (١).

منها رسالة يصوغها الكاتب ابن أبي الخصال في الاعتذار يقدّمها بفنّية عالية مراعياً فيها ما يتطلبه هذا الفنّ من حيث الصياغة والمعاني والمقَّدمات والأسلوب، إّذ يكسر فيها أفق توّقع المتلقي كما يقال – المعتذر إليه على شاكلة قوله في رسالة إلى أحد الكبراء يعتذر إليه عن عدم تلبية دعوة وجهت إليه ٣٢– لذا قدّم لرسالته يذكر ما امتاز به المعتذر إليه من شيم وخصال حسنة متوسلاً إليه أن يقبل اعتذاره لعدم تلبيته دعوته؛ لأن طارئاً مفاجئاً قعد به وحال من دون حضوره وتلبيته لهذه الدعوة الكريمة فهو يقول في هذا الصدد (و يا لَلعَامِظةِ * أَهل القُرى ! لقد وافاهُم الْمَوسم، وطالعَتْهُم غُرّةُ ذلك المجد تبتسم؛ ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وأَجُّدوا لِشَهواتكم صِقالا، وحُطُّوا على البَواذخِ من شمام أَثقالا؛ على آفة الكوُم، على العارض الْمَرْكُوم؛ وحَيَّ على لُبابٍ يُلبَكُ بلباب، وشبابٍ يُحبكُ بِشباب، وقبابِ مجدٍ تُسْمَكُ بِقباب ؛ و ياظفرَ الحاضِرين وخَيْبةَ الغيّاب ؛﴿ يا لَيْتني كنتُ مَعهُمْ فَأَفُوز ﴾...)(٢) .

فالكاتب يجسد عبارات الثناء من معجمه اللغوي الهائل مع غير قليل من المبالغةِ ورسم مشاهد الكرم المستندة إلى جزر الأبل ثم راح، بوساطة السجع، يعلي من شأن هذا الكريم، واصفاً الحظ الذي نال الحاضرين وخيبة أمل من تخلف عن هذه الدعوة وهو في كل هذا

---

(١) ينظر:خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، مكتبة الهلال -بيروت، ط١ ،١٩٨٧م،١/ ٢٥٩.
* اللعَّموظ: من لَعْمظَ الرجل إذا نهم وشَره وهو أيضاً الذي يخدم بطعامه بطنه
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٩٨-٩٩

يستغرق في وصف كرم المُعتذر إليه ثم يصف الأطباق والطعام الذي قُدم وهو يستغرق في وصف مشهد الآكلين وكيف جثوا على ركبهم وانغطوا رؤوسهم اعجاباً بما قُدم من صنوف الطعام، ثم يستحضر جزءاً من الآية المباركة قوله تعالى ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١) فالكاتب يأخذ جزءاً من الآية المباركة وهي في الحث على الجهاد ونقلها إلى التعبير عن الغرض الذي قصده في رسالته، ولذا يُلحظ تأثر الكاتب بالقران الكريم، إذ استحضر جزءاً من الآية المباركة المنوّه بها في سياق اعتذاريته والتي هيأ لها مشهداً وصفياً متكئاً على المبالغة في الوصف وتهويل ما عبر عنه من صنوف الطعام، ونهم المدعوين الذين ذهلوا لما قدِّم لهم، مُعرّجاً على سوء حظ المتخلفين عن هذه الدعوة فأستحضر في هذه اللحظة الآية القرآنية ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٢) فالكاتب يقوم باستحضار جزء من الآيات المباركة بشكل مباشر ولعلّ أسلوب السخرية وخطاب الظرف بادٍ في هذه الرسالة التي أنشأها الكاتب وحشد لها الألفاظ الصعبة والمعاني البدوية مرصّعاً إياها بالتعابير القرآنية المباركة، ويظن الباحث أنَّ الكاتب الذي وهب مُعجماً لغوياً كبيراً أراد إظهار قُدراته اللغوية وولعَهُ البلاغي ولاسّيما المجاز والمحسنات البديعية التي شكلت سدى البناء الفني للرسالة ولحمته، إذ إنَّ الغرض الذي عبرت عنه الرسالة –الاعتذار عن عدم تلبية الدعوة-لا يستحق كل هذا التأليف والتأنق، لكن ولع الكاتب ورغبته في عرضِ ما ولع به من فنون التعبير البلاغي قاده إلى هذا الاهتمام اللافت والتأنق البديعي ولاسّيما السجع والجناس والجمل الدعائية وما اليها فضلاً عن ايراد الغريب من الألفاظ.

إنَّ سخريته وأسلوبه الفكاهي بادٍ في ضوء عباراته الأولى (ويا لَلعَامِظةِ أَهل القُرى! لقد وافاهُم الْمَوسم، وطالعَتْهُم غُرّةُ ذلك المجد تبتسم؛ ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

(١) التوبة :٤١
(٢) النساء:٧٣

إن استدعاء الآية المباركة ذات المحمول المعرفي الجهادي والنفير في سبيل الله في سياق الدعوة إلى مأدبة يدعى لها العامة، فالكاتب لم يأت به على محمل الجد بل جاء به هازلاً مثيراً للضحك.

وفي رسالة له في إجازة مقرئ وهذه الرسالة تجلت فيها ثقافة ابن أبي الخصال الدينية والتي وظّف فيها النصوص القرآنية بما يلائم الرسالة جاء فيها (...واستنار بنور الله واستضاء؛ ولم يَعْدُ عن هذهِ المنزلة طامحُ همتِهِ وطرفهِ وتَمسك بكتابه العزيز، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾؛ ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ ورقي أعلى مُرتقى، وتركَ الخلافَ للإجماع، والافتراقَ للاجتماع وفازَ بملءِ القُلوبِ والأسماع...) [1]

فالكاتب بفضل تأثره بالقران الكريم، يعود اليه لتزيين رسائلهِ بآيات من الذكرِ الحكيم فما أكثر ما يستحضر الآيات القرآنية أو الفاظاً أو عبارات من الذكر الحكيم تتصل بشعوره وأفكاره وهو ينشئ نصّه الإبداعي (رسائله) الفنية ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [3] لذا أكثر من استحضار هاتين الآيتين في مقام الحث على قراءة القرآن والعمل بإحكامه، وَإنّ استحضار هاتين الآيتين في نص الرسالة يكشف عن قيمةِ تلك الرسالة وهدفها فهو يحثّ على قراءة القرآن ويستثمر لذلك الحث آية من الذكر الحكيم ليوظفها في الرسالة ويعطيها الدلالة التي أراد أن تعبر عن هدف الرسالة وأهميتها، فالكاتب تأثر بالقران الكريم تأثراً قوياً ظهر في استحضاره لآياته في رسائله وتوظيفه للنص القرآني ليكشف عما يريد هو التعبير عنه ،فالآية القرآنية تُعدُّ مرتكزاً ارتكزت عليه هذه الرسالة.

ولشدة تأثرالكاتب بالقران الكريم لا يقف عند إيراد الآيات القرآنية بل يحث الناس على تعلّم القران الكريم وحفظه وقد استثمر الألفاظ القرآنية ليحثَّ على هذا العمل (تعلم القران

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٠١-٢٠٢
(٢) فصلت :٤٢
(٣) البقرة :٢٥٦

الكريم)ثم يُكمل رسالته والتي رصّعها بالآليء القرآنية لتحقق للكاتب قصده في الحثّ على تعلّم القران وحفظه وقراءته، فيستحضر نصوصاً قرآنية أخرى ويوظفها في سياق رسالهٍ قال فيها: (...عليكم بتَقْوى الله، فَهي نِظامُ مَماتكم ومَحياكم، وقوامُ دينكم ودُنياكم والتّجارة الرّابحةُ التي تَشْترُون ، والغَاية الطّامحةُ التي إليها تَجْرُون، وتأَدبوا بأدب اللهِ تعالى فيما يتلى عليكم وتتَتلون ، ولاتَولَّوا عنه وأنتم مُعرضون ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ولا ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾...)[1] .

ثم يتحدث الكاتب عن تقوى الله فأراد شحن رسالته بالقيم الإسلامية والأهداف السامية وتقديم النصيحة والوعظ إلى المخاطبين، فأتكأ في ذلك على مرجعه الأول القران الكريم وحشد عدداً من آياته للتعبير عن غرضه، فكان للآيات القرآنية الكريمة التي استحضرها الكاتب أثرٌ لافت للارتقاء بالنص النثري إلى منزلة التميّز والإبداع.

وتساعد ثقافة الكاتب القرآنية وتبحّره بالقران الكريم على استحضاره للآيات القرآنية المناسبة التي تنمّي النص النثري وتمنحه القوة وبعد الإيحاء، وتُضفي عليه أبعاداً دلالية كثيرة، فالآيات القرآنية شكّلت أساساً في محور النص الرسالي فهي بمثابة شاهدٍ، يستشهد به الكاتب على ما أراد التعبير عنه ،وتؤكد صلة الكاتب بمرجعيته الدينية وتمسكه بها.

انّ تداخل النص النثري مع النص القرآني على هذا النحو يثري الرسالة ويمنحها التشكّل والتنوع وقوة التأثير، فهو عندما يجد هناك حاجة إلى تأكيد كلامه يعود إلى النص القرآني ويروّى منه النص النثري ليُخرج النص بهذا النحو من الاكتمال الذي نراه ماثلاً أمامنا في رسالته ، ففي استحضاره للآية المباركة

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [2] وهذا مبدأ ذكره القران الكريم

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٠٥-٢٠٦
(٢) الانفال:٢١

ويستحضره الكاتب لتذكير الناس وحثّهم على الإيمانِ وألّا يكونوا كالخاسرين الذين قالوا مالا يفهمون، ثم يوصي الكاتب المتلقي بأداء الأمانة فلم يكن منه الّا الّعودة إلى مرجعيته القرآنية ليستقي منها التعبير المميز، والذي ساعده في ذلك ملاءمة الآية المباركة للقصد الذي أراده فوظفها في سياق الرسالة لتضفي عليها تلك القدسية وشدة التأثير وكذلك وظف قوله تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١) .

فقد جاء به الكاتب ليثري نصّهُ النثري، فهو يستحضر الآيات القرآنية ويتداخل معها ولهذا الاستحضار المباشر الأثر الواضح في الارتقاء بالرسالة ومدها بأسباب التميز والتفرد عن مشابهة غيرها من الرسائل.

ويكمل رسالته في استحضار بعض آيات القران الكريم (...كأنّهم لا يعتقدون الأمر جِدّاً، ولا يَروْنَ الباطِلَ للحقّ ضِدّاً؛ أَلم يعلموا أنّ الله مُستِمعٌ قريب، وأنه عَليهم مُطلّع رقيب؟ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (٢) ...) (٣) .

فمثلت هذه الرسالة الأنموذج الأمثل للتداخل بين النص النثري (الرسالة)والنص القرآني المبارك، فالكاتب يتنقل في ذاكرته ويستحضر مرجعيته النصيّة ويختار من الآيات المباركة أقدرها على الكشف عن المعنى الذي أراد اظهاره في رسالته ويوردها بشكل مباشرٍ من دون تغيير في نص الآية مستثمراً مواءمتها للغرض الذي يريد التعبير عنه.

ثم يتحدث الكاتب عن القران الكريم وفضله وكيف أنّه يرتقي بحافظه، إلى سُلَّم الشرف والرفعة، أما الذين لا يهتمون به فهم مهلكون لامحالة، وبعد التفصيل في الحديث عنه يأتي الكاتب بشاهد قرآني ليؤكد ما قاله في رسالته إذ يقول:

---

(١) البقره:٤٤
(٢) الطارق: ١١-١٤
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٠٧

(...رِفقاً من الله تعالى في ذلك بأقوامٍ قد رَآهُم له أَهلاً، فأظهرَ لهمْ منهُ ما شاء على علمِه بقدرِ ما جعَلهُ فيهم من القُوّة على حلمه، وهَلاكاً لأَقوامٍ لم يرَهم أَهلا للانتفاع به، فقال تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (١)...) (٢).

فيكتمل معنى الرسالة بهذه الآية المباركة ،فالكاتب يحثّ على قراءة القران الكريم ويعود في حثّه هذا إلى الكتاب العزيز ليدخله في نص الرسالة ،ويجعله معبراً عما أراد في رسالته وهذا التداخل يعكس عمق الصلة بين الكاتب ومرجعياته النصية القرآنية التي بدت حاضرة في الرسالة بشكل واضحٍ جدا ،وفي موضع آخر من الرسالة يعبّر أيضاً عن وعد الله عزّ وجلّ للمتقين ،فبعد التحدث عن وعد الله للمتقين يكمل فكرته باستحضار مباشر للآية القرآنية المباركة فهو يقول (...فإنّ العبدَ إذا نوَى ما عندَ اللهِ جاءهُ من الله التوفيقُ والسِّداد وحُسنُ المعونة فإنّ الله تعالى قَضى أنه ﴿ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (٣)...)(٤) فلم يكتمل المعنى ويصل إلى هذا الحدِّ من التأثير إلاّ بالنص القرآني ،فشكلت المرجعية النصية القرآنية مرتكزاً مهماً عوّل عليه الكاتب في رسالته ومدّ هذا التداخل بين النص النثري(الرسالة)والنص القرآني الكريمَ الرسالةَ بما تحتاج إليه من خصائص الرقي والإبداع وسماتها فهو يستثمر ثقافته الدينية ويتحكم في إيراد الآيات القرآنية التي تناسب الفكرة التي أراد التعبير عنها وهذه الثقافة التي أضفت على الرسالة سمات التميّز والإبداع ،وسمت بها إلى أعلى مراتب الشرف والروعة.

ولابن أبي الخصال خطبة في الشكرِ على نُزولِ الغَيْثِ بعدَ اتصالِ القَحْط وقد صدّر هذه الرسالة باقتباس من القران الكريم والاتكاء على مرجعيته القرآنية، إذ استحضر عدداً من

(١) الاسراء:٨٢
(٢) رسائل ابن أبي الخصال :٢١٧
(٣) النحل:١٢٨
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ٢١٩

الآيات القرآنية ووظفها بشكل مباشر او غير مباشر ومن هذا الاستحضار المباشر في قوله : (...ونعوذُ مِنْ سخطهِ برِضاه ونستغفِرُهُ لذنوبنا ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١)...) (٢) .

يأتي الكاتب بالعبارة القرآنية – المعبّرة عن نفي أيِّ غفران يقوم به البشر وحصره بذات الله العلّية-ويجد استحضار النص القرآني هو خير ما يبتدئ بها الكاتب خطبته هذه المقدمة التي تُوثِّقُ صلته بمرجعيته النصية (القرآنية)والتي منحت النّص النثري القوة وكشفت هذه المقدمة عن صله الكاتب بهذه المرجعية المتجذرة في نفس الكاتب ومتشعبة في روحه فأخذ يوظّف نصوصاً من هذه المرجعية في نصّه وعاكساً لما يشعر به الكاتب حيال هذه المرجعية ومدى تأثيرها فيه، فهو يوظّف نصاً قرآنيا بعد أن قدّم للاستغفار، فهناك تداخل جميل ورائع بين قول الكاتب والنص القرآني قال نعوذ من سخطه برضاه ونستغفره لذنوبِنا ثم يكمل فكرته بالنص القرآني المبارك فيقول ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهناك تداخل رائع في مقدمة هذه الرسالة ،فالله عزّ وجلّ هو وحده القادر على غفران الذنوب ولا غافر للذنوب سواه فاستحضر الكاتب النص القرآني ليؤكد هذا المعنى الذي صاغهُ القران الكريم بأسلوبهِ الرائع وعباراته الجميلة فأضاف النص القرآني للنص النثري الشيء الكثير مما جعل الرسالة توحي _منذ البدء-بعمقها وشدة صلتها بالمرجعية النصية القرآنية للكاتب، ومثلما ابتدأ الكاتب رسالته بالعودة إلى القران الكريم فقد ختم الرسالة بالعودة إليها أيضاً فقال:(...فاكْفِنا فيمَنْ كَفيت، وتولنا فيمَنْ تولَّيت، إنَّك تَقْضي ولا يُقْضى عَلَيْك ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (٣)...)(٤) .

فما أجمل هذه الخاتمة التي اختزلت الكثير من الكلام وعبرت بإيجاز جميل عما كان يدور في الرسالة، فخير ما ختم به الكاتب رسالته، استحضاره لهذا النص القرآني الذي عكس ثقافة الكاتب الدينية وإلمامه بغرض الرسالة وحسن ملائمة النص القرآني للرسالة التي شكر

(١) آل عمران: ١٣٥
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٧٢
(٣) الحج:٦٣
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٨١

فيها الكاتب المولى -عزّ وجلّ -على نزول الغيث بعد القحط، فالكاتب في رسالته هذه اعتنى بشكل خاص بمقدمة الرسالة والتي تُعَدّ مفتاحاً لكلّ نصٍّ وتعطي صورة مكثفة عن الموضوع الذي يُريد الكاتب التعبير عنه.

وكذلك أولى خاتمة هذه الرسالة اهتمامه إذ اختصرها باستحضار أية من الذكر الحكيم وهو خير ما ختم به نصه فحَسَن ملاءمة هذا النص القرآني للنص النثري (الرسالة) فاختزلت هذه الخاتمة ما قدمه الكاتب من تفصيل، وعرضت قصد الكاتب في انشاء هذه الرسالة ،فاستعانة الكاتب بالمرجعية النصية القرآنية له التأثير الواضح في الرسالة ،وما حمله هذا النص القرآني من ايجاز وجزاله أثرت نصَّ ابن أبي الخصال صياغةً ومعانيَ، وترى الباحثة أنَّ الاستحضار او استدعاء النصوص القرآنية، الذي كان يعبّر عنه بالاقتباس، إذا كانوا يعدّونه أحد فنون البديع الذي عرفته البلاغة منذ عهد مبكر جداً،و ترى أنَّ هذا الفن ينهض على السليقة ويأتي عفواً، لذا يعمل هذا الفن الذي تأتي به الموهبة وتبعثه سعة الاطلاع، على تقوية النص ووضوحه وقوة تأثيره، لما للقران الكريم من موقع مستحسن في النفوس.

إذن فهو مظهر من مظاهر التعبير الفني الذي يستعين به ابن أبي الخصال، بوصفه أديباً كبيراً، في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه وإيصال مضامينه-مهما كان موضوعها-إلى المتلقي

وترى ايضاً-أنّ هذا الاقتباس أو الاستدعاء للنصوص القرآنية يمتلك خصائص إبداعية عميقة الغور، لأنه يجمع بين معنيين مختلفين أحدهما المعنى الذي يريده الخطاب القرآني المستدعى أو المقتبس او المستحضر لحظة انشاء العمل الأدبي الابداعي، والثاني هو المعنى الذي ساقه الأديب، مع ما يثيره في نفس المتلقي من تأملات، ويدفع إليه من مقارنات، وذلك عن طريق تسخير قدرة هذا الاستحضار في تلوين مضمون الأديب بظلال مبتكرة وألوان متنوعة تضفي على المعنى جلالاً وتزيدهُ قوة وجمالاً.

ولمّا أدركنا - كلّ الادراك - أن الاقتباس القرآني في رسائل ابن أبي الخصال شكلّ ظاهرة أسلوبية، لافته بفعل صلة الكاتب بهذه المرجعية النصية العظمى من جهة، وبداهة الاستدعاء، إذ يأتي اليه سجية وطبعاً ،من جهة ثانية ،لذا توجهت هذه الدراسة لتقف على مرجعياته الوسيعة وعودته إليها في اثناء انشاء نصوصه الإبداعية فالأخذ من القران الكريم

أتاح لابن ابي الخصال الإفادة من هذه المرجعية النصية الفذة ، المتمثلة بالصور والمشاهد الفنية والدقيقة والقدرة على روعة الأسلوب وجمال المبنى، فضلاً عن اضفائه صفة القداسة والتبجيل لما يتحدث عنه .

وكتب في إحدى رسائله في الزرزير*

(الحمدُ لله الّذي صدَرتْ عن حِكمته الأَشْياءُ، وقامَتْ بأَمرِه الأَرضُ والسَّماء، وبِيَده الفضْلُ يُؤتِيه مَن يشاءُ، مُميت الأَحياء، ومُحيي الأَموات، ومُسخّر الأَوقات، مُقدّر الأقوات؛ تكفَّل بالأرزاق، ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ﴾؛ فوعْدهُ مَأتِيٌّ، وأَمْرهُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فهدى﴾، ولم يترك شَيئاً سُدى...) (١).

فبعد الحمد لله وتعداد صفاته يقوم الكاتب باستحضار نص قراني مُدخِلاً إيّاه في مقدمة رسالته، ليقدّم لنثره الكثير من عناصر القوة في الصياغة والمعنى، إذ وظّف قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٢) ويرفدها باستحضار نص قراني آخر ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(٣) وهذا استحضار مباشر للنص القرآني في الرسالة ،وابن أبي الخصال في هذا الاستحضار الذي عبرنا عنه بأنه يغرف من بحر هذه المدونة النصية العُظمى (القران الكريم)وقد أحسن الكاتب هذا الأخذ والاستدعاء مما شكل أبرز عنصر من عناصر الابداع الفني في رسائله ،إذ يريك الكاتب وكأنما صار هذا التداخل مع مرجعيته النصية الكبرى القران الكريم، نسيجاً مُتحداً ليقدمَ الخطاب النثري الاندلسي تقديماً فنياً حُسِب للأندلسيين فوزهم بالمجد الأدبي إذ عُدَّتْ هذه الرسائل مَعْلَماً شامخاً من معالم أدبنا العربي،

* الزرزوريات: هي ضرب من الرسائل التي ظهرت في عصر الكاتب وأول من كتب بها الوزير ابو الحسن بن سراج، وسميت بالزرزوريات نسبة لرجل اسمه (زرزير)فعارضها عدد من الكتاب منهم ابن الجد وابن أبي الخصال الذي جدد فيها وطور منها.

ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، ط١ ، ٢٠٠١م ، ٢٣٧ -٢٣٩.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٣٣-٣٣٤
(٢) الانعام :١٥١
(٣) الاعلى:٣

فنلاحظ المواءمة الرائعة بين تعابير الكاتب وبين النصوص القرآنية المُستحضرة لنقف على فنية هذا التداخل مع مرجعياته النصية.

ومن السمات الكتابية الفنية التي انمازت بها رسائل ابن أبي الخصال الاندلسي أنه ضمن مقاطعه النثرية في كثيرٍ من رسائله بالأشعارِ التي نظمها هو، إذ جاء بها موائمةً لسياقه ومناسبة لرسائله النثرية لتندمج هذه الأبيات في خطابه (رسائله)وتلتحم التحاماً رفع كفاية الخطاب وعزز مضامين الرسائل، فضلاً عن إضفائه الروعة والتنوع في البناء الفني، وعدا هذا، فإن الأبيات الشعرية- التي نظمها –تدل على جودة نظمه وسلامة قريحته وعلو كعبه في الشعر، وهي ايضاً زخرت بما يجملها ويرصنها من نصوص القران وإشارته التاريخية وأجوائه الموحية من ذلك ما جاء في موضع آخر من رسالته المنّوه بها (الزرزورية) إذ يقول **[السريع]** [1] :

كم مُقْلَةٍ من مُقَلِ الْحُور تَبسمُ بين التّين ِ والطُّورِ

كحلاءُ دَعْجاءُ ولكنّها تنظرُ مِن ﴿نورٍعلى نُورٍ﴾

استحضر الكاتب الآية المباركة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[2] .

وايضاً قوله:

﴿تُنْبِتُ بالدُّهنِ﴾ وصِبْغٍ لهُ لدونةٌ في كُلِّ حُنْجُورِ

استحضر قوله تعالى ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[3]

إنّ استحضاره وهو يقتبس التعابير القرآنية لم يكن هذا الاقتباس مُقتصراً على تزيين الصياغة وتقوية المضمون ،بل امتدّ ليمنح نصه الإبداع والشعرية الحقَّة ليُضيف أثره العظيم في إثراء النص الشعري وتحميله بالإيحاءات وإضفاء الجمالية الرائعة عليه و ما كانت لتكون لولا هذا الاستحضار للنص القرآني، فالكاتب ابن أبي الخصال في هذه الرسالة وأمثالها المعززة بأشعاره التي مُلئت باستدعاء شذرات من مرجعياته القرآنية أتاحت له أن يغرف من

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٤١
(٢) النور:٣٥
(٣) المؤمنون:٢٠

بحر القران نصوصاً زيَّن بها ألفاظه الشعرية ومقاطعه النثرية موظِّفاً إيّاها في خطابه النثري محققاً شعرية هذه النصوص ونقلها إلى حقل الإبداع وحسب ما يتطلبه سياقه، إذ يغادر النص المستحضر معناه وسياقه القرآني ليحّل في معاني خطاب الكاتب الأندلسي وسياقه .

لقدً أولى الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال خاتمة الرسالة أهميةً خاصة ما يدل على سلامة منهجه النثري مستحضراً هذه الخاتمة بما يتناسب مع رسالته وتدرجها في ذهن المتلقي اليقظ، وعدا هذا فقد اختتم بعض رسائله باستحضار مباشر لمرجعيته النصية القرآنية ليختم بها رسالته وكأنه يقول إنّ بهذه الخاتمة تبلغ الرسالة أقصى درجات الاكتمال ، ويترك للمتلقي التأمل في هذه الخاتمة التي تختلف عن المألوف إّذ اختار لرسائله مسك الكلام ورجع إلى نصوص القران الكريم ليحمّل الرسالة أبعاداً أخرى ما كانت توجد لولا هذا التوظيف ويتجلى هذا النوع من خواتيم رسائله فيما يتعلق بأمور الدين مثل الرسالة التي حضّ فيها على قيام الليل فلنورد مقطعاً منها (الخاتمة) لنقف على ثقافة الكاتب وعمق صلته بمرجعيته النصية القرآنية وتوظيفه لها قال فيها:

(...إنّ أبْلَغ الموعِظَة وأنْفَع الذّكرى، وأكرمَ ما سَدِك بهِ اللّسان وجَرى ، كلا مُن أرْسَل رُسُلَهُ تَتْرى ، و ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ [1] فإذَا قرئَ فأحْسِنُوا الاستمِاع، وفَرّغُوا لهُ القلُوبَ والأسْماع، وارَفعُوا عنها الأكنةَ والأقمْاع وتقرأ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [2]....)[3] .

فما أعظم وأحسن ما ختم به الكاتب الأندلسي رسالته: إذ اختصر ما أراد قوله وعرضه بصورة تعكس ثقافة الكاتب الدينية وتجذِّر القران في نفسه، إذ اتاح له أن يُحكِم صياغة مقاطعه النثرية إحكاماً جعله يُحسنُ سبكَ مفاصل النص بما في ذلك صياغة خواتيم رسائله،

(١) طه:٦
(٢) العنكبوت:٤-٦
(٣) رسائل ابن أبي الخصال :٥٤٠

وهذه من أجمل الرسائل من حيث الخاتمة، فغالباً ما تكون الخواتيم بالدعاء والسلام أما الكاتب فوجد لرسالته الوعظية التي حضّ فيها على قيام الليل بحاجة إلى حجة وبحاجة إلى لفظ مُعجِز، فاختار لهذه الخاتمة كلام الباري -عزّ وجلّ -وجعله خاتمة للرسالة ليكشف بهذا التوظيف عن صلته بالمرجعية النصية القرآنية وكيف عمل الكاتب على هذا التداخل بين هذه النصية القرآنية والرسالة بتفنن وإبداع ،ومما يُحسب لهذا الكاتب الأندلسي-كغيره من المبدعين –أنه وهو يستحضر شذراتٍ من مرجعياته النصية ومنها الدينية ،يستحضرها من حيث لا يشعر المتلقي أنهّا مستجلبة لدعم النص وخدمة مضمونه بل يحسبها جزءاً أساسياً من نص الكاتب الاندلسي بسبب سبكها وحبكها مع بنية النص النثري، فتداخلت معه وذابت في كُليّته مانحة إيّاه هذا التأثير المائز الذي نتلقاه ونحن ندرس هذه الرسائل المفعمة بالتأثر بمرجعيات الكاتب النصيّة التي رفعته مقاماً عليًّا بين كتاب الأندلس وأحلّته هذه المنزلة الرفيعة لدى نقاده ودارسيه حتى اشتُهر ما كتبه في هذا الصدد ب(ترسيل ابن أبي الخصال).

فقد أجاد الكاتب كل الإجادة في الاستحضار المباشر لآيات القران الكريم وألفاظه والتي شكلت جزءاً مهماً في بنية نصه الأدبي فالثقافة القرآنية قد تمثلت في قدرة المبدع على استيعاب النص القرآني وتداخله مع سياقه الثقافي وتماثله معه، وتحويله إلى فضائه الشعري الخاص وإعادة توظيفه في إنتاجية شعرية جديدة، فأصبحت اللغة القرآنية لغة شاعرة بامتياز بعد أن استوعبها النصّ الشعري وانتفع من مضامينها العالية استيعاباً تاماً في نسقه الدلالي الخاص [1] وقد تمثلت هذه الثقافة الواسعة في رسائل ابن أبي الخصال بشكل واضح لا غموض فيه.

(١) ينظر: النص والسلطة والحقيقة، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ،١٩٩٥م ، ٢١٩.

ب- الاستحضار غير المباشر

وهو أن يأخذ الكاتب لفظة قرآنية أو تركيباً أو عبارة قرآنية او معنى من معاني القران الكريم ويوظفها توظيفاً جديداً في رسالته ويقوم بتوظيف ذلك النص القرآني بما يناسب نص رسالته لينسجم مع سياقها[١]وهو كثير في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي ومن أمثلته في رسائله ما جاء في إحدى رسائله في الزرزور إذ قال فيها:

(...اللهمّ يامَنْ جَعَل الأَرْضَ قَراراً، وفَجّر خلالَها أَنْهاراً، وجَعَل لنا من الشَّجر الأخضر ناراً؛ ويا مَنْ جَلّ عن الشُّركاء و الأنداد، وتعالى عن الصاحبةِ و الأَولاد، وأَنزل بغناه وكرمه فقر العباد؛ فألّفْ بينهما كما ألّفتَ بين العين وسناها...) [٢].

إنَّ تأمَّل هذا المقطع النثري يعودُ بنا –في ضوء ِثقافة الكاتب القرآنية _إلى نصوص قرآنية فنجد في قول ابن أبي الخصال الأندلسي (وجعل لنا من الشجر الاخضر نارا) المقطع النثري يُبنى على نص الآية القرآنية المباركة ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [٣] وفي المقطع النثري نفسه نُطالع قولهُ (ويا من جلّ عن الشركاء والأنداد وتعالى عن الصاحبة والأولاد) غير خاف على أحد هذا الاستدعاء، لألفاظ القران الكريم ومعانيه فالجمل النثرية هذه متداخله مع الآية القرآنية، إذ قال جلّ ذكُره ﴿وَالهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلهَ إِلا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ﴾ [٤] وقوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ ولداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَلَم يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مَّنَ الذُّلّ وكبرهُ تَكبِيراً﴾ [٥] وفي المقطع الأخير من الإشارة النثرية تراه الباحثة مُنبثقاً من قوله تعالى ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

(١) ينظر :معجم المصطلحات البلاغية ،د. أحمد مطلوب ،مطبعة المجمع العلمي العراقي ،بغداد،١٩٨٣م،ج١/٢٧٠-٢٧٤ .
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٧
(٣) يس:٨٠
(٤) البقرة:١٦٣
(٥) الاسراء:١١١

فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [1] إنَّ هذا التداخل النصيّ بين الخطابين الخطاب النثري الأندلسي والخطاب القرآني جعلَ خطاب الكاتب يُحقق إنتاجية تناصيّه قادرةً على التأثير في المتلقي.

ففي قول ابن أبي الخصال في الرسالة نفسها نجد (وأنزل بغناه وكرمه فقر العباد) الكاتب - وبوساطة ثقافته القرآنية العميقة - قد وظّف الفاظ القران في خدمة سياقه ومعانيه فجاء نصه مؤثراً بفعل هذا التداخل النصيّ الواعي إّذ شّكَل هذا التداخل النصي سدى التعبير النثري ولحمتهُ ،وتفطن ذاكرة المتأمل إلى النص القرآني الكريم ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً﴾[2] فالنص النثري قد اتكأ على الفاظ الآية المباركة اتكاءً تاماً وفي رسالة أُخرى في الغرض المشار إليه أيضاً، عاد الكاتب يستند إلى مرجعيته القرآنية معولاً على ألفاظ القران وصوره ومعانيه وقوة بنائه يقول في رسالته:

(الحمدُ للهِ خالقِ الحياةِ والْمَوْت ، السامعِ لكلّ صَوْت ، الَّذي لا يعجل مخافةَ فوت ؛ذِي العَطاء الأَسْنى ، والأَسماء الْحُسْنى ،والصّفات العُلى ،الَّتي لا تَبيدُ ولا تَفْنى خَلَق الْخَلْقَ أَطواراً، وجَعَل لهم آمالاً وَأَوطاراً ،فكلٌّ على رزقِهِ غادٍ، من بين متحرّج وعادٍ، وساجعٍ وشادٍ؛ فَماشٍ على رجلَيْن ،وباطشٌ بيَدَيْن ،وطائِرٌ بجناحَيْن ، وماشٍ على اربَع ،وبهائمُ رُتَّع ، وموشَّيةُ الْمُتون ، ماشيةٌ على البُطون ،تَنْسابُ وتترفَّع ، وتُذيلْ حِبَراتٍ بها تتلفَّع ؛كأن ّنسجَها على غَيرها ، فهي تخلَعُ ما تزرُّ وتسحَبُ وتجرُّ ، أما إنها :-وتضربُ لكُمْ أمثالَكُم –أُممٌ أمثالُكُم، لها من الحِمَامِ نصيبُها ؛و الأَقدارُ كَما تُصيبُكم تُصيبُها فسُبحان مَنْ اعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَدى ...)[3] .

فتأثر الكاتب ابن أبي الخصال بالقران الكريم بلغ حداً بحيث طغى على كُل الفاظه وتراكيبه حتى لا نكاد نجد مقطعاً واحداً في رسائله ِكُلهّا يخلو من استدعاء الفاظ القرآن الكريم وتراكيبه أو افكاره ومعانيه ،الأمر الذي جعل بناء رسائل ابن أبي الخصال على درجة رفيعة من الرصانة والتماسك النصي، فضلاً عن قوة المعاني وخدمة مضمون الكاتب ففي هذا

(١) الفرقان: ٢
(٢) النمل:٦١
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٣٤-٢٣٥

المقطع من الرسالة نجد وافراً من استحضاره لنصوص القران الكريم، إذ إنَّ لكل تعبير يُرجعك منبعه في التعبير القرآني دونما عناء ففي قول الكاتب (الحمد لله خالق الحياة والموت) منبثقا من قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (١) وفي قوله والأسماء الحسنى من قوله تعالى ﴿هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ البارئ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحكِيمُ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْاسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٣) فالكاتب يتكئ على مرجعيته القرآنية حتى في مقدمة الرسالة وهذا يشي بصلة الكاتب العميقة بمرجعيته القرآنية إذ استند إلى الآيات القرآنية المباركة ويعود إلى ذلك المنبع الصافي ويستحضر نصاً قرآنيا آخر ففي قول الكاتب (وخلق الخلق أطواراً) بناه على نصّ الآية المباركة ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ (٤) فليس ثمة فرق ،إذ استعان بالنص مُحوراً قليلاً منهُ ليأتي بهِ في سياق نصّه، مُرسِّخاً المعنى الذي قصده في السياق والمناسبة التي قصدها الكاتب ،ثُم نتأمل قول الكاتب (وجعل لهم آمالاً وأوطاراً إلى قوله ثم هدى) نلحظ هذا المقطع قد استوعب مضمون النص القرآني ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمشِي على بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِن اللَّهَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥)

لقد اهتدى الكاتب البليغ- بحسه المبدع – في ضوء تأثره بالقران الكريم ، إلى أنّ كتاباته بعامتها تُرصَّنُ بألفاظ القران الكريم وأسلوبه وتزداد قوةً وإيحاء، فهي ذكّرت متلقيها بالذكر الحكيم وحججه وأجوائه وواقعيته، لذا أسعفته مرجعيته النصية القرآنية في صوغ رسائله صياغةً شكَّل القران أبرز ملامحها .

ويرى الباحث أنّ -رسائل ابن أبي الخصال- بوصفها نصوصاً إبداعية أندلسية ، لا يمكن لها أن نتخلى عن الظروف والأجواء التي أحاطت المنشئ وهو ينشئ هذه النصوص الأدبية

(١) الملك: ٢
(٢) الحشر :٢٤
(٣) طه:٨
(٤) نوح:١٤
(٥) النور:٥٤

فلا مندوحة من أن يؤخذ بالحسبان نشأة الكاتب ومذهبه في الحياة وارتباطه بمعطيات عصره -عصر المرابطين- العصر الذي رفع قادته رايات الجهاد الإسلامي وتطهير المدن الأندلسية الإسلامية من دنس الغزو والعمل على طرد العدو الإسباني من هذه المدن وتطهير دور العبادة والأماكن المقدسة، فاكتمال النص الأدبي لا يتم من دون عملية التلقي التي يقوم بها متلقٍ سواء كان مقصوداً أم غير مقصود .

فالقران الكريم قدّم ما هو أظهر لقدرة الله ،الزواحف لأنه خلقها من دون آلة مشي ثم ذكر الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع وفي هذا اظهار لقدرة الباري عزّ وجلّ المستوحاة هذا التغاير والتنّوع والاختلاف فالكاتب قد استوعب مضمون الآية وقوة إعجازها فوظفها ضارباً منها مثلاً ودليلاً على قدرة الله عزّ وجلّ ورحمته بمخلوقاته .

واستحضر الكاتب النص القرآني وهو قوله تعالى ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (١)

ويُكمل رسالته قائلاً:

(...ويردُّ على الكُفرِ كَيْدَ عَمْرِه، ويَبْرَأُ إلى الوَفاءِ من الغَدْرِ في أَمرِه؛ ومَلِكُ بَني الأَصفَرِ يودُّ أن يخلُصَ إليهِ، ويغسلَ عن قَدَمَيْه، ويقطعَ بما كان من العِلمِ لَدَيْه، أَنَّه سيملِكُ ما تحتَ رِجلَيه؛ والقِسيسُونَ والرُّهبانُ يُلقونَ إلى ما أُنزِلَ عليهِ بالسَّمع وتفيضُ لما عَرَفوا من الحقِّ أعينُهُمْ مِنَ الدَّمْع ...الّذين يحبُّونَ من هاجرَ إليهم، ويؤثرونهم على أنفسِهم، ولا يستأثرونَ عليهم الَّذين حبُّهم آية العِصمة والإيمان ...) (٢).

في هذا المقطع النثري قادنا تلقينا لنص الكاتب الاندلسي إلى ما تضمنته الآية المباركة حيث قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٣) وأيضاً استدعى الكاتب مرجعيته النصيَّة واستقى منها

(١) طه:٥٠
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٣٦-٢٣٧
(٣) المائده:٨٣

قولـه تعـالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (١) إن متتبـع خطـاب ابـن أبـي الخصـال وارتباطه بالقران الكريم حفظاً ووعياً ، بوصف القران الكريم أكبر وأعمق مدونـة أو مرجعيـة نصـيّة ،أوصـل الرسـائل الفنيـة إلـى الغايـة فـي التـأثير وأدى إلـى الانسـجام الـدلالي ليُظهـر الخطابان في خطاب واحد وقد تمّ هذا الانصهار بجمالية بارعة على وفق آلية الكاتب المتسمة بالموهبة وسعة الاطلاع فالنصان: النص النثري الأندلسي والخطـاب القرآنـي تـداخلا وتفـاعلا تفاعلاً مؤثراً في المتلقـي ومؤديـاً وظيفتـه الإبلاغيـة والجماليـة ، ولعـلّ هـذا يقـف فـي طليعـة عناصر الإبداع الفني للكاتب ابن أبي الخصال الأندلسي ،وإن بنـاء نصـه علـى وفـق مضـمون الآيات المباركة والارتكاز على أكثر الفـاظ الآيـات القرآنيـة، وبهـذا الأسـلوب المتين والـنظم المُحْكَم الذي اظهره تلقي النص انّـه دليـل سـاطع علـى تـأثره بـالقران الكـريم لعمـق صـلته بـه وتمثلت للآيات المباركة تمثلاً واعياً ،إذ تداخل الخطاب القرآنـي فـي هـذا المقطـع النثـري مـن رسائله ، تداخلاً يرينا أن القران الكريم كان أهم الركائز التي ارتكـزت عليهـا ثقافـة ابـن أبـي الخصال الدينية وقد نوهنا بما للقران -الفاظاً ومعاني- من وقع خاص وحلاوة جرس وفواصـل ،و أهمية في بناء النص الإبداعي، كل ذلك أسهم في عدم استغناء أي أديـب عـن الاستحضـار من القران الكريم لاسيما ابن أبي الخصال وما تميز بهِ من ثقافةٍ وهو الفقيـه والكاتـب الـديواني والمتبحر في علوم اللغة والأدب، وبقدر هذا التأثر يتكون نضج تجربته وتوظيفه للقرآن الكـريم على النحو الأفضل لجعل رسائله تحتل مركز الصدارة والقوة في عصره وما بعده، فلا غـروَ أن نطالعَ هذا التقريظ له من علماء عصره ودارسيه ،إذ يرى المراكشي إن ابن أبـي الخصـال كان من أكثر الكتاب ملازمة للأمير يوسف بن تاشفين ، لسعة ثقافته وإجادته لفن الكتابة (٢).

...وفي موضع اخرمن كتابه ذكر المراكشي أنّ الكاتب قد روى عنه الناس سيرة أبي إسحاق

والشامل للترمذي وعرف الكاتب بروايته للحديث حتى حدّث عنه خمسون شيخاً(٣) فضلاً عـن ديوان رسائله الذي عُدَّمثالاً يُحتذى به لدى أدباء عصره (٤).

---

(١) الحشر: ٩
(٢) المعجب في تلخيص اخبار المغرب:١٧٣
(٣) قيام دولة المرابطين، حسن أحمد محمود، دار الفكر العربي -القاهرة، ١٩٥٧، ٣٦٠، الهامش رقم١.
(٤) المعجب: ١٧٥

ولا يفوتنا ثناء لسان الدين بن الخطيب عليه في إحاطته ،إذ وصفه بسعة العلم ورصانة الأسلوب وطرافة العبارة [١] وجدير بنا ذكر عبارة الفتح بن خاقان التي لخصت إعجابه بـابن أبي الخصال: بأنه حامل لواء النباهة [٢] فالكاتب طوَّع بنانه مُهتدياً بعمقِ صلته بالقران الكريم، ونُدهش إذ نجد الكاتب يستعير التعبير القرآني مقتطعاً إياّه من سياقه في الخطاب القرآني ويوظفه في سياقه الخاص في رسائله ليؤدي معنىً جديداً يخدم مضمونه منسجماً مع مراده من غرض الرسالة وسياقها وأجوائها مما يُزيد من قوة إيحائها وتأثيرها في المتلقي أيّ تأثير، وهنا تكمن براعة الكاتب في الأخذ والاستفادة من مرجعياته النصيّة بما يؤمي إلى تمكنه من شحن الخطاب بالمغزى المثير والبناء الموائم لصياغة الرسائل التي يعوّل عليها أن تكون خطاباً ذا مسؤولية في بناء المجتمع الإسلامي والحفاظ على بلاد المسلمين ولاسّيما في عصر المرابطين الذي قام على اساس الجهاد في سبيل الله وما يتصل بهذه الموضوعات من تهنئة بالنصر أو استنهاض الهمم وهزّ اريحية الممدوح –الأمير المرابطي المجاهد حتى إن تطلب هذا مزيداً من إعلاء شأنه والمبالغة في تعظيمهِ.

وقال أيضاً في رسالة أخرى إلى أبي بكر بن العربي •قال فيها:

(وسأبري له وأنحت ، وألحى وألحت ،وَسَيأوي من همَّتهِ العتيقة العريقةِ إلى ظِلِّ دانيةِ الغُصونِ وَرِيقَة ، ويَهتدي من نُورِ هُداه ....)[٣] فالكاتب يستدعى في هذا المقطع من الرسالة قوله تعالى ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [٤] فقد أشار الكاتب إلى الآية القرآنية المباركة من غير أن يلتزم بتركيب الآية الكريمة فاخذ الآية من سياقها واضافها في سياق رسالته لتنتج دلالة جديدة وجميلة تغني النص وتحقق الفائدة للمتلقي وتكشف عن قدرة الكاتب في استحضار النصوص

(١) ينظر: الإحاطة، ٢/ ٣٨٨
(٢) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، تأليف أبي نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي الشهير بأبن خاقان (٥٢٩ هـ)،تحقيق: حسين يوسف خريوش ،مكتبة المنار،ط١، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م،٥١٨.
• أبو بكر بن العربي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي (٤٨٦-٥٤٣)هـ من فقهاء الأندلس وعلمائها.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ١٩٤
(٤) الحاقة:٢٣

القرآنية والاستفادة منها في بناء النصوص وتوظيفها توظيفاً حسناً في رسائله مما أحلَّه مَحَلَّ الإبداع .

ولنقف عند هذه الرسالة التي كتبها ابن أبي الخصال مهنئاً*

(يا عِمادي الأَعظم، و مصادي الأَعصم، ورِدْأ اسِتظهاري الأكرم ...وتبرَأ أحوالهُ من الأَعراضِ والعِلل؛ وتَطّرِدَ بالسَّدادِ ومصالحِ العِباد قوانينُه، وتَتّقد بِمَصابيح الإتقان والإحسان دواوينُه ، وتنتظمَ الفوائدُ في سلكها فرائدَ فتسرّ الناظر، وتبهج الزّائر، بحقائق في حدائق؛ خطرَت بالجداول، وقصرت عنها يدُ الْمُتَطاول؛ فكأنّها سماء مُلئت حرساً شديداً، وشهباً لا تلبثُ لاستراق السّمع مريداً...)(١).

فالكاتب استند إلى مرجعيته النصيّة القرآنية واستحضر قوله تعالى ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَت حَرَساً شَدِيداً وَشُهباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ (٢) يبدو للباحثة أنَّ مثل هذا الاستدعاء للتعابير القرآنية لم يكن استدعاءً لبعض التزيين أو كونه وسيلةً فنيةً، و إنّما كان ابن أبي الخصال يستحضر النص القرآني استحضاراً عفوياً على وفق ما تتطلبه أدبية النص النثري وفعالية التعبير مع شيء من المعاودة والتنقيح فيتداخل الخطابان تداخلاً يُثري الدلالات ويُرصّن مضامين الكاتب ويشدّ إنتباه المتلقي، كما رأينا في هذا المقطع النثري في تهنئة أحد العمال بتقليد منصب الولاية، الأمر الذي يوحي بعمق ثقافته الدينية واعتماده على هذه المرجعية النصيّة الدينية القران الكريم.

فالكاتب يستعين باللفظ القرآني ومضامين الآيات المباركة ليُضيف إلى نصه الروعة والقوة، فأراد إلباس معانيه وألفاظه شيئاً من ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه فأتى بها وداخلها مع

* رسالة كتبها مهنئاً عاملاً بولايته
(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٦٢-٦٣
(٢) الجن : ٨-٩

نصوصه فأعطت للحسناء أجمل صورة من الممكن أن تكون عليها وأغنت دلالة الرسالةً وسمت بها.

وفي رسالة جوابية إلى صديق له قال فيها:

(...اللّهمَّ بارئ النَّسم، ودارئ القِسَم، وناشرَ الرَّحمةِ والنَّعم، ومُنْزِلَ الدَّيم، وباعثَ الرَّمَمَ، ومحييَ الأمَم ...تبارَكْتَ وتعالَيْتَ، وأَمتَّ الحيَّ وأحييْتَ المَيْت، لا هادِيَ لمَنْ أَضْلَلْتَ ولا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْت ...) [١] فقد التمس الكاتب قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [٢] فقد ظهرت براعة الكاتب في استحضار مرجعيته القرآنية ودمجها في سياق نصه النثري وهذا يكشف عن سعة الثقافة القرآنية التي يتمتع بها الكاتب الأندلسي ،ولا نعجب من ذلك إذ ان "الثقافة القرآنية ألقت بظلالها على الشعر الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين بوصفها رافداً ثقافياً مهماً من روافد الثقافة العربية الإسلامية ، إذ اقبل أولئك الشعراء ينهلون من فيضها الإلهي المقدس بمشاربه المختلفة، فقد عاش الشاعر الأندلسي مع القران الكريم بفكره، ووجدانه ، وخياله الشعري ، فأمدّه بفيض من المعاني والصور ، والتراكيب التي منحته لغة شاعرة [٣] وثراء على المستوى الدلالي والمعنوي [٤] فساعدت عمق المرجعية القرآنية للكاتب في تمكنّه من هذا التداخل الفني بين النصين القرآني والنثري .

وفي رسالة إلى صديق سعى بينه وبين الكاتب ساعٍ بزور قال فيها (...ومُسَيلِمَةَ ذلكَ الإفك المنسُوب فمن أُفقه طلَع، ومن مَعْدِنه نَبع ،فَنزِّهْ سَمْعك المَصُون عن افترائه، والله مُحيطٌ

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٨١
(٢) يس:٧٨
(٣) ينظر: دراسات في الأدب الأندلسي ،د.إحسان عباس وآخرون ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس،١٩٧٦م ،١٠.
(٤) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين، د .حسين مجيد رستم، دار الاسلام، ٣١.

من ورائهِ وحالي التي هي حالُك اتّصالاً كما يُرضيك ظهوراً وإقبالاً، وعلى مالا يشغَلُ لك ولا يكدّر بالا...) [1].

استحضر الكاتب قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [2] فاستلهم الكاتب هذه الآية المباركة بالتقديم والتأخير، ومما يشي بقدرة الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال وتصرفه في فنه النثري هذه الإحالات المتناثره في رسائله على شاكلة – رسالته لمن سعى بينه وبين صديق له بالزور- بمسيلمة الكذاب إذ إن المحمول المعرفي يرمز إلى مُسيلمة المرتد الكذاب، بالأكاذيب والتحريف لذا جاء قوله في هذه الرسالة (ومسيلمة ذلك الأفك المنسوب..) فمسيلمة التي تشير إلى الكذب وترمز إلى التحريف المجسد في هذه الشخصية المرتدة ، قد أحسن الكاتب في الإخبار عنه بمعادله السلوكي(الإفك)وهي مفردة قرآنية تذكرنا بالآية المباركة ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[3] وسياق النص القرآني وسبب نزوله معروفان فالكاتب قد أجاد كُل الإجادة في ربط سلوك هذا الساعي بالنميمة والوشاية والفرقة ،بمن جاء بالإفك فيما يخص السيدة عائشة زوج رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) فالموقفان متشابهان، لذا تداخلا في خطاب الكاتب الأندلسي وقدمها بفنية عالية ،لذا جاء هذا الاقتباس المحّور ،وهو نمط من الاقتباس التركيبي يعتمد عليه الكاتب فيقابل بفنية بنصوص القرآن محاوراً أياه ، لذا استدعى البنية القرآنية وصاغها في خطابه النثري وجعلها ممتزجة معه عن طريق العملية التحويرية للنص القرآني لفظاً او معنىً ودلالة وتكثيفاً وتوسعا[4] وهذا التداخل النصي يشي بقدرة الكاتب الفنية وقوة تمكنّه من إحكام فنَّه ،وبعدها يقول مغيراً مواقع كلمات أحد التعابير القرآنية (والله محيط من ورائه) فالضمير يعود على الساعي بالنميمة وإنَّ هذا الاستحضار للبنية القرآنية بمضمونها وأجوائها وصورها ، يصور لنا قدرة الكاتب ابن أبي الخصال على استدعاء التعبير القرآني و ادخالها في بنية الخطاب النثري ، فالقران الكريم تميزَّ بتناسقه الفني في تصوير المشاهد التي جاء بها ومن ذلك التنسيق في القران الكريم يتمثل بتآلف العبارات واختيار الألفاظ ،ونظمها

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٧٥
(٢) البروج:٢٠
(٣) النور :١١
(٤) القرآنية في شعر الرواد في العراق، احسان التميمي، جامعة القادسية ، كلية الآداب،٢٠٠٠م، ٣١.

مما يجعلها غاية في الروعة ، وقمة في الفصاحة ،فضلاً عما تمَّيزَ به الكتاب الكريم من جمال الايقاع الموسيقي الناشئ من تخيير الألفاظ ولأثرها في بناء النص القرآني الفني [١] .

وقد تأثر ابن أبي الخصال بالتناسق القرآني فأخذ يُحاكي جانباً من جوانب فصاحته فاستحضر من القران الكريم بعض التعابير والألفاظ والمعاني التي تؤكد اعجازه البياني ومن ذلك رسالته إلى شيخه* جاء فيها:

(...وبصيرتي كما خَلصَ السَّهم المصيبُ إلى الأغراضِ، لا أنثني حتى ينثني َالسّيل الْمُعتلجُ ، ولا أَني أو يَنيَ الصُّبح الْمُنبلج ، ويَلجَ الْجَملُ في سَمّ الخياط ولا يلجُ...)[٢] .

فالكاتب يستحضر في رسالته هذه قوله تعالى ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾[٣] فقد نقل الكاتب التعبير القرآني ووظفه في نصه بطريقة رائعة تتلاءم مع رسالته وغرضه الذي أراد التعبير عنه وأضاف إلى التعبير القرآني النفي فقد نفى الكاتب ولوج الجمل - وهو حبل السفينة المتين - في سم الخياط فالتعبير القرآني يعبر عن انّ الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ولن يدخلوا الجنةِ أطلاقا وأن الدخول والقبول هو أمر مستحيل [٤] فالكاتب يوظف هذه الصورة الرائعة ويستثمر مدلولها في نصه النثري فهي أفادت استحالة ولوج الجمل في سمّ الخِياط أمّا الكاتب فقد قصد استحالة رجوعه في مقاصده فهو لا يرجع على شيء قدم عليه ولا يُثني عزمه شيء فوظف هذه الصورة القرآنية الرائعة واستثمر مدلولها في نصه النثري .

ويستدعي الكاتب شيئاً من مرجعيته القرآنية في رسالة أخرى قال فيها:

(... واستَنزل العقاربِ بِرُقاها، ورفَع الأقارب إلى سماء مُرتَقاها؛ فَأصبحوا بنعمةِ اللهِ إخوانا وشيّدوا في البرّ والصِّلة بُنياناً...) [٥] .

---

(١) ينظر:التصوير الفني في القران، سيد قطب، دار الشروق ،القاهرة،١٩٦٨م ، ٨٧.
* رسالة إلى من دعاه الكاتب شيخه وامامه وقد وقره فيها
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٨٥
(٣) الأعراف :٤٠
(٤) التصوير الفني في القران :٨٧.
(٥) رسائل ابن أبي الخصال: ١٢٧

يستحضر قوله تعالى واعتصموا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١) فنلاحظ هذا التداخل الفنيّ مع القران الكريم الذي أكسب الكلام جمالاً وقوة ورونقاً وأضفى عليه رصانة، وكلّ هذا بفضل الاستقاء من المرجعية القرآنية التي مكنت الكاتب من هذه الصياغة.

ويستحضر الكاتب الأندلسي ألفاظ القران الكريم وتراكيبه وصوره حتى في رسائله القصيرة التي اصطلح عليها(البطاقة)وكتب إلى من يتولون الجباية وفرض الضرائب:

(...أعلمتَ –أَطال الله بقاءَك أَنّ العملَ الَحشِيب يصقل، والنُّسخة السَّوداء تنقل؛ واللهُ يَمْحُو ما يَشاءُ ويُثبت، وأَعوذُ به من شَفاعةٍ لا تُثمر ولا تُنبت، وقد عَلمتُ أن الزيادةَ على فُلانٍ إنّما كانت ضِراراً...) (٢) .

الكاتب بنى نصه على بنية الآية المباركة المُستدعاة ﴿يَمْحُو اللَّهُ ما يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(٣) وهو يستحضر التعابير القرآنية المتسقة مع تعبيره النثري فيأتي بنص الآية المباركة محوراً قليلاً منها ويضعها في سياق رسالته ليُعمّق مضمونها ويرصِّن بناءها الفني ولم يكن ذلك لينفع لولا عمق ارتباطه بالقران الكريم والذي اتاح له كُلّ هذا الإبداع ومنح رسائله سمة التفرد والجمال وجعلها تسمو إلى أعلى مراتب الشرف ،فالكاتب لا يكتفي بالاستحضار المباشر للآيات المباركة أنما يعمد إلى استحضار الآيات القرآنية ويحورها ليجعلها تتناسب مع سياق رسالته وتمنح رسالته الدلالة التي أراد، ولعّل هذا الاستدعاء المكين قد مَكَّنَ الكاتب من صنع روابط أو جسور دلالية عبر أسلوبه وقوة بنائه والتحام هذا البناء بالبنية القرآنية التي منحته القدرة على هذا التشكل.

وقال في رسالته في إجازة مُقْرِئ:

---

(١) ال عمران :١٠٣

(٢) رسائل ابن ابي خصال :١٠٤

(٣) الرعد:٣٩

(... ينفَذُ البحرُولا تنفَذُ عجائِبه، ويُحصى القَطر ولا تُحصى غرائبه؛ يسَّرهُ بلسانِ نبيِّه (صلى الله عليه واله وسلم)للذِّكرِ والإفهام ...) (١) .

من قوله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(٢) فالقران الكريم شكّل مصدر إلهام لابن أبي الخصال يستلهم نصوصه دلالةً وتصويراً، مستثمراً طاقته الإبداعية في الوصل بين تجاربه الذاتية ونصوصه، فوجد ضالته فيه بوصفه نصّاً مقدساً يحمل للإنسان دلالاتٍ لا متناهية شديدة العمق والتأثير في كل ما يعرض له من تجارب، لأن أفكاره ومعانيه قابلة لإعادة التشكيل في كلّ زمان ومكان (٣) فرسائل الكاتب ترجمت لنا مدى صلته بهذه المرجعية وتعلقه بها.

وقال ايضاً في الرسالة نفسها:

(...فكذلكَ بعثَ اللهُ النبيّين مُبَشرين ومُنذرين، فمن قَرأ القُرآن ابْتِغاءَ وجهَ اللهِ وقَبلَهُ بقَبُوله أعطاهُ اللهُم الثّواب ما يُعطي الْمُرْسَلين...) (٤) .

استدعى الكاتب ابن أبي الخصال قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥) وقوله تعالى ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٦) إنَّ استحضار ابن أبي الخصال للنصوص القرآنية ودمجها في بنية رسائله ساعد في إعطاء دلالات مختلفة للنص فيستدعي الآيات القرآنية ويوظفها بما يناسب ،رسالته بتشكيل جديد يتناغم مع فكرة الشاعر ورؤيته ، وهذا الاستحضار -بلا شك - يُعَدُّ خيرَ دليل على شدة صلة الكاتب ابن أبي الخصال بمرجعيته القرآنية التي بدتْ جليةً في رسائله ولا يخفى على قارئ

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٠٢
(٢) الكهف ١٠٩
(٣) ينظر: المنهج القرآني في الإعجاز العلمي، د. رعد شمس الدين الكيلاني، مجلة ديالى للبحوث الإنسانية، العدد٢٨، ٢٠٠٨م .
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ٢١٩.
(٥) الفتح:٩
(٦) النساء:١٦٤-١٦٥

الرسائل تمركز المرجعية الدينية -القرآنية بشكل خاص- في صوغ الرسائل واثرها في مدها بأسباب الجودة والقوة والفخامة اللفظية والمعنوية.

وفي إحدى رسائله إلى الوزير أبي محمد الفهري* نلمح هذا التداخل مع بنية التعبير القرآني يقول: (...لكنّك والله يغفر لك _جَرَّعْتَ الصَّابيَ منهُ صاباً، وملأتَ صُدور َشِيعه أَوصَابا؛ فهمُ بين جُموعٍ مُنْفَضَّة، ودموع مُرْفَضّة؛ ونواظرَ كَليلة وخواطر َفَليلة، ينظرُونَ من طَرفٍ خَفِيّ ويتظلّمون َمنك من بَرّ حَفِي، لا يستْقِل لهمْ لِواء، ولا يَرْتَدُّ إليهم طَرْفُهم وأَفئدتُهم هَواء ...) [1].

نلحظ هذا الاستحضار لقوله تعالى ﴿يَنظُرونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّ﴾ [2] والآية المباركة ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [3] يلحظ أنّ الكاتب أمدته مرجعيته النصيّة فوظف أكثر من تعبير قرآني في نص رسالته وجاء هذا التوظيف للمرجعية النصّية عفوَ الخاطر مُتداخلاً مع الرسالة بشكل مناسب لا تعقيد فيه ولا خلل.

إن الباحث ليذهل حقاً من قدرة الكاتب الأندلسي على إحداث هذا التعالق النصي والتداخل مع القران الكريم بوصفه المرجعية النصية التي استند اليها فهو في رسالته هذه - المشار اليها - عبر عن انتصاره لأبي اسحاق الصابي مفضلاً فضل أسلوبه وهو تفضيل للأسلوب الذي لا يطغى عليه السجع ولا تكثر فيه المحسنات البديعية فتثقله[4] .

ويستمر الكاتب بمدّ رسالته بما يثريها من التعابير القرآنية التي تشعُّ في الرسائل نوراً وقوة لا مثيل لها فيقول:

* الوزير الكاتب أبو محمد بن عبد الله الفهري كان كاتباً أديباً لقبه ابن خاقان بالوزير الكاتب، رسائل ابن أبي الخصال محمد رضوان الداية: ١٣٩.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١٤٣

(٢) الشورى:٤٥

(٣) إبراهيم:٤٣

(٤) ينظر: في الأدب الأندلسي: ٣٤٨

(...إن غَضِبَ حَسبْتَ النّاسَ غضابا، ورأيتَ السُّهول َوُعوراً وهِضابا، أَو رَضيَ أَعادَ الْمشيب شَبابا، وفتّحتِ السّماء أَبوابا، وضَربت النُّجوم قِبابا، ولبست الأَرضُ من وَشي النَّورِ ثيابا...) (١).

لقد عوّل الكاتب على استدعاء البنية القرآنية المتمثلة بالآية المباركة ﴿وَفُتِحَتِ السّماءُ فَكَانَتْ أَبوَاباً﴾ (٢) وعاد إلى الاتكاء على النصوص القرآنية ورفد رسائله بمزيد من قوة التعبير وكثافة الايحاء فهو يقول:

(...وأبو إسحاق إذا تأملتَ مدارهُ، وعايَنتَ اقِتدارَهُ، ولم تَبْخَسْهُ مِقدارَهُ عاينت رَضْوى وثبيراً، ورأيت نعيماً وملكاً كبيراً...) (٣).

فقد تشكل النص من التعبير القرآني وهو قوله تبارك وتعالى ﴿وَإذا رَأَيتَ ثَمَّ رَأَيتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ (٤) فهذا التداخل النصّي يكشف لنا عن شخصية الكاتب ويبين سعة ثقافته وتبحره وعمق صلته بمرجعيته القرنية التي لا ينفك يعود اليها بين الحين والآخر، ليستقي من فيض تعابيرها ونور كلماتها ويضفي على نصه الرصانة والقوة ويمدها بأسباب التميز وشدة التأثير على المتلقي وتتيح له هذه المرجعية النصية الواسعة التحكم في توظيفها في سياق نصه بتفنن وابداع ويعود ليستحضر من التعابير القرآنية في الرسالة ذاتها يقول:

(...ولعل أَبا الفَضْل لو التَقت حَلَقتا البِطان ، وغَشيتهُ مهابة السلطان، وأسِر في تلك الَمحافل أَسْرَ القِد والحَلَق، ورمتهُ الملُوكُ ذوو التّيجان بالَحدَقِ، وفُجِئَ عَلى غِرّةٍ بإحدى الكُبَر، ورُمِيَ بأمر الملك وإنّما هو واحدةٌ كلمحٍ بالبَصَر...) (٥).

فقد بنى الكاتب المقطع النثري على استحضار نصوص قرآنية ،ولجأ إلى تحويرها وعمل بوساطتها على تشكلها لتلتحم بخطابه الأدبي بعد أن يُجري عليها تحويراً لا يخرجها عن

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١٤٦
(٢) النبأ:١٩
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ١٥٠
(٤) الأنسان:٢٠
(٥) رسائل ابن أبي الخصال:١٤٩

دلالتها القرآنية وبنيتها وصياغتها، وإنَّ استحضار الكاتب ابن أبي الخصال للنصوص القرآنية في رسالته في لحظة تكوين عمله الفني النثري نابع من ثقافته وعودته إلى هذه المرجعية في تكوين الفكرة أو النص وتداخله مع جزئيات النص المستحضر .

وهذا الاستحضار والتداخل النصي نلمحه في رسائل ابن أبي الخصال بصورة واضحة، فهو يستحضر النصوص القرآنية ويدمجها في نصوصه وهذا ما يعرف بالإنتاجية التناصية القادرة على التأثير في المتلقي.

وقال في أحدى رسائله الزرزورية :

(... وعلَّمَكُم مَنطِقَ الطَّير فها أنتم تَزجُرون سنيحها، وتَفْقَهُونَ تَسْبيَحها ...ومن قُلوبٍ قاسية ترفَ، وأذهانٍ صدئةٍ تَشفّ، وحُباً وَهَى عقدُها فانحلَّت، ونفوسٍ ألقت ما فيها وتَخلَّت ...وإنْ صَدَقني إحسانكم صَدقت، فَحَلِّ لِساني واحْلُلْ عُقدةً من لِساني ...) [1] .

استدعى ابن أبي الخصال عدداً من الآيات القرآنية في المقطع النثري الماثل أمامنا ومنها قوله تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [3] وعاد إلى مرجعيته القرآنية الواسعة ليستقي منها تعبيراً أخر وذلك في قوله (واحلل عقدة من لساني) من قوله تعالى ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾[4].فالكاتب يستحضر عدداً من الآيات القرآنية المباركة ويوظفها في نصه النثري "فالثقافة القرآنية قد تمثلت في قدرة المبدع على استيعاب النص القرآني وتداخله مع سياقه الثقافي وتماثله معه، وتحويله إلى فضائه الخاص وإعادة توظيفه في إنتاجية شعرية جديدة، فأصبحت اللغة القرآنية لغة شاعرة بامتياز بعد أن استوعبها النصّ الشعري

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٣٥،٣٣٦،٣٣٧
(٢) الاسراء :٤٤
(٣) الانشقاق:٤
(٤) طه:٢٧

وانتفع من مضامينها العالية استيعاباً تاماً في نسقه الدلالي الخاص"[١]فقد زين الكاتب رسائله ورصن مبناها بهذا الاستدعاء المتمكن لآيات القران الكريم.

وكتب في رسالة إلى صديق له:

وهذه الرسالة تعد أُنموذجاً للتداخل النصي مع مرجعية الكاتب النصية المتمثلة بالقران الكريم فالكاتب وهو يتحدث عن شؤونه موجهاً الخطاب لصديق له، فقد ذكر فئة من الناس وتحدث عن عدم اكتراثهم للهوان واللؤم اي لا يُحزنهم ازدراء الناس لهم .

وفي هذا السياق، حيث الكاتب ينعى على هؤلاء لؤمهم وكره الناس لهم، يورد نصاً متكئاً على القران الكريم قال الكاتب:

(...وَزيّن الوَفاء، وحَبّب المَبرّة وَالاحْتِفاء، عَلى أَنّ اللّؤْمَ وَالهَوان لا يشجيهم وَإِنّ الْكلاَب الضَّاريات لتعافهم وَإِن الذُّباب عَلى ضَعْفِه لا يَخافهم ...)[٢] .

وفي هذا النص استدعاء رائع وصادق لمعنى يتضمنه قوله تعالى ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمطلُوبُ﴾[٣]كُل هذه المعاني كثفها الكاتب في رسالته مستعيناً بمرجعيته النصية التي عاد اليها كلما لاح له أهمية تداخلها مع خطابه النثري، وهي مرجعيته النصية التي زادت من فاعلية التعبير في رسالته الموجهة إلى صديقه المنّوه به في ديوان رسائله ،فالكاتب يستحضر النص القرآني الملائم للرسالة، فعند ما يريد التعبير عن عدم اكتراث القوم الذين تحدث عنهم في رسالته للهوان واللؤم، فربط هذا التعبير بتعبير قرأني استقاه من مرجعيته القرآنية فهم ضعفاء لا شأن لهم في مواجهة الأمور ،وإنّ الذباب الذي ضرب به القران الكريم مثلا في الضعف ،والحماقة وعدم الاستطاعة عن دفع أيّ اذىً عنهم فأي معنى هذا الذي رسمته الآية التي جمعت بين التصوير الحسي والتجسيد المعنوي المتمثل بضعفهم وعجزهم، فالكاتب يداخل بين النص النثري والنص القرآني بدلالة تشبيههم بالعجز

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي :٤٩
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ١٧٢
(٣) الحج:٧٣

عن ردّ ما سلبه منه الذباب إنه تعبير خلاق بوساطة تحوير يتناسب ورسالته ويضفي عليها رسم هذه الصورة البيانية المدهشة التي تتكرر من واقعنا فتسرع إلى جمالية متفردة لم يسبق لها أحد قبله في توظيف لصديق ابن أبي الخصال والإشادة بنثره المكين.

ويعمد الكاتب ابن أبي الخصال في بعض رسائله إلى استفتاحها بمقدمات تتداخل مع النصوص القرآنية، ففي رسالته التي كتبها في إجازه مقرئ إذ استند إلى الآيات القرآنية التي قام بتحويرها، ولنقف على هذه المقدمة التي صاغها الكاتب بأسلوبه العذب ولفظه الجزل:

(...الحمدُ للهِ الّذي هَدَانا لفضيلةِ حَمدِه، وحَدَانا إلى تمجيدِه بِمَجْدِه، وأَنزلَ الفُرقانَ على عَبدِه واختصَّهُ ببلاغِ رِسَالاَتِه وَعَهْدِه، وقلَّده التَّحذير مِن وَعِيده، والتَّرغيب في وَعدِه؛ فَصَدَعَ بأَمرِه وانتهى إلى حَدّه وَدعا بالْحكْمَة وَالْمَوعظة الْحَسَنة إلى سَبيل رَبّه ...) (١).

استفتح الكاتب رسالته بالعودة إلى مرجعيته النصية القرآنية ليستقي منها تعبيراً عذباً ليساعد الكاتب على استفتاح هذه الرسالة ذات المعاني الدينية العميقة، والحاملة للعبارات الإشارية والتذكير بفضل القران والحضّ على قراءته، فقد استحضر في مقدمته هذه من الآية المُباركة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٣) ولهذا التلاقي بين النصين القرآني والنثري أثره في إغناء دلالة الرسالة وشحنها بالطاقة المؤثرة على المتلقي، فالكاتب عميق الصلة بالقران الكريم، والذي لا نكاد نجد رسالة من رسائله تخلو من تضمينها شيئا من القران الكريم وهذا يدل على أثر هذه المرجعية القرآنية في نفس الكاتب ،والذي يعوّل عليها بين الحين والآخر ليضيف شيئاً من لآلئها في نصوصه لتشع فيها نوراً وجمالية وقوة ايحاء ،فالكاتب الأندلسي وثِق كلّ الثقة بهذه المرجعية النصية القرآنية في كونها الأقدر على التأثير في نفس المتلقي وأكثرها قدرة على استيعاب الفكرة التي أراد الكاتب التعبير عنها ،وقد قاده هذا التأثير والانبهار بكلام الله، إلى أن يستحضره

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١٩٥
(٢) الفرقان :١
(٣) النحل :١٢٥

استحضاراً جميلاً لشيوعه على لسانه، إذ ظل يلهج بذكر الله وآياته - بحكم اهتماماته وطبيعة المهمة التي اسندت إليه ،اي الكتابة الديوانية في العهد المرابطي الذي نهض قادته للجهاد والتصدي للحملات الصليبية التي كانت تستهدف الإسلام والمسلمين.

ويتكئ الكاتب على مرجعيته القرآنية في مقطع آخر من الرسالة نفسها فقال:

(...حتَّى انجلى عَن الإسلامِ ذلكَ الزَّبَدُ الرَّابي، وثَبَتِت الأَطوادُ والرَّوابي، وظَهَر أَمرُ الله برغِمهم وإكراهِهم وتَمَّ نورُه الذي أَرادُوا أن يُطفِئُوهُ بأَفواهِهم ...) (١).

فالمقطع النثري يرتكز على الآية المباركة من قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٢) فمتلقي الرسالة والأجواء التي قيلت فيها التي تعيشها يبدو له جلياً ارتكاز هذا المقطع النثري على الآية المباركة التي أمدّت النص بالقوة والتأثير وبرّأته من الضعف والهلهلة، وأحلته مكاناً عَليَّاً في نفوس متلقيه، فعمل الكاتب إلى حلّ الآية الكريمة واعادة تشكيلها في نصه وصوغها صوغاً رفع به كفاية الخطاب بوساطة التعبير القرآني المحيط بالمعنى الذي قصده الأديب الأندلسي الذي عززه الاتيان بهذا الألفاظ القرآنية المستعارة من الخطاب القرآني ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾(٣) فالكاتب يستحضر النصوص المباركة لمدِّ رسالته النثرية بأسباب التفوّق والتميّز -وبلا ادنى شك -فانّ ثقافة الكاتب الموسوعية وصلته الوطيدة بكتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) مكنته من هذا النظم الرائع والتوظيف الراقي.

ويمضي الكاتب على هذا النحو من التداخل مع النصوص القرآنية إذ تداخلَ مع نصوصها بأجمل التعابير المجسدة لأدق المعاني ،وفي ضوء استحضاره للنصوص القرآنية

(١) رسائل ابن أبي الخصال :١٩٧
(٢) التوبة:٣٢
(٣) الرعد:١٧

المباركة، إذ وظَّف هذه الرسالة التي أجاز فيها مُقرئاً أحسنَ قراءة القران الكريم واجاد فيها ووجد ابن أبي الخصال في نفسه حاجة إلى تقديم الوعظ والإرشاد إلى المؤمنين وتذكيرهم ببعض أحكام الإسلام فاستقى ذلك من التعبير القرآني ،فأنتج بهذا التداخل نصوصاً مميزةً متفردة ، لها أثر واضح في نفوس مُتلقيها، فجاء هذا التداخل لُيخبر عن ثقافة واسعة وصلة شديدة بين الكاتب ومرجعيته الكبرى -القران الكريم- إذ أدتّ هذه الصلة إلى صوغ الرسائل على هذه الشاكلة من التفنن والإبداع ، فالكاتب يُريد بالمتلقي العودة إلى مخزونه المعرفي ويستدعي ما لديه من معلومات لفهم النص المعروض والتمكنُّ من فهم رسالة الكاتب وطريقته في توظيف النص القرآني المبارك توظيفاً فنياً قادراً على إغناء تجربته المُصاغة صوغاً فنياً لافتاً.

وقال في رسالة أخرى (...إنَّها أخلاقُكَ عُرِضَتْ عليك، وبضاعَتُك (رُدَّت) أَلَيْك، وأنتَ في قبولها كالنَّحلِ يَجني من شَهْدِه، والجارحِ يأكُلُ من صَيْدِه)(١) استدعى قوله تعالى ﴿لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾(٢) فاستطاع الكاتب تحقيق المتعة والفائدة للمتلقي، فعمد إلى مرجعيته الثقافية الواسعة، فنقل النص القرآني المبارك إلى نصَّه النثري بتفنن وإجادةٍ عالية إذ ائتلف النص النثري مع النص القرآني المبارك مع تصرف الكاتب باللفظ القرآني وتحويره بما يناسب نصه ويمنحه دلالة جديدةً مستقاة من فيض التعبير الإلهي المعجز ، ليُكسب نصوصه القوة والفخامة وشدة التأثير في المتلقي ويُتيح لها تحقيق إنتاجية عالية ما كانت تكون لولا الاتكاءُ على المرجعية القرآنية ودمجها في سياق الرسالة .

ويظهر الاتكاء على النصوص القرآنية في معارضات ابن أبي الخصال لملقى السبيل* لأبي العلاء المعري فقد عارضها ابن أبي الخصال وأورد فيها شيئاً من القران الكريم

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٧٤

(٢) يوسف :٦٥

* ملقى السبيل: وهي رسائل قصيرة للمعري رتبها على حروف المعجم وفي كلّ حرف يورد شيئاً من النثر ويورد شيئاً من الشعر ،وهكذا حتى يستوفي الحروف جميعها وهو يلزم السجع في كل حرف وتكون قافية الشعر على الحرف نفسه.

وكان لهذا التوظيف أثرٌ فاعل في تحريك النص وملئه بالحيوية [١] ومن أمثلة هذه المعارضات ما قاله في حرف الزاي:

(العَجبُ من ذي اغترار واعتزاز، يعلَمُ أَنهُ على وِفاز، وأنَّ الظُّلْمَ إلى قِصاصٍ وتَجاز، وأن اللهَ بمثقالِ الذَّرة مُجازٍ، ...

وقد نظمها شعراً فقال **[الوافر]:** [٢]

تبَسَّطَ في الذُّنوبِ وفي الْخَطايا ... ويَشْهَدُ با لقِصاصِ وبا لتَّجازي

يُجاهِرُ بالكبائِرِ عَدْلَ رَبٍّ ... على مثقالِ ذرّتِها مُجازِ

فهذا المقطع من المعارضة استدعى الكاتب قول الباري تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٣] وقوله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٤] اي أنَّ الله لا يظلم زنة ذرة، فالكاتب استحضر النصَّ القرآني في رسالته وعمل على تلاقي النصين النثري والقرآني في تشكيل صورة منتقاة من مرجعية الكاتب النصية (القرآنية) وعاد إلى هذه المرجعية في "حروف" اخرى من معارضته ولتفرد هذه المعارضة بأسباب القوة ووالإبداع وفي حرف الضاد قال:

(طوبى لِمَنْ وفَّى الفَرْض، وأَحسَنَ القَرْض، وخافَ العَرْض، وتأملَ السّماءَ والأَرض...

ثم ينظم ما نثره شعراً إذ يقول**[السريع]** :[٥]

طوبى لِعَبْدٍ أكمل الفَرْضَا ... وأَحْسَنَ النِّيَّةَ والقَرْضا

يَعْرضُ بَلْواه على رَبِّهِ ... ويَحْذَرُ الموْقِفَ والعَرْضا

فالكاتب- في هذا الحرف -الذي اتخذ منه نهاية مقاطعه النثرية وفي هذا المقطع النثري

(١) ينظر: في الأدب الأندلسي: ٣٤
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٧٦
(٣) النساء:٤٠
(٤) الزلزلة:٧-٨
(٥) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٧٩

والشعري عوّل على التعابير القرآنية المتمثلة في قوله تعالى ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (٢) فالكاتب اتكأ على مضمون الآيتين المباركتين بشكل واضح، إذ شكلتا مرتكز النص وعموده الذي أقامه عليه، إذ يعود إلى مرجعيته النصية القرآنية كلّما وجد لذلك سبيلاً ،لمدّ نصه بما يحتاج اليه من قوة ،فهذا المقطع من الرسالة شكلت المرجعية النصية فيه للكاتب جُزءاً أساسياً في تشكيله ،فما هو الّا اعادة توظيف لنصوص تلك المرجعية ونشرها نشراً جديداً ،ليناسب غرض الرسالة ويُغني مدلولها ،ومن اللافت أَنّ ابن أبي الخصال قد عمد إلى تشكيلٍ كتابيٍ غير مألوف، تمثّل من إنشاء مقاطع نثرية ثم حاول أن ينظمها شعراًكما فعل في الأنموذج المذكور أيضاً ،وأحسب أنَّ هذا الأمر غير مألوف ولم يتهيئا إلّا لكاتب قدير يُقلِّب مضامينه بين نثر وشعر في مراوحة عزَّ نظيرها ،فضلاً عن أنّ هاتين الصياغتين النثرية والشعرية قد استندتا إلى الألفاظ والتعابير القرآنية المستحضرة بتركيز وفاعلية.

وفي خطبته التي حضَّ فيها على الجهاد ، اتكاءٌ واضحٌ على المضمون القرآني فجاءت مليئة بالإشارات القرآنية والتي تكشف عن تفنن ابن أبي الخصال في العمل على تداخل النص القرآني مع النص النثري ليسمو بالرسالة ويُضفي عليها سماتِ التميّز فقال فيها:

(...واقْتَضى الدَّينُ الحنيفُ دَيْناً طالما مُطِلَ ولُوِي وبَلَغَ مُلْكُ أُمتَّهِ ماله من الأَرضِ زُوي صلى الله عليه وعلى آله الذّين أَلْبَسَهُم الفَضْلَىَ شَهِيراً واختارَهم لَهُ عَضدُاً وظَهِيراً وأَذهب عنهمُ الرِّجْسَ وطهّرهم تَطهيراً وعلى أصحابه الذين ابْتَدرُوا دَعْوَتِهُ سَبْقاً، واَخبْرُوا عنهُ صِدقاً؛ ووجدوا ما وعَدهُم حَقّاً ومَدُّوا أَطنابْ الإيمان غَرْباً وشَرْقاً صلاةً تكونُ لرضاهُ عنهم ولرضاهُم عنهُ وَفْقاً، وتتَقرّاهُم حيثُ كانوا داراً داراً، وأُفقاً أُفقاً...) (٣)

(١) البقرة : ٢٤٥
(٢) الحاقة :١٨
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٥٢٣-٥٢٤

وفي هذا المقطع النثري تتجلى براعة الكاتب وتمكُّنه، إذ عمد في هذا النص على التداخل مع نصوص القران بهذا المستوى الفني البارع.

فالكاتب يستعين بمرجعيته النصية القرآنية في الحثّ على الجهاد، ويوظِّف نصوصه في تعبيراته هذه فهو يحثُّ على الجهاد ويستنهض الهمم وما فيه من خير وبركة ودفاع عن الإسلام، ودفاع عن الوطن والحرمات، فيستحضر مرجعيته النصيّة ويداخلها مع رسالته للتفاعل وتُعطي إنتاجية مميزة دبَّجها الكاتب باتقان وتفنن عالٍ يكشف عن سعة مرجعيته النصية القرآنية التي أتاحت له هذا التصرّف في الصياغة النثرية بما يعزز فكرته ويُثريها ويُرصن بناءه و صياغته ولنتأمل مصداق هذا في أصل البنية القرآنية المستحضرة ، إذ قال جلَّ ثناؤه

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] فالكاتب يُورد الآية المباركة مشكلاً إياها بما تتناسب مع سياق رسالته وهو يوظف الآية التي تتحدث عن أهل البيت (عليهم السلام) فكانت هذه الآية المباركة جُزءاً مهماً من هذا المقطع أضاف له الحركة وعبر عما أراد الكاتب الإفصاح عنه بجمالية وتأنُّقٍ، واضاف اتكاء على قوله تعالى ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2] وأيضاً استند النص إلى الآية المباركة من قوله تعالى ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [3] فالكاتب عمل على ترصيع مقطعه النثري بالاتكاء على آيات من الذكر الحكيم فحققَ هذا التداخل النصي أهمية بالغة تُحلّق بالرسالة إلى أعلى مراتب العلو ، فلهذا التداخل أثرهُ الفاعل في إغناء الرسالة ومدّها بأسباب التفوق والتميُّز.

وهو يستدعي النص القرآني على مستوى اللفظة أو التركيب ،بعد إحداثه تغييراً طفيفاً في بنيتها اي في نصوصها -ضمائرها- (واذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) (صلاة تكون لرضاه عنهم ورضاهم عنه وفقاً) فالذائقة الشعرية -وبفضل مرجعيته الوسيعة- جعلته

(١) الأحزاب:٣٣
(٢) الأعراف :٤٤
(٣) المائده:١١٩

يستحضر البنية القرآنية موائماً بينها وبين خطابه النثري بعد تغيير منسَّق في مقطعه النثري خدمة لمضامينه النثرية في هذه الرسالة ،ولتقوية اتكائه الفني أو التصويري وهو بهذا يُحدِث صراعاً بين معاني الألفاظ المعجمية المعيارية وبين معانيها النحوية وسياقاتها الجديدة بعد استدعائها وإدخالها في الخطاب النثري كي تسند المعاني النحوية والسياقية التي تطلبتها شعرية النثر، ويعزز هذا قول محمد عبد المطلب "نقل الصياغة من الحياد التعبيري إلى منطقة الأدبية "(١) فقد احسن الكاتب نقل هذه الصياغة من سياقها الذي وردت فيه إلى سياق رسالته لتضفي عليها الشعرية والتأثير الذي تطلبته الرسالة وحققه هذا التداخل الجميل بين النصين القرآني والنثري وهناك بعض المقاطع النثرية في رسائل ابن أبي الخصال والتي عمد فيها إلى استدعاء شذرات من مرجعيته النصية القرآنية بطريقة مباشرة ومحوّرة في آن واحد ومنها ما قاله في رسائله الزرزورية :

(الحمدُ للهِ ذي الحِكْمَةِ البالغة، والنّعمة السّابغة، الذي اعْتَمَدَنا بالإحسان ابتداءً، وأنشَأنا من نفْسٍ واحدةٍ إنشاءً، وجعلَ منها زَوْجَها تماماً ووفاءً وبثَّ منهما رِجالاً كثيراً ونساءً...) (٢).

ثمة آيات قرآنية كثيرة تتداخل مع نصّ الرسالة بل أنّ كلّ تعابير الكاتب ارتبطت بألفاظ القران الكريم وتعابيره (ذي الحكمة البالغة) يعودُ بنا إلى التركيب القرآني ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٤) وقول الكاتب (النعمة السابغة)يذّكر بالنص القرآني من قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾(٥) وقول الكاتب (وأنشأنا من نفس واحدة ..رجالا كثيرا ونساءٍ نلحظ أنّ هذا النص يتداخل مع الآية المباركة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ

(١) قراءات أسلوبية في الشعر العربي الحديث، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م، ٣١.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٣١
(٣) الاسراء :٣٩
(٤) البقرة:٣٢
(٥) لقمان :٢٠

بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾[1] إنّ المستوى الذي جاء به وهذا الاستحضار المكين للنص القرآني من لدن الكاتب ابن أبي الخصال، رشّحه إلى الالتحام الذي كوّن خطاباً جديداً ذا سمات أُسلوبية انبثقت من هذا التعالق ولالتحام بين الخطابين، الخطاب القرآني ،وخطاب الكاتب الأندلسي وليدل دلالة ساطعة على عمق مرجعيته الدينية ولاسيّما تبحره بالقران الكريم حفظاً وتمثُّلاً وقد افضى هذا الاستدعاء للنص القرآني على مستوى اللفظة والتركيب، إلى خدمة مضامين الكاتب وتقوية بنائه الفني، والاستحضار للنصوص القرآنية من لدن الأندلسيين اثرٌ كبير في بناء النصوص الإبداعية وتشكلها على وفق علائقهم الروحية والنفسية والشعورية إذ سقاهم بمعطيات الثقافة القرآنية ومعينها المعرفي الذي انعكس على رؤاهم الشعرية وصوغها الفني بشكل عام [2].

لقد احسن الكاتب تضمين مقدمته آيات من الذكر الحكيم سواء أكانت بطريقة مباشرة أم غير مباشرة (محوّرة)، فهذا التداخل النصي أنتج نصا امتاز بالقوة في البناء ،والجودة في المعاني، وجزالة في الالفاظ ،فأنتج هذا التداخل نصاً نثرياً فريداً بفضل سعة ثقافة الكاتب وتمكنه وتعمقه في معرفِة مرجعيته النصيّة القرآنية وتعمقها في نفسه إذ اتاح هذا التداخل بين النصوص القرآنية والنص النثري للكاتب الاندلسي، والاسهام في الجودة والابداع وقوة تأثير الرسالة ،فاكتسى المقطع النثري عمقاً في المضمون وسلامة في الأُسلوب وجمالاً في الصياغة ومن ثمّ قوة في الإيحاء .

وقال الكاتب في رسالة أخرى في الشكر على نزول الغيث بعد القحط:

(الحمد لله الَّذي لا يكشفُ السّوء سِواه، ولا يَدْعو المضْطَرُّ إلّا إيّاه ، ... وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه الَّذي بشّر وأَنذَر، ورغَّب وحذَّر ،وغَلبت البُشرى على الإقناط ....)[3] استدعى الكاتب قوله تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[4] ونلاحظ كيف تمكن الكاتب ابن

(١) النساء:١
(٢) ينظر: المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين:٣١
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٧٢
(٤) النمل :٦٢

أبي الخصال من خلق المواءمة الحسنة بين النصين : نصّ المنشئ والنص المقتبس فيتداخل النصان وينصهرا حتى يعطيا نصاً جديداً متميزاً ويحققا الإنتاجية الفاعلة والتي تحقق الهدف الذي أراد الكاتب البلوغ إليه، وهو شكر الله على رحمته بعباده ودفع الضرر عنهم إذ أنزل برحمته الغيث بعد اتصال القحط ، فشكر الكاتب الله عزَّ وجلَّ بهذه الرسالة المتميزة واستدعى ابن أبي الخصال آية قرآنية أخرى في المقطع النثري نفسه وهو قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[1] فيبدو للباحثة جليّاً تأثر ابن أبي الخصال بالمرجعية القرآنية وهو الأديب المسلم الذي تشبّع في نفسه القران الكريم وتأثر به، فالكاتب تشبع بالثقافة القرآنية ووظفها في نصوصه والتي تمثل "المنبع الأول والأخير للثقافة الإسلامية وكل ما عداه تبعٌ له وقائم عليه "[2]فبدا تأثر ابن أبي الخصال بالقران الكريم واضحاً ، وهذا ما ترجمته لنا رسائله وأنّ النص القرآني المبارك مثل مرتكزاً مهماً بُنيت عليه الرسالة وتفاعلت معه لتُعطي أجمل الدلالات في ظلال التعبير المقدس.

وفي رسالة إلى الوزير أبي محمد بن مالك *(...فما للوزيرِ الأجلِّ، عن مثلِ هذا المحَلِّ، وهو يناديهِ: هلُمِّ عن الحرور إلى الظّلّ لو استطاعَ لَسَعى إلَيْهِ ومَثُلَ بين يَدَيْه...)[3] استحضر الكاتب قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأعمى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾[4] فالكاتب في المقطع النثري يقوم بتحوير النص القرآني بما يتناسب مع غايته، فهذه الرسالة كتبها ابن أبي الخصال إلى الوزير المحبب إلى نفس الكاتب والذي يحبّ له الخير فهو يقدم له النصح ويمدّ له يد العون ويدعوه إلى الظلِ أي الخير والسعة فترجم الكاتب عن امتنانه بهذا التوظيف للنص القرآني الذي زاد الرسالة فخامةً وقوةً وجمالاً.

وقال في رسالة أخرى:

---

(١) البقرة ١١٩

(٢) ينظر: الثقافة الإسلامية، محمد راغب الطباخ، حلب،١٩٥٠م، ١٤.

* أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري أحد وزراء الأندلس "لم يرَ مثله في الأندلس ذاكراً للفقه والحديث ،بارعاً في الأدب شاعراً مجيداً حلو الكتابة والشعر" قلائد العقيان :١٦٩

(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٦٢

(٤) فاطر: ١٩-٢١

(...وتأدى الكتابُ الكريم الذي صدَر عن وُدّ أُسِّسَ على التَّقوى وشُدَّ بالصَّفاء ...)[١]

كتب ابن أبي الخصال هذه الرسالة في الشفاعة واستدعى قوله تعالى ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾[٢] بعد أن أجرى عليه تحويراً لجعله يتناسب مع مقصده فقال (وتأدى الكتابُ الذي صدَر عن وُدّ أُسِّسَ على التَّقوى) فاستبدل بكلمة (المسجد) كلمة (وُدٍّ) فأعطت النص دلالة جديدة متميزة وفي الوقت نفسه عبرت عن قصد الكاتب، وفي ظلال التعبير القرآني المبارك فالكاتب يعود بين الحين والأخر إلى مرجعيته القرآنية ليوظفها في نصوصه ويحاول امتاع المتلقي وإحسان التأثير فيه.

وفي رسالة إلى أحد القضاة قال فيها:

(... ولو سقى الله تلكَ الحضرة المطر ،ونشرَ الخِصْبَ فنَشَر، وأَخذت الأرضُ زُخْرُفَها ولَبسَتْ رداءها الأَخْضَر، لَنَفرَتْ بي نحوَهُ الشَّهباء...) [٣].

اتكأ الكاتب الأندلسي في المقطع النثري على قوله تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾[٤] فهذا المقطع من الرسالة مرتكز ارتكازاً كلّياً على نص الآية القرآنية المباركة ولكن الصياغة جاءت محورة بطريقة الكاتب المبدع الذي حاول التعبير عن غايته ويكسب رسالة فخامة وقوة فعاد إلى مرجعيته القرآنية العريقة.

وقال في رسالة جوابية إلى صديق له:

(...وأخلعُ عليها هَواي، وأقولُ لوافدها ﴿يا بشراي﴾ وعلى ذلك فإنها قديماً، أنْضَرُ الرّياح أديماً، وأعضُّها نَسيماً ...) [٥]

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١١٩
(٢) التوبه:١٠٨
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٥٦
(٤) يونس:٢٤
(٥) رسائل ابن أبي الخصال:١٧٧

استحضر قوله تعال ﴿يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ (١) فلا نكاد نجد رسالة تخلو من الألفاظ والتراكيب القرآنية المباركة فالكاتب ينقل المعنى القرآني إلى سياق رسالته بتفنن عالٍ وإجادة لا مثيل لها، فاستدعى في هذه الرسالة اللفظة القرآنية يا بشراي ،وجعلها مركزاً للمقطع النثري فأضفى بهذا الاستدعاء على اللفظة القرآنية جمالاً على نصه النثري ،فالكاتب الأندلسي

واستدعى ابن أبي الخصال مرجعيته القرآنية في رسالة أخرى:

(...وكيف تقلَّبْتُ ففي إنعامكم أتقلّبُ، وعلى أَرجائكم أَنحطُ وأَتصوَّبُ، لا زلتم تُمْدحون بكلِّ لسان، وتَعُمّون الْحَيَوانَ بالإحسان، وتَسمعونَ من القَولِ أحسنه...) (٢).

فالكاتب يعود مرة أخرى لإسقاء نصوصه من فيض التعبير الإلهي المعجز ويستحضر قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٣) فالكاتب الأندلسي يعمد إلى شحن نصوصه بالطاقة الإيجابية والقوة والتي استمدها من مرجعيته القرآنية العريقة فهو- كما راينا - يستدعى النص القرآني ويحوره بما يلائم رسالته وقال د.حسين رستم بهذا الصدد " تتوزع الثقافات القرآنية الكريمة ، وتتشظى داخل بنية النص الأندلسي من أجل إنتاج دلالة جديدة تتماثل ورؤية الشاعر ومعطياته المعرفية وتفاعلهما مع التجربة الواقعية ،حتى تستطيع ان توفر للمبدع جواً نفسياً يختزل أبعاد التجربة الشعورية"(٤) فالكاتب الأندلسي يُكثر من استدعاء الآيات القرآنية المباركة ويوظفها في رسائله ليدلنا ذلك على عمق الصلة التي تربط الكاتب مع مرجعيته القرآنية، وهناك العديد من الرسائل التي ارتكزت على المرجعية القرآنية لا يسعنا ذكرها .

٢.الصورة القرآنية

الصورة لغة: صُوَرٌ وصِوَرٌ وصُوْرٌ وقد صوّرَةُ فتصَوّرَ، وتصَوْرتُ الشيءَ، توهّمتُ صورته فتصوَّر لي، والصورة تَردُ في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء

(١) يوسف :١٩
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٤٥
(٣) الزمر :١٨
(٤) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين:٦٩

وهيئته وعلى معنى صفته يُقال صورة الفعل ِكذا وكذا، أي هيئته وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته [١].

أمّا في القاموس المحيط: الصُّورة، بالضم: الجمعُ صُوَرٌ وصِوَرٌ بمعنى النَّوع والصِّفةِ [٢].

أمّا في الاصطلاح : قال الجاحظ وهو يتحدث عن الشعر بأنه "ضرب من النسج ،وجنس من التصوير "[٣] وعرّفها جابر أحمد عصفور "طريقة خاصة من طرق التعبير ،أو وجه من أوجه الدلالة ،تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير ،ولكن أيّا كانت هذه الخصوصية أو ذاك التأثير ،فإنّ الصورة لن تغيّر من طبيعة المعنى في ذاتهِ ،انها لا تغير إلّامن طريقة عرضه ،وكيفية تقديمه"[٤] ويرى الدكتور مصطفى ناصف أنّ الصورة تستعمل عادة " للدلالة على كلّ ماله صلة بالتعبير الحسّي ،وتُطلق أحياناً ،مرادفة للاستعمال الاستعاري [٥] "وهي مجموعة العلاقات اللغوية والبيانية والإيحائية القائمة بين اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون "[٦].

لذا تُعدُّ الصورة الوسيلةَ التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه او سامعيه ،والصورة قوام المعنى وليس ثمة صورة لا تحمل معنىً، فضلاً عن ذلك انّ الخيال في طليعة عناصر تشكيل الصورة الفنية المعبرة ،فالقران الكريم رسم أبهر الصور التي أثّرت في المتلقي وأبهرت الناس جميعاً مسلمين أو غير مسلمين ،فصور القران الكريم شديدة الدقة ترسم المشهد بكلِّ دقة واتقان ،فالتصوير القرآني هو تصوير باللون والحركة وتصوير بالتخيّل ، وكذلك هو تصوير بالنغمة فيشترك الوصف والحوار وجَرْس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملأها العين والأذن والحس والخيال

(١) لسان العرب:٤/٤٧٣
(٢) القاموس المحيط، نعيم العرقسوسي:٤٢٧
(٣) الحيوان، أبو عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥ هـ) تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي وأولاده القاهرة ط٢، ١٩٦٥م ، ٣ / ١٣٢.
(٤) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهره،١٩٧٤م ، ٣٩٢.
(٥) الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار مصر للطباعة والنشر، القاهره،١٩٥٥م، ٣.
(٦) الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين الصغير دار الرشيد، ١٩٨١م ، ٣٧.

والفكر والوجدان ...)[١] وَيُعّدُ التصوير القرآني أداة من أدوات القران الكريم وهي أفضل الوسائل القرآنية في التعبير وعرفها سيد قطب قائلاً هي "الاداة المفضَّلة في أسلوب القران ،فهو يعبر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية ،وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية "[٢].

فالقران الكريم استعمل الطرق البيانية في التعبير عن بعض موضوعاته ،وقد عرض لنا الكتاب الحكيم أروع الصور البيانية وأجملها وأكثرها قدرةً على التأثير في المتلقي، إذ استعمل القران الكريم التشبيه والكناية والاستعارة وغيرها من الصور البيانية التي عرض بها القران الكريم بعض مشاهده وموضوعاته، فالقران الكريم يجمع تعبيره بين الجانب الديني والجانب الجمالي فهو يهدف إلى إبراز المعاني القرآنية حتى تغدو "لوحات تصويرية حية تبدو شاخصة للعيان بأشكالها الحية وهيئاتها التي تموج بالحركة وبخطوطها وألوانها وظلالها، بأجوائها ووقائعها وتفاصيلها وفي هذه اللوحات القرآنية يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني في كُلٍّ متكامل لا ينفصل"[٣] فأمّا الغرض الديني فهو الذي يرسخ المقررات الدينية والإيمانية ولتبليغيه أما الغرض الفني فهو القيم التأثيرية والجمالية فللصور القرآنية تركيب خاص وميزة رائعة وقدرة على التأثير في المتلقي بشكل شديد، فتركيب الصور القرآنية يشدُّ المتلقي.

أ-التشبيه

يُعدُ التشبيهَ عنصراً مهماً في النتاج الأدبي، فهو يزيد المعاني قوةً وله القدرة على إمتاعِ المتلقي وإيصال المعنى بأجمل صورةٍ حتى قال عنه ابن الاثير، فالتعبير القرآني المبارك يخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية يقول العلوي اليمني بهذا الصدد "... أمّا فائدة التشبيه في الكلام أنّك إذا امتثلت الشيء بالشيء ،فإنما نقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به، أو بمعناه ،وذلك أوكد في طريقة الترغيب او التنفير عنه، ألا ترى إنّك إذا شبهتَ صورةً بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب

(١) التصوير الفني في القران الكريم :٣٧
(٢) المصد ر نفسه: ٣٦
(٣) التصوير الجمالي في القران الكريم، عيد سعد يونس، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ١٣٠ .

فيها ،وكذلك إذا شبهتها بصورة شيٍ أقبح منها ،كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو الى التنفير عنها "[١] فالتعبير القرآني المبارك يخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية يقول العلوي اليمني بهذا الصدد"... فهكذا ترى جميع التشبيهات الواقعة في التنزيل، فإن لها مقاصدَ عظيمة ومضمنة لأغراض دقيقة يعلمها من ظفر في هذه الصناعة بأوفر حظّ وكان له فيها أدنى ذوق وحام حول تلك الدقائق بذهن صافٍ عن كَدُور البلادة " [٢].

فالقران الكريم يأتي بالصور التشبيهية لتحقيق أغراضٍ عدة منها الكشف والإيضاح والتهذيب والإنذار ... وهذه الصورة مكسوة بالطابع الديني ومرتدية لحلة الجمال والبلاغة فيأتي الكاتب بالصور التشبيهية القرآنية فيضفي على المعنى شرفاً ووضوحاً، ويزيده قوة وتأكيداً، فتهفو له النفس ويتحركُ القلب إليه، فيؤثر التشبيه في الكلام ويجعله أبعد للتأثير.

قال صاحب الطراز:

" ... اعلم أنك إذا أردتَ تشبيهَ الشيءَ بغيرهِ ، فإنما تقصد بهِ تقرير المشبه في النفسِ، بصورة المشبه به، أو بمعناهُ، فيستفاد من ذلك البلاغة فيما قصد به من التشبيه على جميع وجوهه، من مدح ،أو ذمّ ،أو ترغيب ،أو ترهيب، أو كِبرٍ أو صِغر، أو غير ذلك من الوجوهِ التي يقصد بها التشبيه وتُراد للايجاز ايضاً والاختصار في اللفظ من تعديد الأوصاف الشبهيّة ،وتُراد البيان والايضاح أيضاً ... " [٣].

والتشبيهات القرآنية لم تقف عند مجرد تسجيل وجوه المادية بين الأشياء ،بل تجاوزتها إلى المماثلة الفنية ، وتعمقاها حتى أضفت عليها حياةً شاخصةً وحركةً متجددة ، فيقلب المعنى الذهني إلى هيئة أوحركة وتتجسم الحالة النفسية في لوحة أو مشهد، وبرز جمال الفنية القرآنية ما فيه من ابداع في العرض وجمال في التنسيق وروعة في النظم والتأليف ، وَجَرْس في الالفاظ يدلُ على صورة معانيها [٤] وقد أدرك أديبنا ما في التشبيه من قدرة على رسم المشهد

(١) المثل السائر:١٢٣/٢
(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز، يحيى بن حمزة العلوي اليمني ، مطبعة المقتطف ،مصر ،١٣٣٢ هـ/١٩١٤م، ٣٣٠/٣.
(٣) المصدر نفسه : ١/ ٢٧٣-٢٧٤
(٤) الصورة الأدبية في القران الكريم، صلاح الدين عبد التواب، ٤٥.

بطريقة رائعة مؤثرة فعمد إلى اسقاء نصوصه النثرية بشيء من التشبيهات القرآنية المباركة لتسمو هذه الصورة القرآنية بالنص النثري وترفعه إلى درجةٍ من العُلّو والتميّز .

ومن الصور القرآنية التشبيهية التي وردت في رسائل ابن أبي الخصال في رساله بعثها إلى أبي بكر بن عبد العزيز

(...ولو مَرَّت بالرّوضةِ الغَنّاء تَجْلُو حُسْن مبتسمها وتضحك ملء فمِها لتَجهَّمتْ بعد ابْتِسامها، وتَوارَتْ في أَكمامِها تُوسِعُ الأَسْماعَ وَقْراً، وتُودِعُ القلوبَ نَكْأً وعَقراً، وتَعِدُ النُّفوس كُفْراً وفَقراً أخطأَ صاحِبُها الرِّفعةَ والسَّناء ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ (١)وهُدِي إلى الّتي ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٢)، وتَغْلِي في البُطونِ ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (٣)، طَلْعُها رُؤوسُ الأَراقِم، وطعْمُها نفوسُ العَلاقِم..) (٤) .

لقد حشد الكاتب في رسالته ومعانيه، التي عرضها في رسالته ، مُزيداً إياها بألفاظ من القران الكريم وتعابيره لمدِّ سياقه بوافر من قوة الإيحاء والتأثير في متلقيه المقصود، فقد عمد الكاتب في هذا المقطع النثري إلى توظيف آيات قرآنية بصورة مباشرة واختار الآيات المباركة لمناسبتها لسياق رسالته، ووظفها بشكل متناسق وجميل، فضلاً عما أورده من تشبيه استقاه من التعبير القرآني، ليُزيد رسالته جمالاً ويُضفي عليها من ظلال القران الكريم.

فقد هرع الكاتب إلى ذاكرته ومعجمه القرآني يستحضر النص القرآني (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) فما كان منه الّا أن يْستبدل :(رؤوس الشياطين) ويقول (رؤوس الأراقم) وشفعها بالعبارة البيانية لُيحقق هذا السَجْع الفريد (وطعمها نفوس العلاقم) فالعلاقة بين الطعم والعلقم المرّ أدخل في سياق الرسالة ومضمونها

فالكاتب ذو ثقافة قرآنية واسعة، ولما كانت ألفاظ القرآن ومعانيه حاضرة في ذهنِه ، لذا انسابت هذه العبارات محملّة بمعانٍ تخدم مضامين الرسالة وتقوّي بناءها ، فهو لم ينتقِ الألفاظ

(١) المؤمنون :٢٠
(٢) الصافات :٦٤
(٣) الدخان:٤٥
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ٥٢-٥٣

بل انثالت على لسانه ليختار ما واءم مقاطعه النثرية منها فجاءت مقاطعه أشدَّ اسراً وامرى إحكاماً وتماسكاً ففي قوله (طلعها رؤوس الأراقم وطعمها نفوس العلاقم)فالأراقم مفردها الأرقم وقصد بها الحيّة الذكر ،وهذه صورة تشبيهية تقوم على التشبيه البليغ الذي حذفت أداته ووجه الشَبَه فبقي طرفاه(طلعها) و (رؤوس الأراقم) وهذه الصورة البيانية استوحاها الشاعر من البيان القرآني المعجز في قوله تعالى ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ إذ المشَّبه به لم يُرَ، فلم يَرَ الناس (رؤوس الشياطين) وإنما يتخيلونها تخّيلاً ومثل هذا التعبير المُعجز ورد عند شعراء الجاهلية، فهذا أمرؤ القيس يُورد معنىً غزلياً يقوم على مثل هذا التشبيه إذ يقول:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ... وسنونة زرق كأنياب أغوالِ

فكيف تُدرك المشبه به (أنياب الغول) فابن أبي الخصال يأتي بعبارته النثرية البيانية (طلعها رؤوس الشياطين) ومثلها عباراته (وطعمها نفوس العلاقم) وهما عبارتان وفِّق الكاتب إلى صوغها ايّما توفيق، بيد أنّ هاتين العبارتين استند الكاتب في صوغهما إلى مرجعيته النصيّة.

فالقران الكريم في هذه الصورة الرائعة يشبه ما يقع عليه الحس بما لا يقع عليه. فإنَّ الطلع هو معهود ومحسوس، ولكن رؤوس الشياطين متخيَّل، وقال السيوطي في تشبيه الطلع برؤوس الشياطين "شبه بما لا يشك أنَّه منكر قبيح ، لما حصل في نفوسِ الناس من بشاعة صور الشياطين، وإن لم ترها عيناً"(١) .

وفي رسالة أخرى وظّف فيها صورة قرانيه ،إذ استدعى البنية القرآنية الدالَّة عليها لإضفاء مزيدٍ من الجودة والروعة على معانيه ومبانيه قائلاً:

(...وهذه مَنْقَبَةٌ لهم بها مرتبةٌ عاليةٌ ومَرْقَبة؛ ورُبَّ قتيلٍ جَنح من نَجِيّ، وغريقٍ من الظلماء ﴿في بحرٍ لُجّيٍّ﴾، يكيد بنفسهِ حَذاراً...) (٢).

(١) لإتقان في علوم القران، جلال الدين السيوطي(ت٩١١ هـ)، تحقيق :شعيب الأرنؤوط ،اعتنى به وعلق عليه مصطفى شيخ مصطفى ،مؤسسة الرسالة ،ط١، ١٤٢٩ هـ/٢٠٠٨م،٥٠٨.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٥١

فالكاتب الاندلسي استقى في المقطع النثري المذكور آنفاً من الآية المباركة ﴿وْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[1].

فالكاتب ،إذ عاد إلى الصورة القرآنية وعوّل عليها لتكسب رسالته صلّة جميلةً من اللفظ الجزل الموجز والمعنى القوي ،وتمدّ النص بالقيم الجمالية التي تميزت بها هذه الصور القرآنية فضلاً عما ما تحمله هذه الصور التشبيهية، التي جاء بها القران الكريم من قدرةٍ على التأثير في نفس المتلقي، وتجعل الصورة الواردة تعلق في ذهن متلقيها نظراً لما تميزت به من مزايا خاصة جعلتها تحقق أعلى درجات الشعرية في النص وتغني الدلالة أيّما اغناء، فالكاتب عوّل على مرجعيته النصية القرآنية وأسند نصّه النثري على النص القرآني واستقى التشبيه القرآني الجميل وهو تشبيه المحسوس بالمعقول ﴿وْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ وفي الآية المباركة تشبيه حال الكفرة بما همُ فيه من الكفِر والجحود والتمادي بالباطل، بظلمات بعضها فوق بعض، فلا يدرك لها حالة من النور ولا يهتدي إليه وهذه الصورة التشبيهية رائعة فريدة من نوعها وهي من آيات الإعجاز القرآني فهذه الصورة رائعة لا يمكن لتصور ذهني أن يجسد هذه الحالة الرهيبة من الظلمات .

قال الزمخشري: " وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق لظلمات متراكمة من لجٍ البحر، والأمواج والسحاب"[2] فالكاتب ابن أبي الخصال في معرض حديثه عن المؤذنين، انهالت على ذاكرته هذه الصورة القرآنية الفريدة فعمل على توظيفها بهذا الشكل من الجمال والتناسق.

(١) النور :٤٠

(٢) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨ هـ)، اعتنى به وعلق عليه خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ،بيروت- لبنان ،ط٣، ١٤٣٠ هـ/٢٠٠٩م، ٧٣٢.

فهو يداخل بين المرجعية النصية القرآنية والنص النثري، فسعة الثقافة القرآنية عند الكاتب حتَّمت عليه هذا التوظيف، فالكافرون الذين عرفوا الهدى والحق وآثروا عليه الظلمات فتاهوا في هذه الظلمات فأصبحوا كالتائه في بحرٍ لُجِّيٍ.

أمّا الكاتب فقال (وغريق من الظلماء ِفي بحر لُجِّيٍ) فقد استمد الكاتب هذا التعبير من القران الكريم فارتقى بنصه النثري وعلا به.

وفي رسالة مطّولة إلى أبي بكر بن العربي اسند الكاتب نصه النثري إلى صورة تشبيهية من صورٍ القران الكريم قال فيها:

(...وتتراءاه فلقةُ قَعبٍ من لُجَيْن؛ وَنُكَبّرُه وَنُكَبّرُ، ونَصومُ لرؤْيتهِ ونُفْطر، ونَستَنِيرهُ نضواً نَاحِلاً فَيَبدُن ويُقْمِر؛ حتى إذا بَسَق واتّسق، وَوَسَقَ من نورهِ ما وسق؛ استدرجَهُ اللّحاق وعادَّه المحاق فإذا عاد كالعرُجون، ولبسنا سَابغات السُّود الجُون؛ أَظهَرَهُ الّذي أضمره، وسَخَّره وَأَمَرَه؛ فأَنشأ يَملأُ من هالته ما أَصْفَر...) [1].

قال تعالى ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[2] فالكاتب استقى من مرجعيته النصية القرآنية صورة تشبيهية رائعة وهو تشبيه القمر في حالة تحوله وتناقصه شيئاً فشيئاً بعرجون النخل، والعرجون هو العود الذي يحمل التمر وهذا تشبيه رائع فقد شبه القران الكريم شيئاً من الطبيعة بأخر منها[3] فإن ذلك العود (العرجون) إذا يبس وتقوّى واصفَّر وتضاءل فكان كالقمر في آخر منازله وأولها فهذه صورة فريدة معجزة تؤثر في المتلقي أيمّا تأثير

والكاتب أدرك ما لهذه الصورة التشبيهية التي جاء بها من مرجعيته النصية العريقة من أثر فأتى بها ليرتكز عليها النص كي تضيف إليه سماتِ التميّز وقوة التأثير في المتلقي، ولهذا التداخل النصي أثرهُ الذي ظهر جَليّاً للقارئ والذي عكس قدرة فنية رائعة على توظيف هذه المرجعية وحُسن التداخل بين المرجعية النصية والنص النثري يقول :(استدرجَهُ اللّحاق وعادَّه

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١٩٢
(٢) يس :٣٩
(٣) الطبيعة في القران الكريم، كاصد ياسر الزيدي، دار الرشيد ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام - الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات ٢٣٦، ١٩٨٠م، ٤٤٣.

المحاق فإذا عاد كالعرجون) وهذا نثر فني جميل للصورة القرآنية تكشف عن صلة الكاتب بمرجعيته القرآنية وهي مرجعية قادرة على التأثير في المتلقي ايمّا تأثير فوظف هذه الصورة بهذه الشاكلة ليكشف عن تداخله القوي وصلته بالمرجعية القرآنية وتعمقها في نفسه.

ب- الاستعارة

لا يعتمد القران الكريم في التصوير على الصور التشبيهية فحسب ،وإنّما يضمُّ ألوانا أخرى من التصوير تحقق الغاية نفسها بالأداء المُعجز والتأثير بالمتلقي بشكل لطيف جميل وتصويرٍ وإيحاء مؤثر في متلقيه في كلِّ مكان وزمان ، فالصورة الاستعارية القرآنية تسعى لإحداث الأثر النفسي في المتلقي، لتوصيل مقاصد القران وأغراضه وتثبتها في النفس بطريقةٍ جمالية ،فهي تجمع بين الجمال والإيجاز والغرض الديني ،فهي صورة دينية جمالية تهدف لتحقيق الأغراض التي يرمي إليها القران الكريم وفي طليعتها الهداية وبناء الإنسان بناءً رسالياً يؤهله للمهمة الكبرى مهمة الاستخلاف التي يكون خليفة الله في الارض وما اعظمها من مهمة! وقال محمد مفتاح عن الاستعارة "إن أهم ما يشغل الدارسين للغات الإنسانية حالياً هو الاستعارة ،فهي موضع اهتمام من قبل اللسانيين وفلاسفة اللغة والمناطقة وعلماء النفس والأنثربولوجيين ونتيجة لهذه الاتجاهات المختلفة، فإن النظريات حول الاستعارة وتأويلها تنوعت واختلفت"[١] وعرفها الجاحظ (ت٢٥٥ هـ)قال "الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"[٢] فالاستعارة من أدق أساليب البيان تعبيراً وأرقها تأثيراً "وإنّ فضيلة الاستعارة الجامعة تتمثل في أنهّا تبرّز البيان أبداً في صورةٍ مستجدة تزيد قدره نُبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنّك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع، ،ولها في كلِّ واحد من تلك المواضع شأن مفرد ،وشرف منفرد ،...ومن خصائصها التي تذكر بها ،وهي عنوان مناقبها: أنّها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ،حتى تخرج من

(١) تحليل الخطاب الشعري: ٨١
(٢) البيان والتبيين، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون،١/ ١٥٣

الصدفة الواحدة عدة من الدُّرر، وتَجني من الغصن الواحد انواعاً من الثمر...)[١] فالاستعارة تتميز بالجمال فالصورة الاستعارية أجمل من الصورة الحقيقية وتتميز بالإيجاز والإيضاح والجدة ،ويطول بنا المقام لو رحنا نتصدى لتعريفات الاستعارة والقول في أهميتها في التعبير وفاعليتها في التصوير ،ومن الصور القرآنية الرائعة ما جاء على سبيل الاستعارة ويؤكد ذلك عبد القاهر الجرجاني عند كلامه عن فضل الاستعارة وأثرها بوصفها وسيلة من وسائل التصوير البياني أنها "أمدُّ ميدانا وأشد أفتتاناً وأكثر جرياناً وأعجب حسناً وإحساناً ،وأوسع سَعَة ،وأبعد غوراً، وأذهب نجداً في الصناعة من أن تُجمع شعبها وشُعوبها ،وتُحضر فنوناً وضروباً[٢] فالصور الاستعارية في القران الكريم جاءت رائعة الجمال وقد جاوزت الحدَّ في الإبداع والروعة وقد وظَّف ابن أبي الخصال الصور الاستعارية في رسائله، لأنّهُ العالم والفقيه يُدرك لما لهذه الصورة الاستعارية من قوةٍ وجمال وروعة أعطت لرسائله أبعاداً جمالية ودلالية رائعة سمت بالرسالة ومنحتها تميّزاً وسمواً منقطعي النظير.

ومن الرسائل التي وظّف فيها ابن أبي الخصال الصورة الاستعارية القرآنية ما جاء في احدى رسائله الزرزورية قال فيها:

(...لا سَّيما من ادرِجَ القرآنُ بين جنبَيْه، وأرهفَتِ الحِكَمُ من جانبَيْه، وشهد كلَّ نادي خَيْرٍ، ،وأنصَت لَهُ الجِلّةُ كأنَّ على رُؤوسِهِمُ الطَّيْر ولما اشتعلَ الرأْس شيباً، وأظهرت الأيامُ منه غيباً...)[٣].

فالكاتب عوّل على التعبير القرآني البياني واستلهمه وجاء به ضمن سياق إحدى رسائله وذلك تعميقاً لمضمونه النثري وترصيناً لبناء رسائله فقد استدعى الكاتب قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [٤]فابن أبي الخصال لمّا أراد التعبير

(١) أسرار البلاغة في علم البيان ،تأليف الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١ هـ)،تحقيق: عبد الحميد هنداوي ،منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ،بيروت -لبنان ،ط١، ١٤٢٢ هـ /٢٠٠١م،٣٩- ٤٠.

(٢) المصدر نفسه الصفحة نفسها.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال :٢٣٨- ٢٣٩

(٤) مريم :٤

عن الشيخوخة والضعف ووهن القوة فاستعان في إبراز هذا المعنى بالصورة القرآنية التي صورتها الاستعارة القرآنية ببيانها المُعجز، إذ عبرت عن هذا المعنى أبلغ التعبير ففي الصورة القرآنية شَّبه الشيب بالنار في البياض والانبساط فالمستعار منه النار والمستعار له هو المشيب ولفظ الاشتعال هو المستعار والجامع بين المستعار والمستعار له هو مشابهة ضوء النار لبياض الشيب، واسند الاشتعال للرأس وهو لغيره لكنه لم يقل اشتعل شيب الرأس ،وجاء بـا لتعبير المكثف المعجز، طلباً لدقة المعنى وقوة تأثيره وقد أرجع عبد القاهر الجرجاني جمال هذه الصورة القرآنية إلى نظمها قال: "أنه يفيد مع لمعانِ الشيب في الرأس، الذي هو أصل المعنى الشمول ،وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به وعمم جملته ،حتى لم يبق منا لسواد شيء، أو لم يبق منه ألا ما يعتد به ،وهذا مالا يكون إذا قيل :اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس ،بل لا يوجب للفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة"(١).

فما أجمل هذه الصورة القرآنية البديعة التي تثير الخيال وتمس القلب، فوجه الشبه بين النار والشيب ،فالنار حين تندلع فأنها تُسرع في التهام ما تمتد إليه ،وهكذا الشيب لا يكاد يخطُّ الرأس حتى ينتشر فيه بسرعة عجيبة ،وفي التعبير القرآني استعارة رائعة وقد وظفها الكاتب بطريقة مناسبة لنصه وسياقة، وإنّ هذا الاتكاء على التعبير القرآني هو أكبر السمات الكتابية في رسائل ابن أبي الخصال على أنّه يدلنا- بوضوح -على عمق مرجعية الكاتب القرآنية التي شكلت أكبر مدونه نصيّة نهل منها الكاتب ابن أبي الخصال بوصفه كاتباً كبيراً، وقد شفع الكاتب هذا التداخل مع النص القرآني بكناية سائرة مسرى الأمثال في قوله (كأن على رؤوسهم الطير) فضلاً عن أنّ الكاتب يحاول دائماً أن يجيء بالجمل المسجوعة تحقيقاً للثراء الموسيقي على شاكلة قوله ولما اشتعل الرأس شيباً ،وأظهرت الايام منه عيباً) فالكاتب الأندلسي أراد أن يُظهر شيخوخة المتحدث عنه فاستعان بالنص القرآني ليُثري رسالته ويعبر عما أراد هو التعبير عنهُ واردف هذا الاستدعاء بقوله (واظهرت الايام منه عيباً) تحقيقاً لقوة المضمون الذي أراده هذا الدفق الموسيقي المكاني من هذا السجع المثير .

(١) دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي -القاهرة،١٠١.

ج-الكناية

وهي وسيلة من وسائل التأثير ولون من ألوان التعبير غير المباشر عن المعنى.

ويبين عبد القاهرالجرجاني المراد بالكناية بقوله "أن يُريد المتكلم إثبات معنىً من المعاني ،فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ،ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه ،فيومئ إليه ،ويجعله دليلاً عليه (١).

وفي الاصطلاح: وهو لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينةٍ لا تمنعُ من إرادة المعنى(٢) وقال القزويني معرفاً الكناية" رد لفظ أريد به لازم معناه مع جواز ارادة معناه حينئذ"(٣) فالصورة الكنائية القرآنية تمتاز بالإيجاز اللطيف والتهذيب فضلاً عن جمال التعبير الذي يحدث التأثير في نفوس السامعين.

ونظراً لما للكناية من وقع جميل في نفس السامع وتأثير أروع، فقد زخرت آيات القران الكريم بالصور الكنائية الجميلة والرائعة فتؤدي المعنى بأدق صورة وأكمل وجه، ولم يغفل اديبنا-جمالية الصور الكنائية فهرع إلى توظيف هذه الصورة في رسائله فأعطت للرسائل جمالاً وروعة تكشف عن براعة الكاتب وتفننه بالرسائل.

عوّل ابن أبي الخصال على الصورة الكنائية ولنتأمل هذه الصورة الكنائيةِ القرآنية في احدى رسائله في الزرزور قال فيها:

(...الحمدُ للهِ ذي الحكْمَةِ البالغة، والنّعمة السّابغة، الذي اعْتَمَدَنا بالإحسان ابتداءً، وأنشَأنا من نفس واحدة إنشاءً، وجعل منها زَوْجَها تماماً ووفاءً، وبثَّ منهما رِجالاً كثيراً ونساءً...)(٤).

(١) دلائل الأعجاز:٦٦
(٢) المصدر نفسه:٢٨٧.
(٣) الايضاح:٤٥٦
(٤) رسائل ابن أبي الخصال :٣١

إن تأمل المقطع النثري يعود بنا إلى مرجعية الكاتب النصيّة القرآنية وقد سبق ذكر الشاهد في الاستحضار غير المباشر للآيات القرآنية المباركة.

ولابدّ لنا من الإشارة إلى الصورة الكنائية التي اسند الكاتب رسالته إليها، وهذا التعبير الكنائي في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1] ففي النص كناية (خلقكم من نفسٍ واحدة) كناية عن آدم (عليه السلام)وفي هذه الكناية بيان لعظمة الله عز وجل وقدرته، فقد أشار إلى أنّ الخلق بدأ بنفس واحدة هي نفس آدم (عليه السلام)ومن آدم انتشر هذا الخلق (نساءً ورجالاً)وقوله (وخلق منها زوجها) كناية عن حواء (ع) وقد استعان الكاتب في رسالته بهذه الصورة الكنائية القرآنية، إدراكاً منه لمدى جمالية هذه الصورة وروعتها وإلى ايّ مدىً ستبلغ بالرسالة من السمو والدقة والجودة فجاء توظيفه لها بصورة سلسة جميلة، إذ ارتكز النصُّ النثري على هذه الآية القرآنية وشكل مبناه بوجودها، وكان لهذا التداخل النصِّي بين المرجعية الدينية، وما فيها من صور كنائية ،والنص النثري وأثره في بلوغ النص النثري إلى الكمال والجودة الفنية ،فالكناية وسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع ، فالصورة الكنائية تمتاز بحُسن التأثير وروعة التعبير والإيجاز، وقد أدرك ابن أبي الخصال ما للصورة الكنائية من أثر في إغناء النص والإحسان اليه فعمد على تضمينها في رسائلِهِ.

٣- القصة القرآنية

يحيل الفعل((قص)) في القران الكريم إلى معنى الخبر ووصول النبأ والإبلاغ عن واقعة إخبارية [2] وقد تأثر ابن أبي الخصال الأندلسي بالقصة القرآنية ووظفها في رسائله فقد احتلت القصة القرآنية مكانّةً عظيمه، فهي إحدى وسائل الإبلاغ للدعوة الإسلامية وتثبيتها فقد جاءت القصة القرآنية لتحقق أغراضاً عدة منها إثبات وحدانية الله (عزَّ وجل) وبيان عاقبة الخير والشر وعاقبة التريث والعجلة والصبر والجزع [3].

---

(١) النساء:١

(٢) المرجعيات الثقافية الموروثة :٧٣

(٣) التصوير الفني في القران :١٤٣-١٤٤

وكذلك جاءت القصة القرآنية لتثبيت قلب النبي (ص)وتسليته وتصبره بقصص من سبقه من الأمم قال تعالى﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هذه الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) فالقصة القرآنية امتازت بالتعبير القرآني الذي يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني فيما يعرضه من الصور والمشاهد فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية"(٢) ولقد اكتسبت القصص القرآنية قدسيتها من قدسية القران الكريم وهو حقّ لا يدخله الباطل وكذلك قصصه.

"والقصص القرآني ليس عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد؛ بل كانت القصة القرآنية وسيلة من وسائل القران الكثيرة في تحقيق هدفه الأصيل فالقران كتاب دعوة قبل كلِّشي والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها"(٣)

إذن لم تكن الوسيلة الفنية والأسلوب الجمالي مطلوباً لذاته، بل أن الغرض الأسمى هو الغرض الديني والهداية ومن تمّ يأتي التعبير الفني وجمال الأسلوب مندرجاً في هذا الغرض المقدّس والهدف الأسمى.

ولنعرض عدداً من القصص القرآني استحضرها الكاتب الأندلسي وتداخلت في نصوص رسائله الفنية

قصة النبي يوسف (عليه السلام):

ومن القصص التي أشار اليها الكاتب في رسائله قصة يوسف (عليه السلام) "التي مثلت أكثر القصص القرآنية شيوعا في أدب عصري الطوائف والمرابطين والتي أفرد لها القران

(١) هود:١٢٠
(٢) التصوير الفني في القران :١٤٣
(٣) الصورة الأدبية في القران الكريم :٩١

الكريم سورة كاملة، فقد شغلت مساحة ثقافية واسعة في وجدان الشاعر الأندلسي، ومكامن إبداعه الفني"[1] قال في إحدى رسائله:

(...هذا- أَعزّك الله- خَرْقُ الإجماع وشيءٌ لا يلجُ في الأَسماع حتّى يلج الْجَملُ في سَمِّ الخِياط ،وتثبتَ في الذّئب دَعْوى الأسباط وكيف يتعسّف أو يتكلّف من يَدْعُو الحِكَم فلا تتخلّف...)[2].

فالكاتب ابن أبي الخصال عوّل على مرجعيته النصيّة القرآنية العظيمة واستقى منها إشارةً إلى قصة النبي يوسف (عليه السلام) مع اخوته، فقد بنى الكاتب هذا المقطع النثري على هذه الإشارة ،فهو يستحضر آياتٍ وأمثالاً من القران الكريم في رسالته لدلالة الاستحالة ،استحالة وقوع الشيء الذي يتحدث عنه قال (حتى يلجُ الجَملُ في سَمّ الخِياط) وأردفه بقوله (وتثبت في الذئب دعوى الاسباط) فإنّ الذئب بَريء من دم يوسف(ع)وما قاله أخوته افتراء ،فهو لم يأكله فأخذ الكاتب معنى القصة وصاغها بأسلوبه المتميز، فأراد التعبير عن عدم وقوع الشيء الذي يذكره، فأخذ له تعبيراً قرآنيا من قصة قرانيه قال: وتثبت في الذئب دعوى الاسباط، وهذه الدعوة لا تثبت عليها الّا أنها لم تقعْ أصلاً، فما أوسع ثقافته وأقدرها على التحكم بصوغ رسائله على هذه الشاكلة من التميُّز، وهذا التداخل بين النصّ القرآني والنص النثري قد عبرَ أيّما تعبير عن سعة ثقافة الأديب القرآنية ،ومدّت هذه القصة القرآنية عن طريق الإشارة اليها بهذا النحو في الرسالة بألوان من الشحنات الدلالية الموحية والتي ميزت الرسالة وأعطتها صورة فريدة وجميلة .

فإشارة الكاتب إلى الذئب والأسباط، إنما هي إشارة إلى الحسد الذي أصاب أخوة يوسف وقد أشار إلى ذلك في رسالة أخرى قال:

(...رشَقَتهُ السِّهام ورمَقته بعين الَحسادة والأَوهام، وأضرَّ بهِ الكمالُ والتّمام، وحُكِمَ حيث كانَ ومَع مَنْ كانَ باستعِلائه، وقُضِي-ولابُدَّ-باسِتوائه واسْتيلائِه، وذُعِرَ أَهلُ العَجْزِ لغَنائهَ

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي :٧٥
(٢) رسائل ابن أبي الخصال :١٥٣

الحميد وبَلائه ويُغني عَن الاستنباط في التَّناجز عَلى ذلكَ البَساط حديثُ الأَسباط؛ وربّ مُتْحَف بكَ كالآل ِفي رَقْصِه يخافُ كما لَك على نَقْصِه...) (١).

فابن أبي الخصال في هذا المقطع يُشير إلى الحسدِ الذي ترتَّبَ عليه طرحُ يوسف (ع)في الجُبّ من قِبل إخوته، فهو الذي دفعهم إلى هذا الفعل ،إذ أشار الكاتب في رسالته إلى حسد أخوة يوسف له ،فالكاتب عمل على إدخال القصة القرآنية في رسالته، لِما حملته هذه القصص القرآنية المباركة من جمالية رائعة وقوة تأثير، فعمل على إدخالها في نصوص رسائله، وهذا التداخل بين النصوص القرآنية (القصص القرآنية)والرسالة ،سما بها إلى أعلى سُلَّم الرُقي ،فهو يشير إلى القصة ِ القرآنية إشارة ولا يفصل فيها مُتخذاً منها وسيلةً تعبيريةَ تَدْعَمُ مضمون َنصوصِهِ وتضفي عليها قوة الإيحاء والتأثير في المتلقي.

فمثَّلتْ قصة النبي يوسف (عليه السلام)إحدى قصص القران الكريم التي تتعدد فيها الشخصيات والأحداث وحوارُها لين رقيق، وتتوزع فيها عناصر القصة توزيعاً يتطلبه الفن القصصي، فهي موزعة بمقدار ،تظهر وتختفي حسب الظروف الطبيعية وحسبما يحيط بالأشخاص من أحداث(٢) والكاتب أحسن أيمّا إحسان في توظيفه لأحداث معيَّنة من القصص القرآني ليُثري دلالة نصّه ،فالذي دفع أخوة يوسف إلى هذا الفعل والادعاء، هو غيرتهم منه، فأرادوا أن يَحُوْلُوا بين يوسف وأبيه (عليهما السلام) فا تفقوا على قتله وتلطيخ قميصه بالدم وادعاء ان الذئب أكله عندما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم ولكن التلفيق كان واضحاً.

لأنّ القميص لم يكن ممزقاً بأثار أسنان الذئب ،مما جعل النبي يعقوب (عليه السلام) لا يصدّقُهم (٣) فابن أبي الخصال استثمر هذه الأحداث وهي (حسد اخوة يوسف) ودعوتهم أنّ الذئب أكله، ووظفها في رسالته ولكنه نفى كون أنّ الذئب اكله قال (وتثبت في الذئب دعوى الأسباط).

(١) رسائل ابن أبي الخصال :١٧٠
(٢) الفن القصصي في القران الكريم، محمد أحمد خلف، ط٤، ٣١٤ .
(٣) سيكولوجية القصة في القران الكريم، التهامي نقره رسالة دكتوراه جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع،١٩٧١م، ١٦.

قصة النبي موسى (عليه السلام):

ومن القصص التي وردت في رسائل ابن أبي الخصال قصة النبي موسى (عليه السلام) "وهي أكثر القصص تكراراً في القران الكريم "[١] ولقد حضرت في رسائل ابن أبي الخصال وعرجَ عليها الكاتب في الاستقاء منها ومنها ما جاء في إحدى رسائله قال فيها:

(...صَلّى الله على مَن أمَّتْهُ الوُفودُ، وله الحوضُ الْمَوْرُودُ، والمقام المحمُود وعلى تلك الأجداثِ الطّاهِرَة، والعُصبة الزَّاهِرَة، والمآثرِ السَّاهرة إن نازعتك نفسك نفسَ أمَدُها، وعَلتْ يَدُها إلى ذاتِ البَرابِي والأهرام، والآثار العظام حيث ألقي السّحرةُ ساجِدين، وانَقلبَ الكفَرةُ صاغِرين؛ عن الفَيُّوم وخراجهُ، والنيَّل وأدراجُه...)[٢].

فقد اتكأ الكاتب في هذا المقطع النثري على الآية المباركة ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [٣] وفي هذه الآية استحضار لقصة النبي موسى (عليه السلام) ومعجزته إذ انقلبت العصا التي كانت بيده عليه السلام إلى أفعى أكلت الأفاعي الصغيرة التي ألقاها السحرة فما كان منهم إلّا أن يؤمنوا برسالته والقوا سُجداً لله (عزّ وجلّ)فوظف الكاتب هذه القصة القرآنية بشيء من الإيجاز الذي يُغني عن التفصيل والأطناب ،فهذه معجزة ربانية – فدلالة العصا عند القدماء تأخذ أكثر من بعد، فمن أداة للحراسة أو سلاح ،إلى مؤثر للعلم استعمالاً أو أداة عقاب على الذئب، ولكنها جاءت مع موسى معجزةً ربانيةً ورمزاً للعلم ،ومؤشراً لعلم موسى ورسالته وأداةً لمآرب أخرى[٤] فكانت هذه العصا المعجزة التي أذهلت الحاضرين ومن ضمنهم السحرة الذين ما كان منهم الّا أنّ يعلنوا إيمانهم برسالة موسى عليه لسلام، فالكاتب ابن أبي الخصال استمد في توظيفه للقصص القرآني على أخذ جانب من الأحداث القصصية وتوظيفها في نص رسالته ليُغنيها بالوان من الثراء الجمالي والدلالي وتكسبها مزيداً من التكثيف المعنوي.

---

(١) التصوير الفني في القران: ١٤٣

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٤٩

(٣) الأعراف :١٢٠

(٤) ينظر: الشخصية في القصص القرآني، خالد سليمان، رسالة ماجستير جامعة اليرموك، ١٩٩٦م، ٧٦.

فالكاتب بفضل ثقافته القرآنية العميقة يُحسن توظيف النصوص القرآنية في رسائله ويعمل على تداخلها بصورة رائعة تُعطي النص النثري مزيداً من التأثير في المتلقي وتحقيقاً للغرض الذي كتبت من أجله الرسالة

وكذلك عوّل الكاتب على قصة النبي موسى(ع) في أحدى رسائله **[الطويل]** (١):

...وتبقى لِمَنْ أَبْقَيْتَ عهدَكَ إِنَّهُ لَهُمْ كلَّما استَهوَتْهُمُ رَوعَةٌ سَكَنْ
وتحفظُهمْ حِفظَ اليتيمَيْنِ أُيِّدا برَفعِ جدارٍ قد تَداعى وَقد وَهَنْ
وَما ذاكَ بِرّاً بالْجدارِ وعُلوِهِ ولكنْ لكنزٍ تحتَهُ كان مُختَزنْ

إن المتأمل للنص الشعري يلاحظ اتكاء ابن أبي الخصال بشكل أساس على الآية المباركة ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(٢)

فأقام الكاتب النص الشعري على قصة النبي موسى (عليه السلام) مع الخضر (ع) الذي وجد جداراً مائلاً فأقامه بيده فقال له موسى قوم اتيناهم فلم يضيفونا ولم يطعمونا ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾(٣)

"وهذا ما قالوا عنه مجازً بالاستعارة، جداراً يريد أنْ ينقضَّ حيث شبّه ميل الجدار إلى السقوط بإرادة السقوط التي هي من صفات الحي"(٤)

فالكاتب يستحضر هذا الجانب من القصة ليضرب به مثلاً وليعمّق الصلة بين مرجعيته الدينية النصية ورسائله، وهذا التعبير القرآني فريد وجميل ،والكاتب استحضر القصة القرآنية وأعاد نظمها في شعر يكشف عن القصة القرآنية ويثري نصه النثري ويلونه بألوانٍ زاهية من

(١) رسائل ابن أبي الخصال :٢٨٦
(٢) الكهف:٨٢
(٣) الكهف :٧٧
(٤) قصص القران عظات وعبر، سعيد عبد العظيم، دار العقيدة للتراث، ط١، ٢٠٠١م ، ١٧٧.

المدونة النصيّة الكبرى والتي حتَّمتْ عليه هذا التوظيف الراقي والجميل، فالكاتبُ يدرك تمام الإدراك مدى قدرة هذه المرجعية النصية، والتي تمثلت بالقصص القرآني ،على التأثير في المتلقي وإيصال الفكرة التي أرادها الكاتب والغرض الذي قصد بأيسر الطرق والسبل.

قصة النبي عيسى (عليه السلام):

قال ابن أبي الخصال في إحدى رسائله: (...وفرعٌ في النُّجوم نابت أُكْلُكِ نجيعٌ، وثُكلكِ وجيعٌ وَردَ الكتابُ بتفضيلك، وانفردَ المؤمنُ بتمثيلكَ، هز جذعٌ مِن جُذوعكِ لابنِ البَتُول فتهافتَ وارْجَحَنَّ...) (١).

فالكاتب يعود إلى مرجعيته القرآنية ، ويستقي منها قصة من قصصها الرائعة، وعاد إلى معجمه اللغوي ،فعبر عن القصة بأسلوبه فعمل هذا التداخل النصي على إثراء النص وتقويته، وهذا الاستحضار للقصص القرآني يشي بقدرة الكاتب الأندلسي وتمكنه من فنه وتصرّفه فيه ، فالكاتب في هذا النّص النثري يعّرج على الآية المباركة ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(٢) إذ يستحضر النصّ القرآني وينثره على طريقته وبما يتناسب مع رسالته (وهز جذع من جذوعك لابن البتول) وهذا المعنى قرآني استمده الكاتب ووظفه على نحوٍ جديد ليُكسب رسالته رونقاً وجمالاً بهذا التداخل، فللقصص القرآني قدرة عالية في التأثير بالمتلقي لما تحويه من أخبارِ الأمم الماضية وما في هذه القصص المباركة من عظات وعبر لها القدرة على التأثير في متلقيها ،وإنّما النص الذي استحضره وتداخل معه لكي يوصل فكرته الى متلقيه عبر هذا التداخل مع الفكرة القرآنية أو الواقعة أو الحدث القرآني.

فيعود الكاتب إلى الآخذ من القصص القرآني وسير الأنبياء لإغناء الرسالة وإنمائها، فللقصص القرآني طابع وأُسلوب خاص به وله قدرة على التأثير في المتلقي وإيصال الافكار التي أراد الكاتب ايصالها بسهولةٍ ويُسرٍ ، فعلام يدلُّ هذا التداخل الفنّي الآسر مع نصوص القران الكريم ؟إنّه يدلُّ على عمق مرجعيته الدينية وسعتها واهتمامه اللافت بالقران الكريم

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٠٧
(٢) مريم:٢٥

معاني وصياغة وأسلوباً وتصويراً وقصصاً وما إليها ،لذا رأينا مصداق هذا الاهتمام ماثلاً في كلّ ما تقرأ من رسائله التي عُدّت عنواناً لإ نتاجه الأدبي ومَعْلَماً بارزاً من معالم أدبنا العربي في القرن السادس الهجري .

قصة أهل الكهف:

ومن القصص التي وردت في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي قصة أهل الكهف ،لما في هذه القصة من دروس وعبر وموعظة للمؤمنين ،وهي شاهد على عظم قدرة الله عزّ وجلّ، ومن ذلك ما قاله في رسالة جوابية إلى ابن عبدون (...ومَدّت ساخِرةً بِطرْفٍ غَضيض؛ فَبَصُرَتْ في البِيد بذات الْهَبِيد واسطةً في الْمَهْوى البعيد، باسطةً ذِرَاعَيْها بالصَّعيد، فَبادَتْها عالمةً بقصورها ونادتها ظالمةً بِغُرورها...) [1].

عرج الكاتب على مرجعيته النصيّة القرآنية واستحضر منها قصة أهل الكهف وأشار إليها إشارة أوردها من معنى الآية المباركة ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾[2].

فلما أراد الباري (عزّ وجلّ) بيان الهيئة فاستعمل "اسم الفاعل (باسط) ولم يستعمل الفعل المضارع الذي يفيد التجدد، لأن الغرض بيان هيأة الكلب الذي لم يبدُ منه حراك وهو في فناء الكهف، لا بيان مزاولته لفعل البسط، فاستعمال الاسم الذي يفيد الثبوت مناسب للمقام"[3] والكاتب يستقي من مدونته النصية الدينية فيضفي على رسائله نوراً من لألىء هذه المدونة العريقة وهذا الاستحضار العميق والتداخل القوي مع المرجعية الدينية يولدِّ قوة تأثير للنص ويحقق إنتاجية عالية ويجني أينع الثمار التي نتجت بسبب التداخل والتناص الرائع.

قصة النبي سليمان والنبي إبراهيم (عليهما السلام):

وقد جمع ابن أبي الخصال بين قصتي النبي سليمان(ع) والنبي ابراهيم(ع) في إحدى رسائله التي قال فيها: (إما أن فِطَنَ الهُدهُدِ مَمدوحَة وفيه لهذا الزِّيِّ أحمله مندوحة، ساقي

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٣٠٦-٣٠٧
(٢) الكهف :١٨
(٣) دلائل الأعجاز: ١٧٥

سُليمانَ- صلوات الله عليه- إذا عَطِشَ، وسفيرُه مَهْما أرادَ أنْ يبطِش جاءَ من سَبَأ بنبإ يقين، وأنكَرَ سجودَهم للشَّمسِ إنكار المُتَّقين وتخلَّص من العقابِ والعِتاب؛ وشارَكَ في السُّرعةِ الذي عندَه من عِلّم الكِتاب والله هو طَليعةُ جَيْش، ورائِدُ عَيْش، وما أَخلق جناحَه بُرَيْش، وأَجدرَ سامِعَهُ بطَربٍ وطَيْش وأَحراهُ بتَمزيقِ ما يلبسُه مُن يَمَنةٍ أَو خَيْش .... ثم يكمل الرسالة شعراً **[السريع]** (١):

هذا سليمانُ على مُلكهِ ... والجِنُّ والإنسُ له حُشَّدُ
والطَّيرُ في الآفاقِ محشورَةٌ ... والرّيحُ؛ كلٌّ عاملٌ يجهَدُ
لم يُفْتَقَدْ منهم سِوى هُدْهُدٍ ... ومثلُهُ في مثلِها يُفْقَدُ
فجاءَهُ من سبإٍ بالَّتي ... كالشَّمسِ كانتْ أُختها تعْبدُ
فاستبدلَتْ مِنْ نارِها جَنَّةً ... نعيمُها متَّصِلٌ سرمَدُ
شرَّفهُ الله بما قصَّهُ ... في وَحْيِهِ والوحيُ لا ينفد
هل عرفَتْ بِلقيسُ معروفَهُ ... وكيف لا؟ كيفَ بهِ تجحَدُ؟
ومَا الَّذي يَنْقمُهُ خالدٌ ... من أُمَّةٍ أَرْشَدها هُدْهُدُ
وحِكمةُ الرَّحمنِ مبثوثَةٌ ... وكلُّ مخلوقٍ به يَشْهَدُ
تباركَ اللهُ وسبحانَهُ ... مِاهِيَ ألَّانعمةٌ تُحْسَدُ
قد قتَلَتْ نمرودَ في ملكِهِ ... بعوضةٌ كانَتْ له تُرصَدُ
لم يستطعْ والأرضُ في خَتْمِهِ ... أضعفُ مخلوقٍ لَهُ يَعْمِدُ
تَغلغلَت في رأسهِ حِقبةً ... فلم تنَلْها حيثُ جالَتْ يَدُ
واللهُ قد عاتَبَ في نَملةٍ ... نبيَّ صدقٍ هديُهُ يُحْمَدُ

لقد عوّل الكاتب في رسالته الشعرية هذه على قصتي النبي سليمان وذكر منها الهُدهد وبلقيس

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣

وبلقيس من النساء اللاتي ورد ذكرهن في القصص القرآني ولم تذكر بالاسم في القران الكريم بل اشير اليها ﴿امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ فهي ملكة قيادية استطاعت الاهتداء إلى الإيمان بفضل حكمتها ورجاحة عقلها واستطاعت انقاذ وطنها من الأخطار[١] وذكر الكاتب الهدهد الذي ورد ذكره في الكتاب الحكيم في قوله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [٢]فاستطاع الكاتب بفضل ما أوتي من سعة الثقافة والبراعة الفنية ان ينظم شعراً يرتكز أساساً على القصص القرآنية ليضرب مثلاً لعمق صلته بمدونته النصية، فهنا الملك والنبي العادل يتفقد رعيته وإنه ليغضب لمخالفة النظام والتغيب بلا إذن[٣].

ثم يتعرض ابن أبي الخصال إلى قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام قال ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فالكاتب قد أحسن استحضار القصة القرآنية وصوغها بتفنن عالٍ بفضل ما أوتي من ثقافة دينية واسعة مكنته من هذه الصياغة الجديدة للقصة القرآنية والحفاظ على تسلسل أحداثها، فهو يعرض قصة النبي سليمان ومن ثم يعرض قصته مع الهدهد وهو ما أراده الكاتب الذي رأى من المناسب استحضار هذه القصة التي كان أحد ابطالها (الهدهد).

والهدهد بوصفه شخصية قصصية قرانيه غير بشرية قد بناها القران بناءً فنياً محملاً بالدلالات وكثافة الإشارة وعمق الحوار ومن كلّ هذا استفاد الكاتب واستطاع ان يدخله في نصه النثري ، فرأى من المناسب ذكر قصة هذا الطائر وكيف كان له الفضل في هداية الأمة للإسلام فهو أحق بالتخليد من غيره من أنواع الطيور وقد أحسن الكاتب الإشارة إلى القصة القرآنية بإيجاز جميل، ونظم رائع يكشف لنا عن كاتب مبدع بالشعر ونظمه إلى جانب النثر ،فقد عمل على ارتكاز نصه على المدونة الدينية التي أمدت النص بكل هذه القوة والروعة ، فالنص القرآني في هذه الرسالة شكل مرتكزاً ارتكزت عليه الرسالة، وما كان لها ان تبلغ

(١) الشخصية في القصص القرآني، خالد سليمان ،١٠٢
(٢) النمل :٢٠-٢١
(٣) الصورة الأدبية في القران الكريم، ١٠٣

مراتب العلو لولا هذا التداخل الديني الخلاق مع المرجعية النصية القران الكريم متمثلاً بالقصص القرآني فكلّ النص(الرسالة)قد استند إلى قصص القران الكريم .

ومن ثم يعرض الكاتب قصة النبي ابراهيم(عليه السلام)وكيف كانت عاقبة نمرود الذي إدعى انه رب لعالمين، فكان عقابه انه سلط عليه أضعف المخلوقات وهي البعوضة فتغلغلت في رأسه فأطاحت به ،وهو الذي يدعي الربوبية واستحضر ابن أبي الخصال في إحدى رسائله قصة النبي ابراهيم (عليه السلام)

(...واذكُروا مقامَ أَبيكم إبراهيم حين استَقْبَل في مِثْلِ يومكم هذا الخطبَ البَهيم ،وقد اسْتَسلم للبَلاءِ المبين، وتلَّ واحِدَهُ للجَبين، وانْتَضى مُدْيَته باليَمين، ورأى الموتَ عَيْنَ اليقين، فلولا عَزْمٌ صَدَق، وكتابٌ من اللهِ سَبق لعَصى رِقّة قَلْبه، ومَضى على طاعةِ رَبّه، وأَنحى على صَميمه، وقطعَ في ذاتِ الله رَحِمَ حميمه، فجازاهُ اللهُ على التّصميم والتسليم، وتَلَقّي أَمْرِه بقلبٍ سَليم، وفَداهُ بِذبْحٍ عَظيم، ونودِي وهو بالكرامة والسَّلامة يُحيّا: أَنْ يا إبراهيم قد صَدّقْتَ الرؤيا وكذلك يجزي الله المحسِنين ،ويُوفّي بغير حسابٍ أَجْرُ الصابرين ،يستخرج لهم من المِحن مِحناً، ومن التَّرح فرَحاَ، ومن الشدَّة والضيق ليناً ومُنْفَسحاً...)[1]

نلاحظ ارتكاز المقطع النثري على قصة النبي إبراهيم، فقد استحضر قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[2] وقوله تعالى ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[3] فالمتأمل للنص النثري يلحظ مدى الارتباط العميق بين النص النثري والنصوص القرآنية (القصص)إذ يرتكز هذا المقطع بشكل كلّي وأساسي على قصة النبي ابراهيم (عليه السلام) فيورد الكاتب قصته بإيجاز ويذكر قصته مع ابنه اسماعيل(عليه السلام)والرؤيا التي رأى فيها نبي الله ابراهيم (عليه السلام) انه يذبحه ففدي بكبش عظيم ، فالكاتب يستحضر القصة القرآنية ويستمد من مواعظها وعبرها ليكسب نصه ثراءً لغوياً ودلالياً وجمالياً، فالمتأمل يُعجب من هذا الالتحام بين الخطابين النثري والقرآني

(١) رسائل ابن أبي الخصال :٥٧١-٥٧٢
(٢) الصافات :١٠٣
(٣) الصافات:١٠٥،١٠٦،١٠٧

حتى إنك تبهر من هذا المزج الذي لم يَدَعْ فاصلاً بين البنية القرآنية وبنية الكاتب الأندلسي في رسائله، إذ شكلت البنية القرآنية سُدى الخطاب ولحمته، وبهذا حقق الخطاب الجديد عناصر التأثر والشعرية التي تحسب لهذا الترسيل الذي عُرف بترسيل ابن أبي الخصال.

قصة النبي يونس(عليه السلام):

وذكر ابن أبي الخصال قصة النبي يونس(عليه السلام) في رسالته في الزرزوريات قال :فسُبحانَ مَنْ أَعْطى كلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَدى ،...والأَرْوَى في بُعْدِ مَصامِها ، وَقُلَلِ اعتِصامها ، كالنَّعام في إسهالها وقُربِ مَرامِها والضَّبُّ في غيابَةِ حُجرِه ، كالنُّونِ في لُجَّةِ بَحْرِه...)[١] .

فقد وظَّف ابن أبي الخصال قصة النبي يونس(عليه السلام)وما في هذه القصة من عبر وعِظات وما فيها من إشارة إلى معجزة النبي يونس والذي أنجاه الله(عزَّ وجلَّ)من بطن الحوت عندما التقمه واستقر في جوفه وبقي حيّاً لم يؤذه الحوت وهو يُسبحُ لله إلى أن أنجّاه [٢].

قصة النبي آدم (عليه السلام):

ومن القصص التي اشار اليها ابن أبي الخصال في رسائله قصة النبي آدم (عليه السلام) فقال شعراً **[الكامل]**:[٣]

أَو بارحٌ نضحَ النَّدى في رَوْضِةٍ ... فأَثارَها وسَرى عن الأَحدَاقِ

ولقد جَلَوْا والله يُدْرَأُ كَيْدَهُم ... فَتَّانةَ الأَوصاف والأَعراقِ

أَغوى بها إبليسُ قِدماً آدماً ... وهي السَّريرة في هواها الباقي

تاللهِ أَصْرِفُ نَحوَها وَجهَ الرِّضا ... لو شُعْشَعتْ بِرِضا أَبي إسحاق

وقد استحضر ابن أبي الخصال قصة النبي آدم مع ابليس ، وما في هذه القصة من نزاعٍ

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٣٥

(٢) إثر القران في الشعر العربي منذ الفتح وحتى سقوط الخلافة ، محمد شهاب العاني ،دار دجلة ،ط١ ،٢٠٠٨م ،١٣٩.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٦٥٢-٦٥٣

بين الخير والشر والغرائز الفاضلة والشريرة [١]قال تعالى قال اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[٢] فالقران الكريم ذكر قصة آدم وكيف أنَّ ابليس أبى السجود اليه فأستحق الطرد من رحمة الله، لما في نفسه من تكبر وعصيان امر الله، وقد ذكر القران الكريم القصة تحذيراً لبني آدم من الاستجابة لإبليس، لأنه عدو مبين لهم، والكاتب بفضل ما أوتي من ثقافة دينية وثروة لغوية واسعه ، استطاع أنْ ينظم القصة القرآنية شعراً ويشير اليها بإيجاز لتكسب رسالته الفائدة والنفع للمتلقي .

ولابدّ للباحثة أن تنوَّه أن النثر الفني عامة له إيقاعُ يختلف كل الإختلاف عن إيقاع الشعر المعتمد على عناصر غير موجودة ومتوافرة في النثر، وقد أطلعنا على أن ارسطو قد فرّق بين الوزن والإيقاع فللشعر وزن يساعد على ظهور الإيقاع ، بيد أنّ للنثر ايقاعاً ينشأ في وجود بعض" المحسنات البديعية التي تساعد على جعل النثر موسيقياً وهي الطباق والمضارعة وتساوي المصاريع "[٣]

وما أكثر هذه الأشكال البديعية في رسائل الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال ، بمعنى أنّ محسناته البديعية -التي وقعنا عليها- هي التي أسهمت في جعل رسائله ذات إيقاع لافت ولها اكبر الأثر في جعل الإيقاع النثري يسهم في شعرية رسائله وقوة توصلها[٤] .

فالايقاع النثري متوافر وبشكل مكثف في رسائل ابن أبي الخصال كلها وفي اغراضها كافةً ، وليس خافياً ما لهذا -الإيقاع النثري-من أثر على المتلقي ،إذ إن موازنة الكلام وهذا الازدواج والجناس الهائل والسجع اللافت كل ذلك خلق خصائص ايقاعية عزّزت من شعرية

(١) الفن القصصي في القران الكريم:٤٣٨

(٢) طه:١٢٣

(٣) تلخيص الخطابة : أبو الوليد بن رشد (ت٥٩٥ هـ)، تحقيق وشرح محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،لجنة احياء التراث الإسلامي- القاهرة ،١٩٦٧م ،٥٨٨.

(٤) ينظر : سحر النص- قراءة في بنية الإيقاع القرآني – الدكتور عبد الواحد زياره اسكندر المنصوري ،الفيحاء للطباعة والنشر ،ط١، ٢٠١٣م، ٤٢ .

النصوص لما تلذ له الاسماع وتطيب لوقعه النصوص وتضع المتلقي في جوّ النص ومدياته الدلالية .

وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الواحد زيارة المنصوري : "إن اعتماد الموازنة بين الجمل والعبارات في الأسلوب النثري ،هو ما يمكن التعبير عنه بوزن النثر ، وهذا يختلف -بالأساس- عن وزن الشعر لعدم الانتظام ، فتفعيلات الوزن الشعري -كما هو معلوم- منتظمة ومتساوية- سواء أكان الشعر يعتمد على نظام البيت أو نظام السطر الشعري -يعطي ايقاعاً رتيباً محكوماً بزمن يشبه -الى حد كبير -نقرات الموسيقى المنتظمة بالايقاع ، في حين نرى إنَّ وزن النثر معتمد على تساوي الفقر والتسجيع ، ويعتمد على الموازنة والمناسبة والتعادل يعطي ايقاعاً غير محكوم بزمن منتظم "(١).

ولاحظت الباحثة أنّ إيقاع رسائل ابن أبي الخصال كثير التنوع فليس ثمة شكلٌ إيقاعي واحد، ولعّل هذا يحسب لرسائله كما يقول باحث عربي "لأن إيقاع النثر الجديد كثير التنوع"(٢) لأن الكاتب ذا حرية وسيعة فينطلق تعبيره لما سيأتي من أفكارٍ ومعانٍ غير محكوم بالرتابة الوزنية الصارمة .

(١) سحر النص- قراءة في بنية الإيقاع القرآني:٤٥-٤٦

(٢) الوزن والقافية والشعر الحر : ع.س فريزر -ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤه من موسوعة المصطلح النقدي ،دار الرشيد ،بغداد ، ١٩٨٠م،١٣ .

المبحث الثاني

الحديث النبوي الشريف

توطئة:

يُعد الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني الذي عوّل عليه الكتاب والشعراء الأندلسيون في صياغةِ أنتاجهم الأدبي وتعميق مضامينهم وترصين مبانيهم، وهو أجدر المكونات إذ يُعد الحديث النبوي الشريف أحد المكونات الثقافية للأندلسيين فعادوا اليه وأغنوا رسائلهم بلفظه ومعناه وفصاحته ، وقد عرف الأندلسيون بكثرة مُطالعته وحُفظهم للحديث النبوي الشريف وأولعوا به ولعاً شديداً ولَقي الحديث النبوي الشريف اهتماما من الأندلسيين ...

ومن المعروف أن حديث رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بوصفه أقوى ركائز السنة النبوية اضطلع بتفصيل ما جاء مُجملاً في القران الكريم؛ لأن كلام رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بوصفه أقوى ركائز السنة النبوية هو كلام الله (عزّ وجلّ) ولكن بلغة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) لذا نَزل قولهُ تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1] هذه المرتبة العظيمة التي مُنحت للحديث النبوي الشريف ترفعه إلى مرتبة التقديس فهو نصّ مقدّس لا يدنو من الشبهة ولا يتطرق اليه الشك، وأوامره ونواهيه لابدّ أن تُراعى بكل دقة وإحكام، فضلاً عن بلاغته وجود ة أسلوبه كأنه السهل الممتنع، وعمقُ معانيه، كلٌّ هذا حدا بالشعراء والكتاب أن ينهلوا من معينه الذي لا ينضب ، فكيف بنا اذا كان كاتبنا فقيهاً مُتبحراً بالكتاب والسنة ينسجُ على منوالها وينهلُ من بحرها الزخار.

وهكذا كان شأن الكتاب والأدباء يميلون إلى استدعاء الأحاديث النبوية الشريفة، فالأديب الأندلسي -شاعراً كان أم ناثراً – يستعين بمخزونه الثقافي ولا سّيما مرجعياته النصيّة – المدونة- فيستحضرها أفكاراً ومعاني ولا سيّما المرجعيات النصية الدينية، ولعل ابن أبي الخصال يقف في طليعة أولئك الذين زخرت نتاجاتهم الأدبية بالأثر الثقافي بسبب سعة

(١) النجم :٣-٤

اطلاعهم وعمق مرجعياتهم وكان لثقافته الدينية أبلغ الأثر في مدّ كتاباته بهذا التداخل الفني بين انتاجه الأدبي النثري وبين مفاصل مرجعياته النصيّة.

وعلى صعيد الحديث النبوي الشريف فقد عوّل الكاتب عليه تعويلاً واضحاً، لما عرف عنه من اهتمام بالقران الكريم والسنة النبوية الشريفة ، لذا نلاحظ كثرة استناده إلى أحاديث رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) معنىً والفاظاً وتراكيب، وستقف الباحثة عند مواضع تأثر ابن أبي الخصال بالحديث النبوي الشريف وفنية توظيفها في سياقات رسائله ومناسبتها ،وعليّ أن أتأمل معنى الرسالة وسياقها وهدفها ودقة الكاتب في تداخلهِ مع نصوص الحديث النبوي الشريف تداخلاً مباشراً او إشارياً، لنلحظ مدى دقة الكاتب في هذا التوظيف ، لأن التداخل النصّي أو الفاعلية التناصية مع مرجعيات الأديب النصيّة تتوقف جودتها على قدرة الكاتب في استلهام النص أو الأثر المستحضر وتوظيفه في صوغ مناسب لتشكيل إنتاجية تناصية .

الحديث في اللغة والمفهوم الاصطلاحي:

الحديث لغة: حُدوثاً وحَداثَةَ نَقيضُ قَدُمَ، وتُضم دالُه إذا ذكر مع قَدُمَ وحِدثان الأمر بالكسر اولُه وابْتداؤه، كحَداثتهِ [١].

وجاء في مقاييس اللغة الحديث: كلامٌ يحدثُ منه الشيءُ بعد الشيء [٢]

ومادة (حَدَث) تدور حول معنىً واحد هو كون الشيء بعد أن لم يكن[٣]

والحديث يُطلق على كُل كلام يتحدث به كقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [٤] وقوله تعالى ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [٥]وجاء في مختار الصحاح: الحديثُ: نقيض

(١) القاموس المحيط :١٦٧
(٢) مقاييس اللغة، لابي الحسين احمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطاعة والنشر، ٣٦/٢.
(٣) الحديث النبوي (مصطلحه -بلاغته- كنيه)، محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، ط٤ ،١٩٨١م، ١٤١.
(٤) النساء:٨٧
(٥) الطور: ٣٤

القديم، يقال أخذني ما قَدُمَ وما حَدُثَ، والحديثُ: الخَبرُ، يأتي على القليل والكثير، ورجل حَدَثٌ، أي شابٌ فان ذكرت السن قلت: حديث السنّ ورجل حَدُثٌ وحَدِثٌ بضم الدال وكسرها، أي حسن الحديث، والأحْدوثةُ ما يُتحَدثُ به(١).

الحديث اصطلاحاً: وهو ما أُضيف إلى النبي (صلى الله عليه واله وسلم) من قولٍ أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خُلقية أو سيرة سواء أكان قبل البعثة أو بعدها) (٢).

والحديث: هو القول المأثور عن الأنبياء والرسُّل وقد أختص به التحول الذي أُثر عن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وأصبح الحديث علماً من العلوم الدينية التي تدرسها المعاهد الإسلامية وأقسام الإشراف الأجنبية (٣).

إذن فالحديث هو كل ما أُثر عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) من أقوال خاصة وهو مكمل للقران الكريم ومفصّل لمجمله، فالقران الكريم يأمر بالصلاة وإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً والأمر هنا مجمل والحديث النبوي يبين أوقاتها وكيفيتها ويطلق على هذا السُّنة النبوية (٤) والحديث النبوي الشريف شَّكلَ مدونةً نصيّة كبيرة يرجع اليها الفقهاء والعلماء والباحثون، فضلاً عن أنَّ الأدباء قد نهلوا من معينها بحسب ثقافتهم وقدراتهم الفنية في توظيف النصوص المُستحضرة من هذه المرجعية.

وابن أبي الخصال هو الأجدر بالاستدعاء والتداخل النصّي بين ما أنشأه من رسائل وبين مرجعيته النصيّة الحديثية، لسعتها كل شؤون الحياة من جهة ولعمقه هو وصلته بنصوص الحديث النبوي الشريف من جهة أخرى.

فالكاتب الأندلسي - وفي ضوء ثقافته الحديثية الوسيعة - قد تداخل مع نصوص الحديث النبوي الشريف في كثيرٍ من رسائله ومنها ما قاله في إحدى رسائله:

---

(١) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، بيروت،١٩٨٦م، ٥٣.

(٢) المقترح في علم المصطلح، ابراهيم بن ابراهيم قريبي، مكتبة الرشاد، صنعاء، ٢٦.

(٣) معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب: ١٤٥

(٤) المصدر نفسه الصفحة نفسها

(... أيها البدرانِ المُتَّسِقان، والغُصنان المعتنقان والكفان المُنتظمان، على سُنَّةِ الإيمان وطاعة الرحمن، على البركة والخير، وبأسعدِ جَدٍّ وأيْمَنِ طير، وبالرِّفاء والبنين، وتوالي خِصب السِّنين، وتَخليف الثمانين، وبُلوغ المئين؛ بالصُّحبة تدوم وتؤدم، بالسُّرور يوجَدُ ولا يُعدَم؛ بالاتِّساق والاتِّفاق ...) (١).

فاستطاع الكاتب ابن أبي الخصال، وبفضل ثقافته الواسعة، استحضار حديث نبوي شريف ليُغني النص ويُثريه فوظف الحديث بوساطة استحضاره لكلمة (يؤدم)* المركزية في النص وما يؤكد ذلك مناسبتها لموضوع الرسالة، والذي يتحدث عن المصاهرة فأخذ الكاتب هذا اللفظ وأدخلهُ في سياقِ رسالته ، وجعلها إحدى مرتكزات النص الذي يوحي بالعلاقة الطيبة والحياة السعيدة التي يحث عليها الإسلام.

فالحديث في المغيرة بن شعبه أنه ذكر امرأة لرسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وأنه يخطبها فقال له رسول الله (ص) ((انظرْ إلَيْها فإنه أحرَى أنْ يؤدَم َبينكُما)) (٢).

فالكاتب عوّل على مرجعيته الدينية (المتمثلة هنا بالحديث الشريف) ليأخذ منها لفظاً مباركاً ويَثبتهُ في سياق رسالته ،ليكشف عمق التداخل بين الرسالة ولاسّيما في حديثه عن الزواج والمصاهرة، وبين مرجعيته النصية المتمثلة بالحديث النبوي الشريف وما بينه في هذا الشأن من جواز النظر إلى المرأة إذا أراد الرجل خطبتها، والكاتب يَسْتحضرُ الكلمة النبوية المباركة في نصّهِ فيقول (بالصحبة تدوم وتؤدم) والمستحضر من حديث رسول الله(ص) وإن كان -هنا- كلمة واحدة الا أنّ لهذه الكلمة ابعد الأثر في صياغة النص وتوجيه دلالته في رسالة الكاتب الأندلسي ، فهذا الاستدعاء للحديث النبوي الشريف حقّق فاعلية إنتاجية عالية في إنماءِ النص النثري، وهذا التداخل المناسب بين الحديث النبوي والنص النثري يكشف عن براعة

(١) رسائل ابن أبي الخصال :٣٣

* تدوم المودة بين الزوجين

(٢) الجامع الكبير، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١ ،١٩٩٦م، ٣٨٣/٢ رقم الحديث ١٠٨٧.

الكاتب وحُسن توظيفه للحديث ومدى أبداعه الفني ،وتفوقه فهو يُعيد توظيف الإبداع الحديثي في نصهِ ليُلبسه حلة جديدة ويبعثهُ بعثاً آخر يُسهم في إنماء النص وإثرائه .

ولا شك في أنّ هذا التوظيف المتمكن يدل دلالةً واضحة على ما يتمتع به الكاتب من ثقافة عالية وتعلق بالمرجعية الحديثية ،ما سهل له هذا التشكيل ليُنتج نصاً نثرياً ويحقق فاعلية عالية.

ثم يُكمل الكاتب رسالته إلى أن يقول:

(...ووُزِنت الأَقوالُ والأعمالُ، وانتظم في سلك العدل المالك والمملوكُ، واستَوَت السُّوقةُ والملوك، وأصبحت الجروحُ قِصاصا، والحقُّ عموماً لا اختصاصاً....) (١)

هنا توظيف لافت للثقافة الإسلامية وتطويعها في إثراء رسالته فيتحدث الكاتب عن الاسلام وأنه جاء بالمساواة بين المسلمين، وساوى بين الغني والفقير، وبين العبيد والملوك فهو يأمر بالعدلِ وعندما جاء الإسلام أصبح القصاص عادلاً فالكاتب يستمد معاني النص النثري من قول الرسول (صلى الله عليه واله وسلم)

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ، تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا)) (٢) .

فأراد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) أنْ يبين أنَّ الدستور الذي جاء به الإسلام يأمر بالعدل والمساواة فهذا الحديث الشريف يُشير إلى العدالة الإسلامية، والعدل -كما هو ثابت عند المسلمين كلّهم -هي الأصل الأول من أصول الدين الإسلامي الحنيف.

فالرسول الأكرم(صلى الله عليه واله وسلم) يقول لو أن فاطمة (عليها السلام) -وهي المنزّهة عن الأخطاء -سرقت لقطعت يدها ... لاقتص منها وهي أقرب الناس إليه وأحبّهم إلى

(١) رسائل ابن أبي الخصال :٣٣

(٢) شرح صحيح البخاري، محمد صالح العثيمين، المكتبة الإسلامية، ١١٢/٩ و تيسير الوصول إلى جامع الاصول من حديث الرسول، عبد الرحمن الزبيدي، تصحيح محمد حامد الفقي، المكتبة الإسلامية، ط١ ، ٢٠٠٨م، ١٤/٢.

قلبه ليضرب مثلاً بالعدالة الإسلامية والمساواة في تنفيذ القصاص وعدم التفريق بين الغني والفقير والقوي والضعيف، فابن أبي الخصال الكاتب الفقيه العالم ذو الثقافة الدينية الواسعة يتكئ في نصه النثري على الحديث النبوي الشريف، ويُضمن رسالته شيئاً من المبادئ الإسلامية التي حضَّ عليها ودعا المسلمين إلى ترك العادات الجاهلية القديمة من جعل القصاص مُقتصراً على الضعفاء فقط، فالكاتب استطاع -وببراعة فائقة- ان يُدخل هذا المضمون الإسلامي وهذه المبادئ السامية التي تخصّ العدل – الذي أمرنا الله به- في نصه لينتج لنا نصاً مشحوناً بالإيمان والحثّ على الالتزام بالمبادئ التي جاء بها الإسلام .

فالكاتب في استحضاره للنصوص النبوية المباركة، لم يكن غرضه ذكر النصوص فقط، بل أراد إكساب رسالته مزيداً من التأثير وقال محمد مفتاح في هذا الصدد "ان استحضار الكاتب للنصوص القرآنية أو الحديث النبوي الشريف بالطرق المختلفة لم يكن استحضاراً شكلياً بل سعي نحو التوظيف والاستقدام الدلالي وسعي نحو قصدية مرجوة ومبتغاة لم يكن الغرض منها التزيين فقط ،فالنص ليس عملاً إبداعياً فقط إنما هو مدونَّة أو حدثٍ كلامي ذو وظائف متعددة "[1] فقد هيمنت الثقافة الدينية وبرزت بشكل واضح وجليّ في رسائل ابن أبي الخصال وهو يستحضر الحديث النبوي في هذا المقطع بلمحة تُذكّر المؤمن بالأحكام التي جاء بها الإسلام وما أقرّهُ من المساواة بين الناس والاقتداء بالنبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم)قائد هذه الأمة إذ قال: (لا فرق بين عربي وأعجمي الّا بالتقوى) وهذا المبدأ الذي سار عليه الإسلام في التعامل مع الناس .

واستدعى الكاتب ثقافته الحديثية في مخمسة له نظمها بأبي أسحق إذ قال فيها: [2]

[البسيط]

الـدَّينُ جِسـمٌ باسـقُ القـَدَرِ وإن أَلَـم بِعُضْـوٍ منـه ذي خَطَـرِ

داءٌ تَضـعضـعَ بالْحُمَّى وبالسَّـهرِ فانظرْ وفي الجسـمِ مَدْعاةٌ إلى النَّظرِ

فإنَّمـا الغَـوْثُ قبـل الفـوتِ والعَطَـبِ

(١) تحليل الخطاب الشعري :١٢٠

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٨

ولمَّا كان كاتبنا ذا ثقافة إسلامية عميقة وتربطهُ صلة شديدة بمرجعيته النصية الحديثية فما كان منه الّا أن يعود إلى هذه المرجعية العريقة ليرفد رسائله بشيءٍ من جواهرها وبلاغة نظمها وفصاحتها، فالكاتب قد افاد في هذا المقطع من المخمسة من قول رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)

((تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْو تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى)) (١).

فإن هذا الاستحضار للحديث النبوي الشريف قد أثّر تأثيراً كبيراً في بناء النص النثري فالحديث النبوي هو لُب هذا المقطع من المخمسة، وابن أبي الخصال تصرف في الحديث وصاغة بتفنن رائع يختلف عن الشكل الذي ورد فيه إذ أعاد توظيف الحديث با بداعٍ وهذا يُحسب لثقافة الكاتب وليدل على عمق مرجعيته الحديثية وتمكنه منها فقال (الدين) بدلاً من (الجسم) فان الدين كمثل الجسد الواحد اذ لا ينبغي الأيمان ببعض مسائله وترك بعضها الآخر.

فالرسول شبّه المؤمنين كمثل الجسد الواحد وابن أبي الخصال شبه الدين بالجسم الواحد وفي كلّ هذين النصين كان للتشبيه مزية وأثر واضح في النص ،وهذا الاستحضار للحديث الشريف وتمكن الكاتب من هذه الصياغة الرائعة في أجزاء مخمسته، يدل على ثقافة عميقة يمتلكها الكاتب، إذ سخّر طاقته البيانية -عبر تشبيهه اللافت -الذي جعل طرفيه المؤمنين وجسد الانسان في تكامل أعضائه ،ويبدو الإعجاز البياني في وجه الشبه ،وهذا التوظيف يكشف لنا عن مرجعية الكاتب الحديثية العميقة في نفسه والتي مكنته من هذا الاستدعاء الذي أدىّ أثره في خدمة مضمون المخمسة وتقوية بنائها الفني .

ومن الرسائل التي ظهر فيها قوة تأثر ابن أبي الخصال بمرجعيته النصية الحديثية واتكائه عليها ما كتبه إلى الفقيه أبي الوليد بن رشد*يعزيه بابنه الأصغر قال فيها:

---

(١) صحيح البخاري، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦ هـ)، اعتنى به ابو صهيب الكرمي، بيت الافكار الدولية، ١٩٩٨م، ١١٦٤ رقم الحديث (٦٠١١)، نسخه الكترونيه.

* ابو الوليد بن رشد بن محمد بن احمد بن رشد (٤٥٠-٥٢٠ هـ) وهو أحد الفقهاء العلماء فهو أشهر رجال عصره علماً وفقهاً.

(...وهَنيئاً للإمام -أيَّدَهُ اللهُ-مودَّعٌ مَوعِدُه الْجَنَّة، ومُفدَّي هُوَ لَهُ فِداءٌ وجُنَّة فإنما الْمؤمن خامَةُ زَرع، وذُوابة فَرْع تُفَيِّئُها الرّياح يَميناً وشمالاً، وتلينُ في يَديها إدباراً وإقبالاً والكافِرُ أرزة مُجْدِيَةٌ تتحاماه المعرّة ،ثم تكرّ عليها كرّة فيكون انْجِعافُها مَرّة قال (رسول الله صلى الله عليه واله وسلم) ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بعبْدِهِ خَيْرًا عجَّلَ لَهُ الْعُقُوبةَ في الدُّنْيَا، وإِذَا أَرَادَ اللَّه بِعبدِهِ الشَّرَّ أمسَكَ عنْهُ بذَنْبِهِ حتَّى يُوافِيَ بِهِ يَومَ الْقِيامةِ))[1] وقال (صلى الله عليه واله وسلم))(وقد سئل أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ : الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ،فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ[2] وقال (صلى الله عليه واله وسلم)(مَا يَزَال الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمؤمِنَةِ في نَفْسِهِ وَولَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّه تعالى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)[3] للإمام الأجلّ-أيده اللهُ – مثل الخير، ولا تناولَتْهُ يدُ الضَّير، ....ويا نار الحزن كوني عليه بَرْداً وسلاماً...)[4].

فإن المتأمل لرساله ابن أبي الخصال يلاحظ شدة ارتكازها على الأحاديث النبوية الشريفة واستنادها إليها فمثلت الأحاديث الشريفة الدعامة الأساسية التي أقام عليها الكاتب نصه النثري، وقد استدعى الكاتب هذه الاحاديث ليحمل المخاطب على التسليم بقضاء الله والاقتداء بأحوال رسولهِ فأورد ثلاثة أحاديث نبوية شريفة تحث على الصبر وتعد الصابرين بعظيم الأمر وهذا الاستدعاء للأحاديث النبوية المباركة يؤكد تبحّر الكاتب واطلاعه على السنة النبوية وحفظه للحديث وتمكنه من فهم معناه وسياقه وهذاما ساعده في انتقاء ما يراه مناسباً للرسالة ،فالكاتب عندما يُرسل ليُعزي الفقيه المصاب بولده يسترفد الأحاديث النبوية فيستحضرها وينثرها في رسالته عن طريق الاستحضار غير المباشر للحديث النبوي الشريف متمثلاً بقوله (فإنما الْمؤمن خامَةُ زَرع، وذُؤابة فَرْع تُفَيِّئُها الرّياح يَميناً وشمالاً، وتلينُ في يَديها

(١) الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق ابراهيم عطوه عوض، مطبعة مصطفى البابي واولاده، ط١ ،١٩٦٢م، ٦٠١/٤.

(٢) مسند احمد، لأحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١ هـ) تحقيق: شُعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرين مؤسسة الرسالة، ٨٧/٣ وايضاً موجود في٣/ ١٤٨.

(٣) الجامع الصحيح (سنن الترمذي): ٤/ ٦٠٢، رقم الحديث (٢٣٩٩).

(٤) رسائل ابن أبي الخصال:٩٥-٩٦

إدباراً وإقبالاً والكافِرُ أرزة مُجْدِيَةٌ تتحاماه المعرّة ،ثم تكرّ عليها كرّة فيكون انْجِعافُها مَرّة)فقد استدعى الحديث الشرف من قول رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)

(مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كالْخَامَةِ مِن الزَّرْعِ تُفِيئُهَا الرِّياحُ تَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى حَتَّى يأتيه أجله؛ وَمَثَلُ الْكَافِرِ؛ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ عَلَى أَصْلِهَا لَا يقلها شَيْء، حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً)[1] فالكاتب وظف روافد ثقافته الإسلامية -المتمثلة بالحديث الشريف-في فنه الكتابي (رسائله) فتداخلت هذه الثقافة الإسلامية مع سياقِ الرسالة لتُنتج نصاً بلغَ حداً لافتاً من التميّز والتفرد والإبداع بفضل حسن التوظيف وفنية التداخل النصّي فالمؤمن كثير الالام في بدنه أو أهله أو ماله "ففي الحديث الشريف مثل ضُرب للمؤمن وما يلقاه من عواصفِ للبلاء والأوجاع فلا يزالُ بين عافيةٍ وبلاء ، ومحنةٍ ومحنة، و صحة وسقم ،وأمن وخوف ، وغير ذلك فيقع مرّة ويقوم أخرى ويميل تارة ويعتدلُ أخرى ، فيلقى بالبلاء ويُمحّصُ به ويُخلَّص من كدَرِهِ ، والكافرُ كلُّه خبثٌ ولا يصلحُ إلا للوقود، فليس من إصابته في الدنيا بأنواع البلاء كم من الحكمة والرحمة ما في إصابة المؤمن "[2] فالكاتب أحسنَ أيّما إحسان في استحضاره لهذا الحديث الشريف وجعله يعبّرُ عمّا جاء فيه من قيم وحثّ على الصبر وجزاء المؤمن فأعطى النص بعداً أخر من الروعة والتمّيز .

فالكاتب يستحضر الأحاديث النبوية الشريفة ويوظف دلالتها في خدمة نصه النثري ليكون هذا الاستحضار شاهداً حيّاً على عمق علاقته هنا بمرجعيته النصية الحديثية.

ويستمر الكاتب في الاستدعاء من مرجعية- الحديث الشريف-ويوظفها في رسالته و يوظف احاديث كثيرة مباركة بصورة مباشرة من دون تدخلٌ منه في التغيير في صياغة الحديث أو التغيير في بنائه فتقفز إلى ذهنه - و هو ينشئ نصه الإبداعي - فيختار الأحاديث المناسبة لموضوع الرسالة و التي تحضّ المؤمن على الصبر على البلاء، و القوة في الشدائد و هذا الاستحضار له أثره البيَّن في شحن رسالته بطاقاتٍ إيحائية إيمانية عميقة تمثلت في استحضاره لنصوص الحديث المباركة وتوظيفها في سياق الرسالة وكُلُّ هذه الأحاديث تحثُ

(١) صحيح البخاري:١١٠٩، رقم الحديث (٥٦٤٣)
(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم ولأراده، لابي عبد الله محود بن ابي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، ٣٦٠/١.

المُعزي على الصبر على مصابه ويذكر الكاتب المُعزي أنّ الله -عزّ وجلّ- إذا أحبّ قوماً ابتلاهم فإن عِظَم الجزاء مع عِظمَ البلاء.

وقد أحسن الكاتب استرفاد الأحاديث ووضعها في موضعِها من الرسالة ما جعلها تحقق إنتاجية مناصيه عالية عن مدى إبداع الكاتب، وإنّ هذا التداخل النصي بين الخطاب النثري والخطاب الديني المتمثل بالحديث النبوي الشريف، جعل النص يحقق فاعلية قادرة على التأثير في المتلقي، وعدا هذا فإنَّ مناسبة الرسالة وأجواء التعازي لا بدّ أن تهيمن على شعور الكاتب وتنحو به نحو التذكر والاستدعاء من مخزونه الديني المتمثل بمرجعيته النصيّة (الحديثية) فهذا الاستحضار المكين للنصوص النبوية الشريفة في نطاق الرسالة قد أثر في رسالته ،وخلق عند المتلقي الإفهام والإمتاع وحسن التأثير، فظهرت جمالية النص جليةً وقد أمدّها هذا الاستحضار للنصوص النبوية بأسباب التميز والتأثير الجمالي والفني، والذي يكشف عن مبدع أحسنَ توظيف الإبداع في الأحاديث النبوية الشريفة والاستفادة منها في إغناء رسائله بالشكلِ الصحيح وعلى أتمّ وجه وأفضل أداء.

فالكاتب يقدّم الوعظ والنصيحة، متكئاً في ذلك على مرجعيته الحديثية التي كان لها الأثرُ الواضحُ في نفسه وهذا ما ترجمته رسالته فيأتي بالأحاديث النبوية المناسبة لمقام التأسي وما تضمنته من الحث على الصبر على البلاء وهذا ما أراد الكاتب إيصاله إلى المرسل إليه.

فالكاتب يعود بين الحين والأخر ليستقي من مرجعيته الدينية وليرفد رسالته بما يُدعمها ويقويها فيتخذ الكاتب من الحديث النبوي مرجعاً لتدعيم الرسالة بالحُجة والبرهان فقال في رسالته التي فضل فيها الصابي*على بديع الزمان الهمذاني:

(...هيهات جَلَّ الفُرات عن المتح، ولا هجرة بعد الفتح وأنّى وقد مَضت الهجرة لأهلها، وفازَ السَّابقون الأولُون بِفَضلها، وخُتمت النبوّة فلا دَرَكَ لمِثلها ...) (١).

* تميز أُسلوب الصابي بالسهولة واليُسر والابتعاد عن المحسنات البديعية بشكل لافت فجاءت كتاباته بأسلوب مرسل لطيف.

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٤٨

الكاتب يحاول مدّ نصوصه بقوة التأثير والتميّز ويُزيد بها القدرة على التأثير في المتلقي فيعوّل على التداخل مع النصوص الدينية المقدسة موظفاً الحديث المبارك ((لا هجرة بعد، لكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا)) (١).

فما أروع هذا التداخل مع النصوص الدينية والذي أعطى الرسالة رونقاً وجمالاً وقداسة لا مثيل لها! وبفضل ثقافته الواسعة يطوع النص الحديثي في خدمةِ مضمونه النثري وتتجلى براعة الكاتب الأندلسي في قدرته على تطويع الحديث لخدمة فكرته ويجعلها أحد أهم الدعائم التي يقوم عليها النص ويُغني دلالة نصه بمضمون الحديث المبارك ليُنتج لنا نصاً عريقاً ملبساً بالجمال والإبداع الفني والدلالي.

وقال في الرسالة نفسها:

(... فالحذَر من النُّصوص، والبيان مالم يَخرج إلى العُمومِ عنِ الخُصوص، ولم يَثْبُت في الصُّحفِ كالبُنيان الَمْرصُوص ...) (٢).

وقال في رسالة إلى أبي بكر بن محمد العربي:

(...على أنّ القُرب لو رُفعت رايَتُه وقُطعت غايَتُه، لم يُغرب بجديد، ولا أَتى على ما بَين الْجَوانح بِمَزيد وما الوُدُّ إلاّ كالإيمان، وهل الْمؤمن للمؤمن إلاّ كالبنُيان ...) (٣).

فقد وظف ابن أبي الخصال قول الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في الرسالتين كلتيهما فقد استحضر قول رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)

((الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وشبك بين أصابعه)) (٤)

فالرسول الأكرم ((صلى الله عليه واله وسلم) يشبّه المؤمنين في اتحادهم وتماسكهم بالبنيان الذي يسند بعضه بعضاً ويقويه ،وهذه الصورة التشبيهية الرائعة التي زادت النص

(١) مسند احمد:٤٤٨/٣
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٤٢
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ١٨٥
(٤) صحيح البخاري: ٤٦١، رقم الحديث (٢٤٤٦)

قبولاً وجمالاً، لأنّ التشبيه له "اثر بليغ في تصوير المعاني ،وتقريبها من الأذهان، وإقناع النفوس بها والارتقاء بالكلام من أرض الواقع إلى سماء الخيال وكلّها تدرج المرء في هذا الارتفاع ،كان الكلام أوقع من النفس، وأعلق بالقلب "[١] فشبههم الرسول ((صلى الله عليه واله وسلم) بالبنيان أما وجه الشبه فهو الوحدة والقوة والتماسك ولا يخفى على أحد ما لهذه الصور البيانية التشبيهية من روعة ومزّية في النّص، وما أجمل قول ابي هلال العسكري عند كلامه عن أثر التشبيه في الكلام :"...التشبيه يُزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيدا ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغنِ أحد منهم عنه وقد جاء عن القُدماء وأهل الجاهلية ما يستدلّ به على شرفهِ وموقعه من البلاغة"[٢].

والكاتب قد بلغ حداً من التأثير بمرجعيته النصّية الحديثية بحيث يستدعي الأحاديث النبوية ويجعلها مرتكزاً للنص وهذا الاستدعاء للحديث النبوي -يُزيد بلا شك- الرسالة قوة ورصانة ويُضفي عليها جودةً وتميّزاً لا مثيل له، بيد أنّ تأليفه هذه الأفكار والمعاني والصور التامةً يصدر عن خيال الكاتب الأندلسي، ولم لا وهو الشاعر الكاتب، ولأن الخيال يعد" العنصر الذي يساعد على تشكيل الواقع الخارجي تشكيلاً جديداً في العمل الأدبي"[٣] وفي هذه الرسالة مثل للأخوة وطيب العلاقة بين الكاتب ابن أبي الخصال والمرسل اليه فهو يعبر عما قاله رسول الله(صلى الله عليه واله وسلم) في أن المؤمنين يشّد بعضهم بعضاً ليكونوا قوة قاهرة مجتمعين فالمؤمن سند لأخيه ومتكأ لهُ والكاتب عكس ثقافته الدينية وتأثره بالحديث النبوي الشريف بشكل خاص ومثله في نصّه ليعبر عن فكرة أراد التعبير عنها فلم يجد أفضل مما عبّر عنه الرسول من طيب العلاقة بين المؤمنين وحاجة بعضهم لبعضهم الاخر .

وفي إحدى رسائله قال:

(١) علم اساليب البيان، غازي يموت، دار الفكر اللبناني، دار النهضة للطباعة والنشر -بيروت، ط٢ ،١٩٨٥ م، ٢٤٧.
(٢) كتاب الصناعتين (الشعر والكتابة)، ابو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أ بو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية -بيروت ،١٩٧٦م، ٢٤٣.
(٣) في النقد الأدبي، كمال نشأت:١٩٧

(...رجُـلٌ أَوى إلـى اللهِ، فـآواهُ الله، ورجُـلٌ استَحْي فاسْـتَحْي اللهُ منـه، ورجـلٌ أعْـرَض فأعرض اللهُ عَنه كن أَحد الرَّجُلين فَتهدى، ولا تكن الثّالث فَتْردى ....) [١].

عوّل الكاتب في هذا المقطع النثري بشكل شبه كُلّي علـى الحـديث النبـوي عـن أبـي واقـد الليثي أن رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بينما هو جالس في المسـجدِ والنـاس معـه، إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله وذهب واحد ((قال بينما نحن مع رسول الله صـلى الله عليه وسلم، إذ مرّ ثلاثة نفر فجاء أحدهم فوجد فرجةً في الحلقـةِ فجلـس ، وجلـس الآخـر مـن ورائهم وانطلق الثالث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بخبر هؤلاء النفـر قـالوا بلى يا رسول لله قال أما الذي جاء فجلـس فـأوى فـآواه الله والـذي جلـس مـن ورائكـم فاسـتحى فاستحى الله منه وأما الذي انطلق، رجل أعرض فأعرض الله عنه)).

فقد ذكرَ رأى الأول منهم فُرجة في الحلقةِ فجلس فيهـا، وجلـس الآخـر فـي الخلـف وأدبـر الثالث ذاهباً فأخبر الرسول الكريم صحابته بأحوال أولئك الثلاثة بأن الأول أوى إلـى اللهِ فـآواه الله والآخر استحيا من الله فاستحيا الله منـه، والثالـث أعـرض فـاعرض الله عنـه وجُـوزي كـلّ منهم بما يستحق من الجزاء [٢] فالكاتب يريد أن يقدّم النصـح إلـى المتلقين فيحضـهم علـى أن يحضروا مجالس الخير تلك المجالس التي من شأنها إصلاح المرء، وتقـويم دينـه، وتحـذر مـن ان يكونوا من المعرضين عن مجالس الخير، كذلك الرجـل الثالـث الـذي أعـرض عـن مجلـس النبي (صلى الله عليه واله وسلم) المحاط بالرضـى الإلهي فذهب خارجاً فجوزي بأعراض مـن اللهِ جلّ وعلا.

فيستحضر الكاتب لغرض حث المؤمنين على مجالس الخير وتحذيرهم من عدم الاكتراث والأعراض عن مجالس المحفوفة بالرضا، فيستحضـر حـديث الرسـول (صـلى الله عليـه والـه وسلم) ليعبّر بوساطته عما أراده واتخذ من تناصه مع الحديث النبوي وسيلة مـن وسـائلِ القـوة والإبداع.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٣٣٤

(٢) بلاغة التقابل في الحديث النبوي الشريف (دراسة أسلوبية)، اسـماء سـعود الخطـاب، سلسـلة الرسـائل الجامعية، كليـة الآداب ،جامعـة الموصـل – العـراق، دار النابغـة -الإسـكندرية، ط١، ٢٠١٤م، ١٥٣-١٥٤.

ويكمل رسالته شعراً إلى أن يقول (البسيط): [1]

مَهْـلاً فمـا نَحْـنُ إلاَ مِـثْلُكُم أُمَـمٌ تُسـَبّحُ اللهَ تَغْريـداً وتَصـْفِيرا
نَغـدُو خِماصـاً لأَرزاقٍ مُقـَدَّرةٍ فَنقتضِـي فضـلَ رزقِ اللهِ موفُـورا

يستدعى الكاتب في رسالته ألفاظاً وتراكيبَ لحديث رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ((لَـوْ أَنَّكُـمْ تَـوَكَّلْتُمْ عَلَـى اللَّهِ حَـقَّ تَوَكُّلِـهِ لَـرَزَقَكُمْ كَمَـا يَـرْزُقُ الطَّيْـرَ، تَغْـدُوا خِمَاصـاً وَتَـرُوْحُ بِطَاناً))[2].

فالكاتب وظّف الحديث الشريف ومعناه المبارك في نظمِهِ هذا فهو يقول إنّ الله (عزّ وجلّ) الذي يرزق الطيور والتي تكون في اول النهار ضامرة البطون (خماصاً)وليس في بطونها شيء فترجع في آخر النهار ممتلئة البطون.

فالذي يرزق الطيور هو يرزقنا والأمم الأخرى، كما رزقها فهو أرحم الراحمين بعبادهِ فهو لطيف بعباده يرزقهم من غير حساب، وهذا التوظيف للحديث النبوي الشريف موفق جداً ويعكس ابداع الكاتب وقدرته على التحكّم في نظمه وتطويع الحديث المبارك في خدمة مضمون نصه، والارتقاء بالنص إلى درجة التميز والتفرّد ولا شك في أن تداخل النصوص الأدبية مع نصوص الحديث النبوي الشريف يُضفي على الخطاب النثري عُمقاً في المعاني وترصيناً في المباني مما يُزيد الرسالة تأثيراً في متلقيه .

وعدا هذا فإنَّ النصوص النبوية بما تحمل من بلاغة إيقاعية، تمنح الخطاب الجديد بُعداً إيقاعياً يُزيد المعنى تأثيراً وإيحاءً، إذ لا يمكن فصل الأثر الإيقاعي عن المعنى.

فالحديث النبوي الشريف مثَّل رافداً مهماً من روافد ثقافة ابن أبي الخصال وقد عمد الكاتب إلى إظهار هذه الثقافة وتدوينها في رسائله لإغناء فنه النثري بأفصح الألفاظ وأجود المعاني ويمدّها بأسباب القوة والتمّيز والإبداع الفنّي.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٣٨
(٢) مسند احمد:٤٣٩/١

وكتب في أحد رسائله* قال فيها:

(... الذي تسَلَّمَهُ الآتي عن الماضي أمانةً حَملها من كُلّ سَلفٍ خيارُه، ونُوراً عُرفت في جباهِ السُّؤددِ سيمَاهُ وآثاره؛ إلى أَن اذنَ اللهُ سُبحانَهُ فظهَرت أسرارُه الكامَنة ، وأدتهُ إليه صلواتُ الله عليه الطاهرة آمنة الذي ٠جُعلت لهُ الأَرضُ مَسْجداً وطَهُوراً) ، وأُحِلَّتْ لَهُ الغَنائِم ، وكانت (حِجراً مَحْجُوراً)و(نُصِرَ بالرُّعبِ) سِنينَ وشُهوراً ،وأُوتي (جوامِع الكَلِم)فانتظمت لفظتُه سُطوراً وبُعث (إلى الأحمرِ والأسودِ) فضْلاً كانَ لَهُ مَذْخُوراً ونُسخت بملّته الْمِلَل إما مُؤمناً وإمّا كَفُوراً...)[1].

استحضر الكاتب في رسالته هذه، الحديث النبويّ الشريف من قول رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نبي قَبْلِي ولا اقولهنَّ فخراً، بُعِثْتُ إلى النَّاسِ كافة الأحمر والأسود ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ فأخرتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً)) [2].

وفي النص الماثل أمامنا استدعاء مباشر من كلام رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) فقد مثل الحديث النبوي الشريف جُزءاً لا يمكن الاستغناء عنه، في النص وهذا الاستحضار اللافت للمرجعية الحديثية اغنى النص النثري ،وزاد في تميّزه، ودلل على مدى ابداع كاتبه وعكس تفوقه في النظمِ، فالكاتب يُحسن المواءمة بين غرض الرسالة والحديث النبوي الشريف فهو هنا في رسالته هذه يُحدّثُ عن شوقهِ إلى مقام النبي الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) وشوقه لأداء فريضة الحج فيختار من الأحاديث النبوية الشريفة ما يلائم غرضه هذا ،وتُسعفه في ذلك قدرة متميزة وتمكن من الحديث الشريف حفظاً وتمثلاً .

* رسالة بعث بها الكاتب مع حاج قاصد إلى الديار المقدسة يُبدي فيها أشواق أداء الفريضة والصلاة في الحرم النبوي وأداء مناسك الحج.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٦٣

(٢) مسند احمد:٤/ ٤٧٢

فالكاتب يوظّف الحديث الشريف عن دراية ويُدرك مدى التأثير الذي يُضفيه هذا التوظيف للرسالة -لاسيما وهي المعبرة عن شوقهِ للحرم النبوي المبارك- فيختار من الأحاديث ما يراه مناسباً لأفكاره وعاكساً لأشواقه للحرم المبارك.

فهذا التداخل قد أنمى النص وأثّر فيه خيرَ تأثير، وعكس مدى شوق الكاتب الذي تشتاق نفسه لزيارة الحرم، فيستذكر الأحاديث التي علقت في ذهنه ويوظفها خير توظيف، وعبر من خلالها عما أراد إيصاله ،أجمل تعبير، ليكشف لنا عن نصٍ مليء بالطاقة الإيمانية التي دللت على إبداع الكاتب، ونبوغه في فنه وهذا التداخل المتمكن أثّر في الرسالة وجعلها تنبضُ بالروح الإيمانية العالية ،فالكاتب كثيراً ما يوظّف مرجعياته الدينية في رسائله ويعمل على ترصيع رسائله بآيات من الذكر الحكيم وشيء من أحاديث الرسول الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) ومن هذا ما قاله في معارضة لملقى السبيل :

(وَازِنْ بَيْنَ الهوى والنُّهى، واعَلَمْ أنّ إلى ربكَ المنْتَهى، والنَّارُ محفوفَةٌ بالشَّهواتِ فَخُذْ أَو فَذَرْ مِمَّا يُشْتَهى...) (١)

نهض النص النثري على المرجعية الدينية -القران الكريم والحديث النبوي الشريف- فقد استحضر الكاتب قوله تعالى ((وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المنتهى)) (٢) ووظفه بشكل مباشر وأدرجه في نصهِ النثري لتزيد مبناه جمالاً وتُضفي على معناه قداسة وجلالاً لا مثيل لهما، أما الحديث النبوي فقد أورده الكاتب في نصهِ ، إذ استحضر ابن أبي الخصال قول الرسول الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)) (٣)

وهذا التشكيل والتداخل بين النصوص (القرآنية والحديثية ورسالته) قد انمى النص فكان تفاعلاً مؤثراً في متلقيهِ مؤدياً وظيفته الإبلاغية والجمالية، فهذا التداخل ساعد في إخراج نصٍ غنيّ، فالكاتب كان على صلة وثيقة بمرجعيته الدينية فاستمد منها ألفاظاً ومعاني ووظفها في

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٨٧-٣٨٨
(٢) النجم: ٤٢
(٣) الجامع الكبير:٣١٩/٤

رسائله، وهذا التوظيف المكين يكشف جانباً من ثقافة الكاتب وتفكيره في ظلال مرجعيته الدينية.

"فالنار محل ذوي الشهوات الذين ليس لهم هم الا أتبّاع شهواتهم، أمّا الجنة فأحيطت بالمكاره؛ لأن عمل الخير مكروه للنفوس الأمّارة بالسوء فنجد الكثير من الناس عند عمل الخير يُرغم نفسه ويُكرهها على ذلك ولكنَّ هذا يوصله إلى الجنة"(١) وهذا التوظيف يشي بقدرة الكاتب وتصرفه في فنه النثري واستثماره الجيد للأحاديث النبوية المباركة في خدمة مضمون رسالته وتشكيل نصه وتلوينها بالتضمين من الحديث المبارك.

فالكاتب تأثر بالحديث النبوي الشريف تأثراً واضحاً وعميقاً فعاد إلى تلك المرجعية العريقة ليروي نصوصها من عذب معانيها والفاظها وفصاحتها فهي مرجعية رصينة متعمقة في نفس الكاتب، ومن الرسائل التي بدا فيها جليَّاً تأثر ابن أبي الخصال بالحديث النبوي الشريف هي رسالته في إجازة مقرئ قال فيها:

(... وأَطلَعَ الإيمانَ مِن مَطلَعهِ وأَهَبَّهُ مِنْ مَهبّه، وقامَ دوَنهُ بصَادقِ طَعنْه وضَربه، وَظاهَر في إظهارهِ بين حَالَيْ سِلْمهِ وحَرْبِه، إلى أَن ذوي لَهُ مَا بَينَ شَرقِهِ وغَربه ...) (٢).

فابن أبي الخصال-هنا-استحضر الحديث النبوي الشريف

((زُويت لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا)) (٣) فالكاتب يستفتح رسالته في ذكر بعض من صفات النبي الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) وبعض من نعم الله عليه ويستحضر حديثاً شريفاً عن طريق الاستحضار غير المباشر (المحور) وهذا الاستحضار ماثل في قول ابن أبي الخصال (إلى أَن ذوي لَهُ ما بين شرقهِ وَغربهِ).

(١) شرح صحيح البخاري: ٣٨٢/٨
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٩٥
(٣) الجامع الكبير: ٨٦/٤

فالكاتب يرصّع رسائله بالحديث النبوي المبارك وهذا التداخل بين النصين (النثري والحديث الشريف) يرفع كفاية النص ويؤدي الغرض المطلوب ويكشف عن إبداع الكاتب وعمق صلتهِ بالحديث النبوي الشريف.

فالكاتب يبني نصه على وفق مضمون الحديث الشريف ويرتكز عليه وهذا، خير دليل على شدة تعلق ابن أبي الخصال بالحديث النبوي الشريف وتأثره بهِ.

فالرسول (صلى الله عليه واله وسلم) يقول "ان كان انتشار دعوته في أعدل الأرض، ولذلك انتشرت شرقاً وغرباً أكثر من انتشارها جنوباً وشمالاً، وبشر آمنة بانتشار مملكتها في هذين الربعُّين، فإنهما اعدلُ الأرض وأهلها اكملُ الناس خلقاً وخُلُقاً ..."(١) فالكاتب هنا يستدعي الحديث النبوي الشريف لخدمة مضامينه النثرية ولتقوية بناء الرسالة الفني.

ويستحضر حديثاً آخر في قولهِ:

(...وأَشهدُ أَن لا إله الله وَحدهُ لا شريك لَه، شَهادةَ يَقينٍ لا قِلادةَ تَلقين، وعقيدةً تُوصِلُ إلى الإحسان وتَصلُ ما بين القَلبِ واللِّسان، وتَستفْرِغُ رِضَى الرَّحمن، وتَملأُ كفَّة الميزان...) (٢)

فالكاتب يستحضر حديثاً نبوياً مباركاً ليوظفه في خدمة مضمونه النثري وهو قول رسول الله (صلى الله عليه وآلة وسلم) ((خمس ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى لمسلم فيصبر ويحتسب)) (٣)

فالكاتب يستحضر الحديث المبارك ويتكئ عليه في هذا المقطع النثري ليُظهر لنا هذا التداخل بين النصين (الحديث النبوي والنص النثري) عن مبدع قد أحسن هذا التداخل والتشاكل بين النصين وأخرج ثمرة طيبة تزيد المتلقي إيماناً وتذكيراً بأقوال الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وبالأعمال الحسنة.

---

(١) مفتاح السعادة:١٢٧٥-١٢٧٦

(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٩٧

(٣) الخصال لابي جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق(ت٣٨١هـ) صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ١/ ٢٦٧.

فالكاتب يسعى لتحقيق الفائدة والإنتاجية في نص رسالته فيذكّر المؤمنين بأحب الأعمال وأثقلها وزناً لُيضفي قداسة لنصه النثري ويغنيه باتكائه على النص النبوي المبارك

فجاء هذا التداخل محققاً الغرض المطلوب وعكس الهدف الذي أراد الكاتب تحقيقه بأبهى صورة وأتم شكل وقد أدى هذا التداخل النصي أثره وأنتج نصاً جديداً مختلفاً يتكئ على مضمون الحديث الشريف، فظهرت براعة الكاتب في قدرته على تطويع نصوص الحديث النبوي الشريف لخدمة فكرته والإفادة من هذه النصوص النبوية في إغناء رسالته.

ثم يضمن نصه حديثاً في مدح الأنصار ولكن صياغة الحديث جاءت ملائمة لنص ابن أبي الخصال الذي صاغ ما يراه مناسباً لرسالته وهو في قول الكاتب:

(... وأَنصارهِ الّذين كانُوا يَقلونَ عندَ الطَّمع، ويكثرون عَند الفَزع، الذيم مَضوا عَلى الواضحةِ المَهيع ...) (١).

فالكاتب يستحضر قول الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ((إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ)) (٢) فالكاتب ينقل الحديث وكأنه يراه الأنصار فيقول لهم أنصاره الذين كانوا يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع.

فينقل الحديث محوّراً قليلاً في نصّه وأدرجه في سياقِ رسالته ليضفي عليها شيئاً من الإبداع الفني والتأثير الجمالي ،ففي هذا الحديث المبارك منقبةً عظيمةً للأنصار الذين يتكاثرون وقت الحاجة إليهم ويقلون عند الطمع ،وهذا دليل على عمقِ إيمانهم وزهدهم فالكاتب يسعى لتحقيق التفاعل الإيجابي والتأثير الجمالي في المتلقي فيستحضر الحديث النبوي الشريف ويحور فيه ويدرجه في سياق نصه فيقول (... وأَنصارهِ الّذين كانُوا يَقلّونَ عندَ الطَّمع ،ويكثرون عَند الفَزع) فذكر صفه من صفات الأنصار والتي ذكرها الرسول الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) مخاطباً إياهم فاستحضر الكاتب هذا الحديث وأدرجه في سياقه ليكشف عن أثر هذا التداخل مع الحديث الشريف في رفع كفاية النص وقد أثّر هذا التوظيف في إبداع

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١٩٨
(٢) الفائق في غريب الحديث، جار الله الزمخشري، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط٢، ١١٥/٣

الكاتب الفني، وحسن توظيفه للأحاديث النبوية المباركة وتجسدها بأسلوب رائع يكشف عن سعةِ ثقافته.

ويستحضر حديثاً آخر في مقطعه النثري الاتي:

(...وتَهاداني نحوه رَواحٌ وبُكور؛ إلى أن نَسَّقَهُم سِلكُ إسنادي، ووَرَيتُ بلقائهم زنَادي؛ وخَدمتُ أنديتهم التي تخيّم الرَّحمةُ فيها، وتضعُ الملائكةُ أجنحتَهَا لمنتديها...) (١)

اتكأ على قول رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ((أن الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ)) (٢)

فالملائكة تحفُّ طالب العلم بأجنحتها توقيراً له وتبجيلاً وهي تحفظه وتصونه بأجنحتها فالكاتب لم يقصد في إيراده للأحاديث النبوية المباركة فقط للتزيين -تزيين النص باللفظ الحديثي المبارك- أنما قصد في ذكره للأحاديث واستحضارها اغناءَ مضمون الرسالة وشحنها بطاقات من الإبداع والتأثير في المتلقي ومدّها بفاعلية عالية تنتجها مع النص -الرسالة- لتضفي خصيصة للرسالة وتكشف عن مبدع أحسن توظيف الموروث الديني – الحديث الشريف في رسالته.

فتأثر الكاتب ابن أبي الخصال بمرجعياته واضح في رسائلهِ بشكل جليّ ، فلا نكاد نجد رسالة تخلو من اللفظ والمضمون المقتبس من الحديث النبوي الشريف إذ اتكأ في بعض رسائله اتكاءً بيِّناً وقوياً ،بل جعل الحديث النبوي الشريف عماداً للرسالة ومرتكزاً قوياً لها كما في رسالته في عيد الأضحى التي أورد فيها عدداً غير قليل من الأحاديث المباركة ووظفها بشكل مباشر في نص رسالته ،ويمضي ابن أبي الخصال في استرفاد الأحاديث النبوية المباركة والاستفادة منها، ومنها ما قاله في هذا المقطع النثري:

(١) رسائل ابن أبي الخصال :٢٠٠
(٢) مفتاح السعاده:١٧٢

(... فلا أعلمن من قَعد منكم مقعدَ الإقراء، مُهذّب الردِّ والإصغاء، نبيلَ الَهيئة والرُّواء عَبقَ الثّوبِ والفِناء ، مُحتبياً للسُّمعة والرِّياء، كخضراءِ الدّمن، يا بُوس لتلك الخضراء؛ مَنْ نظَر إلى ظاهرِه أَسرع ورَفْرَف، ومن استشفَّ باطنَهُ جدَّع...) [١]

فالكاتب يستحضر حديثاً نبوياً لإ تمام معنى الرسالة فهو يستحضر قول رسول الله(صلى الله عليه واله وسلم) ((ايّاكم وخضراءَ الدِّمن))[٢] (وخضراء الدمن المرأة الحسناء في المنبت السيء وهذا حديث تحذيري للمؤمنين ،والكاتب يسترفد الحديث ويضرب به مثلاً عندما يتحدث عمن جرفتهم المعاصي وغرقوا في الذنوب فهو يقول (كخضراء الدمن) أي التحذير من الإيقاع في وصل الغرور والتحذير ب(إيّا) الضمير المنفصل الموجه للآخرين ،لهو أقوى تحذير وخاصة أنه صدر من مصدر التشريع -رسول الله(صلى الله عليه واله وسلم) فاستثمر الكاتب الأندلسي هذا الأسلوب الطلبي القائم على النهي عن هذا الفعل والسلوك .

فالرسول (صلى الله عليه واله وسلم) نهى عن نكاح المرأة ذات الحسن وهي سيئة المنبت فالرسول(صلى الله عليه واله وسلم) شبّه المرأة الحسناء بالروضة الخضرة لجمال ظاهرها وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحة باطنها[٣] اما ابن أبي الخصال فقد وظف هذا الحديث النبوي وأراد ان يبين يجب ان لا يلتقي الرجل أخاه بالظاهر الجميل ويضمر الباطن الذميم[٤] فوظف لهذا قول الرسول(صلى الله عليه واله وسلم) وأخذ تعبيره وجمال معنى الحديث الذي يقول أحياناً ترى ظاهراً يُعزي وباطن يسوء، فالكاتب يقول كخضراء الدمن فقد اسند هذا المقطع النثري على الحديث النبوي الشريف، ولولا سعة مرجعياته النصّية ومنها مرجعيته الحديثية حفظاً وتأملاً وتمثلاً ،لما وجدنا هذا التكثيف للمرجعيات النصيّة في رسائله التي مثلت صفوة إنتاجه النثري واستفاد الكاتب من الحديث الشريف في إغناء مضمونه النثري، فالكاتب عميق الصلة بالحديث النبوي الشريف ويستوحي منه القدرة والتأثير في إغناء نصه والتأثر به.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٢٠٦

(٢) مسند الشهاب، أبي عبد الله محمد بن سلامه القضاعي، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط١، مؤسسة الرسالة -بيروت ١٩٨٥م، ٩٦.

(٣) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، كمال عز الدين، ١٨٩.

(٤) المصدر نفسه: ١٩٠

ثم يستحضر الكاتب الأحاديث النبوية المباركة بصورة مباشرة لتسهم في جودة بناء نصوصه في إغناء رسالته وخدمة مضمونه ويسترفد من الأحاديث ما يراه مناسباً لغرض الرسالة: (...وقال ((خيركم من تعلم القران وعلمه)) [١] ...وقال ((الذي يقرأُ القران وهو ماهر به مع السَّفرة، الكِرام البَررة، والذي يَقرؤه وهو يَشْتدُ عليه فله أجران)) [٢]. وقال ((لن تَرجعوا إلى اللهِ بشيءٍ أَحب إليهِ ممّا خرج منه)) [٣]...) [٤].

فالكاتب رصَّع رسالته بالأحاديث النبوية المباركة التي كانت لها برهاناً وحجة وتوضيح لأهمية تعلم القران الكريم والحثّ على قراءته.

وقال (...وقال لابي موسى -وقد ركب في قراءته ذلك المنهج المحمود ((لقد أُتيت مِزماراً من مَزامير آل داوود))[٥]...وكم للمُؤمن القارئ للقرآن من فخر وحُجّة في أنْ جَعله(صلى الله عليه واله وسلم) كالأُترجَّة استبد- كما استبدّت – بالَمديح، وجمعت بين الطّيبين في الطّعم والّريح فَرجّحوا المَرجّح الأولى ولا ترْضَوا إلا بالمثل الأَعلى ؛وشبَه المُؤمن الذي لا يَقرؤُه بالتمرة فأَعطاهُ حَظاً من حظَّين ،ومنزلةً من منزلتين وشبّه المنافِقَ الذي يقرؤُه بالرَّيحانة تعبق ،وطعم يُغَص به ويُشرَق وتعوذ باللهِ منه ومن العاجز لم يتمسّك بفضيلة ، ولا تعلّق بِوَسيلة فَمثّله بالحنظلةِ خُصت بالأمَرَّين ، وجَمعت بين الشّرَّيْن ...) [٦]

فقد استحضر قول الرسول (صلى لله عليه واله وسلم) ((مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّة؛ ريحُها طيّب وطعمُها طيّب، ومَثَل المؤمن الذي لا يقرأ القرآنَ مثَل التمرة؛ لا ريحَ وطعمُها حُلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الرَّيحانة؛ ريحُها طيّب وطعمُها مُرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة؛ ليس لها ريحٌ وطعمُها مُرٌّ)) [٧]

---

(١) الجامع الكبير: ٣٠/٥ ومسند احمد:١/ ٤٧١
(٢) الجامع الكبير:٥/ ٢٨
(٣) الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، ١٧٧/٥
(٤) رسائل ابن أبي الخصال:٢١١ وما بعدها
(٥) الفتح الكبير في ضمّ الزيادة إلى الجامع الصغير، للسيوطي، دار الكتاب العربي، لبنان -بيروت، ١٦/٥.
(٦) رسائل ابن أبي الخصال:٢١٠-٢١١
(٧) صحيح البخاري: ٩٩٧ رقم الحديث (٥٠٢٠)

فالرسول الكريم مثل للمؤمنين الذين يقرأون القران الكريم بالأترجة وهي ثمرة طيبة الطعم والرائحة فهؤلاء هم خيار الناس وأفضل المسلمين، أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فهو كالتمرة ،فهو دون الذين يقرأون القرآن أمّا الذين لا يقرأون القران فهم قسمان : أيضاً فمنهم المنافق وشبه بالريحانة والكافر الذي لا يقرأ القرآن فهو كالحنظلة لا ريح لها ولا طعم طيب وأحسن ابن أبي الخصال في توظيفه للحديث الشريف والذي نثره في نصه نثراً فاعلاً وأضفى على النص شيئاً من التشبيهات النبوية الشريفة واختار لها الموقع المناسب فهو يتحدث عن قراءة القرآن وفضله في رسالته في إجازة مقرئ .

ولا يفوتنا أنْ نقول إنّ الكاتب الأندلسي الكبير، وهو يعمل ديوانياً -أستطاع أن يبث دعوته للإسلام الحنيف والحث على الالتزام بمبادئه – (صلى الله عليه وآله وسلم) عبر رسائله وما حملته من معانٍ تأكيداً لنزعته العقائدية ولم يأتِ هذا من دون قصدية.

لذا فارتباط الكاتب بمرجعياته النصيّة الثقافية، وفي طليعتها الدينية كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، أتاح له أن ينتج نصاً إبداعياً شهد له النقاد والأدباء ودارسو الأدب بالشعرية والتفوّق.

وينصح الكاتب في سياق الرسالة، وفي أثناء استحضاره للحديث النبوي الشريف، في أنَّ يكون المؤمن من القارئين للقران وأن يكونوا قدوة ومثلاً أعلى يُحتذى به وحذَّر المؤمنين من هجر القرآن الكريم وعدم قراءته.

وذكر عدداً من الأحاديث الطويلة والتي يطول بنا المقام لو توقفنا عندها وكلُّها تحث على قراءة القرآن وتعلّمه لما فيه من فضائل عالية

فالكاتب ذكر جملة من الأحاديث النبوية الشريفة التي حثَّ فيها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) على قراءة القران الكريم وبين فضل هذه القراءة وأتي بالأحاديث النبوية الشريفة التي تحضَّ على قراءة القران الكريم والتدبر بآياته المباركة.

لذا لجا إلى استرفاد الأحاديث النبوية فيستقي من المنبع النبوي المبارك ما يلائم رسالته ويُغنيها، وعكس هذا التوظيف الموَّفق ثقافة الكاتب الواسعة ومدى إبداعه الفني والذي مكنه من إغناء الرسالة وإظهارها على هذه الشاكلة.

وفي رسالة إلى أحد الفقهاء*

(... المؤذّنون- أدام اللهُ نَصرك – قد ورَد فيهم الأَثر المروِيُّ، والْخَبرُ الواضِحُ الْجَلِيّ، وهم -وإن كانُوا في الأُخرى أطولَ النَّاسِ أعناقاً -فهُم في الدُّنيا أضيقُ النّاسِ أرزاقاً، وأضعَفُهم أذماءً وأرْماقاً...)[1]

فالكاتب في رسالته هذه يستذكر شيئاً من التوجيهات النبوية المباركة ويستدعي من الأحاديث الشريفة ما يلائم موضوع رسالته، ويُضفي عليها القداسة، ويُزودها بالحجةِ، والبرهان، لينتج لنا نصاً فريداً، أتاح له التداخل مع الحديث الشريف فرصة وفعالية عالية في التأثر بالمتلقي ودفعه إلى قضاء الحاجة التي كُتبت من أجلها الرسالة فهو يتكئ على الحديث الشريف قول الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ((الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[2]

فالرسول (صلى الله عليه واله وسلم) أراد أن يبين مكانة المؤذن وعظم أجره في يوم القيامة فقال إنهّم أطول الناس اعناقاً فجاء بهذه الصورة الكنائية الرائعة للدلالة على علو المرتبة التي يحتلها المؤذنون والمكانة التي يحظون بها[3] أما الكاتب فقد أحسن استحضار الحديث وتوظيفه بما يلائم غرضه ويُثري دلالته ليؤثر في المرسل اليه ويستدر عطفه على المؤذن فيقول إنّ المؤذنين، وإن كانوا في الاخرة لهم منزلة عظيمة، ومقام كريم، الّا انهّم في الدنيا هم افقر الناس ،وأضيقهم رزقاً وأضعفهم جسداً، لزهدهم وتقواهم وعدم سعيهم وراء ملذات الدنيا ،فالكاتب أحسن المواءمة بين الموضوع (نصه) والحديث الشريف، لينتج نصاً ذا

* يوصي بها القاضي الفقيه بمساعفة مؤذن يُدعى ابا إسحاق
(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٥٠
(٢) السنن، ابي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد ومحمد كامل وعبد اللطيف حرز الله، مؤسسة الرسالة، ٤٦٦/١.
(٣) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية: ٢١٢

قدرة عالية في التأثير في المتلقي فهو يستحضر الأحاديث الشريفة للتأثير في مبنى الرسالة ومعناها مما يجعل المتلقي يتفاعل مع النص ويتأثر به.

وفي خطبة عيد الأضحى حشّد ابن أبي الخصال الأحاديث النبوية المباركة، إذ اسند نصه إليها وجعل الأحاديث مرتكز الخطبة وعمادها، فمثلت هذه الرسالة أكثر الرسائل التي تضمنت من الأحاديث النبوية المباركة واقامت عليها متنها، وقد وردت هذه الأحاديث في الرسالة بصيغة الاستحضار المباشر من دون تدخل من الكاتب أو تغيير في صياغة الحديث الشريف وسنتوقف عند عدد من الأحاديث الشريفة ونتأمل فاعليتها التعبيرية .

فقد عرف الكاتب التناسب بين موضوع الخطبة وموضوع الرسالة فأورد ما يلائم النص النثري من الأحاديث النبوية المباركة، وقد ذكر في متن رسالته أقوال الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) إذ يتكئ في رسالته هذه على عدد كبير من الاحاديث النبوية الشريفة ليشحن الرسالة بالطاقات الإيمانية العالية، والقداسة المحمدية التي تُضيف إلى نصِّه الشيء الكثير، فيعمد إلى اختيار الأحاديث النبوية التي لها القدرة على التأثير في المتلقي، وتذكيره بما غفل عنه من أمور الدين، والتي لها القدرة على تنظيم حياة المؤمنين فهي الدستور والإرث الثمين الذي تركه الرسول الأكرم(صلى الله عليه واله وسلم)لأمته فمن سار على وفق التعاليم الدينية فقد نجا من الاخطار والمهالك وفازَ بالمرتبة العالية .

فعمل الكاتب على الاستحضار من الأحاديث النبوية مما له القدرة على التغيير في المجتمع الإسلامي وذكر جملةٍ من الأمور والأحوال التي حثّ عليها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) مثل المحبة بين المؤمنين والإحسان للجار وأداء الأمانة ... الخ فجاءت الرسالة نابضةً بالروحِ الإيمانية العالية ،وعاكسة لصلةٍ العلاقة بين الكاتب ومرجعيته النصية الحديثية والتي أحسن توظيفها ما جعله ينتج نصوصاً راقية كان الحديث الشريف روحها وعمادها الأهم وسنقتصر على ذكر جزء يسير من الأحاديث النبوية التي وردت في الخطبة، لأنَّ الخطبة طويلة جدا وشكلت الأحاديث مرتكزها وعمادها، فالكاتب ابن أبي الخصال يُغني الخطبة بهذا الاستحضار المكين من المرجعية الحديثية فيوظف الأحاديث بصورة مباشرة قائلاً:

(... ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)) [١]، و ((ثلاث من كُنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ،من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) [٢] ويستمر الكاتب في شحن رسالته بالمرجعية الحديثية العميقة التأثير في نفسه فهو يورد الأحاديث بصورة مباشرة ليقدم النصح للمؤمنين فأفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده فكف أذاه عنهم ،وعاش بينهم بالحسنى، والعلاقة الطيبة فالكاتب يذكر في رسالته الدستور الإسلامي الذي يحث على الأخلاق الحسنة ويسترفد الكاتب الأحاديث النبوية المباركة التي تحث على العلاقة الطيبة بين المسلمين ويستثمر في ذلك تجمع حشد من الناس لخطبة العيد فيذكرهم بالدستور الذي سنه الإسلام ،وطيب العلاقة التي أحبَّ الإسلام أن تكون بين المسلمين فيستحضر أحاديث أخرى عديدة منها قول الرسول(صلى الله عليه واله وسلم)((والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبدٌ حتى يحب لجاره - أو قال: لأخيه - ما يحب لنفسه))[٣]وقال(صلى الله عليه واله وسلم) ((لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه))[٤]وقال(صلى الله عليه واله وسلم) ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ،فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[٥] وقال(صلى الله عليه واله وسلم)((لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم))[٦]وقال(صلى الله عليه واله وسلم) (((أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ))[٧] وقال(صلى الله عليه واله وسلم)((وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ))[٨] وقال (صلى الله عليه واله وسلم)((لا ترغبوا عن آبائكم ، فمن رغب عن أبيه فهو كفر))[٩]

---

(١) الجامع الكبير:٥/ ٢٧٦ وصحيح مسلم ٣٩٤/١ شرح صحيح البخاري:٥٧/١
(٢) صحيح مسلم: ٣٩٦/١ والجامع الكبير: ٣٦٧/٤
(٣) صحيح مسلم: ٣٩٨/١
(٤) نفسه:٣٩٨/١
(٥) نفسه: ٤٠٠/١
(٦) الجامع الكبير: ٤ /٤١٩ وصحيح مسلم ١/ ٤٠٦
(٧) صحيح مسلم: ٤١١/١
(٨) نفسه:١ /٤١٢
(٩) نفسه:١/ ٤١٣

وقال(صلى الله عليه واله وسلم)((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))[١] ((بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ))[٢] و((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ))[٣] ((من حمل علينا السلاح فليس منا))[٤] و((وَمَنْ غَشَّنَا ، فَلَيْسَ مِنَّا))[٥]((مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعا بِدَعْوى الْجاهِلِيَّةِ فليس منا))[٦]((ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم يوم القيامة : المسبل إزاره، والمنان، والمُنَفِّقُ سلعته بالحلف الكاذب))[٧] وقال ((منْ قُتِل دُونَ مالِهِ فهُو شَهيدٌ))[٨]

فالكاتب حَشد عدداً من الأحاديث النبوية المباركة ،ووظفها بشكل مباشر، من أجل تأكيد فكرته التي أراد ايصالها ومن اجل تقديم النصح والارشاد للحاضرين مستثمراً المناسبة التي احتشد فيها الناس وهي خطبة عيد الأضحى ليذكرّ المؤمنين ببعض أحكام الإسلام ودستوره ،فاختار لذلك التأكيد والتذكير المرجعية الحديثية الواسعة التي أمدته بما يلائم رسالته فقد تعرض لما ذكره الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) من وجوب الاحترام بين المؤمنين وأنهم كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ،ويجب أن تسود المحبة بينهم بدل البغضاء ،والحقد والحسد وعليهم احترام الجار، وعليهم بصلة الأرحام والابتعاد عن كّل ما حرم الإسلام، فالرسالة طويلة وفيها عدد كثير من الاحاديث التي استحضرها الفقيه الكاتب ابن أبي الخصال الأندلسي، وقد اقتصرت الباحثة على ذكر بعض هذه الأحاديث، وذلك لكثرة الأحاديث الواردة في الرسالة ،فالرسالة عبارة عن توظيف للأحاديث النبوية المباركة بشكل مباشر، ولكن هذا التوظيف جاء عن معرفة ودراية وتناسق فني رائع ،وكشفت هذه الرسالة عما يحمله الكاتب من ثقافة وسعة اطلاع على الأحاديث النبوية المباركة، التي شكّلت مرتكزاً من مرتكزات رسائله، وتحتم ثقافة الكاتب العالية عليه، أن يضمّن رسائله شيئاً من الحديث النبوي الشريف ،فجاء التوظيف في

(١) مسند احمد: ٦/ ١٥٧
(٢) صحيح مسلم:١/ ٤٢٤
(٣) نفسه:٤٣٢/١
(٤) صحيح مسلم:٤٤٠/١
(٥) نفسه:١/ ٤٤١
(٦) نفسه:٤٤٢
(٧) صحيح مسلم، ١/ ٤٤٥
(٨) نفسه:٤٨٠ ومسند احمد :٢٨/٢

هذه الرسالة فاعلاً ومؤثراً تأثيراً ،لافتاً فهو قلب الرسالة النابض وروحها ،إذ يرتكز على الحديث النبوي الشريف في كلّ فقراتها .

وفي رسالة أخرى وظّف ابن أبي الخصال الحديث النبوي أيضا ، إذ قال في إحدى رسائله:

(... وتتراءاهُ فلقةُ قَعبٍ من لُجَيْن؛ وَنُكبِرُهُ، ونكبر ونَصومُ لرؤيتهِ ونُفْطر، ونَستَنِيره نِضواً نَاحِلا فَيَبدُن ويُقمرِ؛ حتى إذا بَسَقَ واتسق...) (١).

وهنا استدعاء لقول الرسول الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) (((صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ)) (٢)

فجاءت قدرة الكاتب التي أتاحت له هذا التداخل والاستدعاء من المرجعية الحديثية فقد بثَّ الحديث النبوي الشريف في أثناء نصه النثري ليجعله متكأً له، وليُسهم هذا التداخل بمد الرسالة بالعمق والكثافة التعبيرية.

وقال في رسالة أخرى (...هذا -وأبيك – العذبُ الزُّلال، والسحر الحلال، وعَفو القريحةِ، وسُلافة الفِطَنَ الصَّريحة...) (٣).

فالباحثة تلمح إشارة إلى الحديث النبوي الشريف ((إنّ من الشعر لحكمة، وان من البيان لسحرا)) (٤) فقد تمثل في المقطع النثري معنى الحديث الشريف، فالكاتب حاول الانتفاع من الحديث النبوي الشريف ويعبر عن الغاية التي قصدها فأخرجه إلى قالب جديد، إذ نفذ الكاتب إلى أعماق الثقافة الحديثية ليستدعيها في بناء صورته الفنية وتشكيلها، وليحدث تقارباً

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٩٢
(٢) مسند احمد: ١٧٥/٤
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٢٨
(٤) مسند الشهاب:٩٨/٢

في المسافات ،بين معاني الحديث الشريف ومضامينه ،وبين أبعاد تجربته لتلقي تحت مظلة التعبير الديني في تقارب نصوصي لا يخرجها عن حدود الدائرة الثقافية الدينية [١].

وهذا يكشف لنا عن عمق الثقافة الحديثية التي تمتع بها ابن أبي الخصال والتي بدت جلية في رسائله.

وفي رسالة عارض فيها الحريري قال (...وهجرتُ ما هجرتَ فقلت لا أطلب أَثراً بعد عَين ولا أُلْسَعُ من جُحرٍ مَرّتين...) [٢]

إتكأ الكاتب ابن أبي الخصال ،على الحديث النبوي الشريف ((لا يُلسعُ المُؤمن من جحرٍ مرتين))[٣] فالحديث النبوي الشريف أثّرَ في النص واغنى دلالته فالكاتب حتمت عليه ثقافته الدينية الرجوع اليها للاسترفاد منها ما يراه مناسباً لسياق رسالته فهو يؤكد عمله بما قال الرسول الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) في المؤمنين فهو يقول (ولا أُلْسَعُ من جُحرٍ مَرّتين) فعلى المؤمن الحذر والتحلي بالفطنةِ والذكاء فالرسول (صلى الله عليه واله وسلم) يحذِّر المؤمنين من عدم الاتعاظ " فهو يشبههم بالذي لُدغ من جحر مرة فشفي وسلم ثم لم يأخذ من الجحر حذره فعاد ليُلدغ أخرى تقضي عليه"[٤]

وهذا تشبيه رائع وصورة جميلة فجرت مثلاً، والكاتب أدرك ما لهذه الصورة من تأثير على الرسالة فجاء بالحديث في سياق رسالته محوراً فيه ونافياً عن نفسه عدم الحذر وأخذ الحيطة فهو يقول انا لا أخدع مرة أخرى ولا أسمح لأحد أن يلسعني كصاحب الجحر الذي خُدع وتغافل حتى لُسع وانتهى أمره .

فكان للحديث أثرٌ فاعلٌ في إنتاجية النص وتحقيق إيجابية عالية وأهمية فاعلة في التأثير في المتلقي وتذكيره بالأحاديث النبوية المباركة بطريقة الكاتب الخاصة والتي عكست صلته بالحديث الشريف وتعمقه به.

---

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الاندلسي :١٠٢
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٤٤٤
(٣) صحيح مسلم:٤٠٥/٧
(٤) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية :١٩٢

الفصل الثاني

المرجعيات الأدبية

المبحث الأول: الشعر العربي

المبحث الثاني: الأمثال

الفصل الثاني

المرجعيــات الأدبيــة

إنّ استحضار الموروث الأدبي والتأثر به ،أمرٌ كَثر عند الأدبـاء، فالأدبـاء لـم يغفلـوا عـن أهمية هذا الموروث الأدبي الواسع والغني الذي يُثري نتاجهم ويستمدون من صـوره ومعانيـه، ويعتمد الأديب في ذلك ،ثقافته وما اختزنته ذاكرته من ذخائر الأدب العربي فيوظفها بمـا يلائـم الغرض الذي قصد توصيله، وأشار رولان بارت إلى "أن كل نص هـو نسـيج مـن الاقتباسـات والمرجعيات والأصداء وهذه لغات ثقافية قديمة وحديثة، فالاقتباسات التـي يتكـون منهـا الـنص مجهولة المصدر ولكنها مقـروءة فهـي اقتباسـات دون علامـات تنصـيص"(١) فالاتكـاء الثقـافي على الموروث الأدبي كَثُرَ عند ابن أبي الخصال ،إذ يعدُّ الكاتبُ خيـرَ مـن اسـترفد مـن الشـعر العربي، إذ استوعبت رسائله مضامينَ عدة من التراث العربـي الأدبـي ،وسـاعده فـي ذلـك مـا يمتلكه من ثقافةٍ واسعة وشدة تأثر بالموروث الأدبي، لما في هذا المـوروث مـن معـانٍ طريفـة ودلالات مُتعددة .

فوجد في التراث الأدبي مُعِّبراً عن جميع ما يطرقهُ من موضوعات، وأغراض وقـد اتخـذ استدعاء الموروث والعودة إلى المرجعية الأدبية النصية اشكالاً عدة، سواءً أكان شعراً أم نثـراً أم توظيفـاً للأمثـال العربيـة القديمـة والحديثـة ،فاسـتطاع ابـن أبـي الخصـال الاسـتفادة مـن استحضار الموروث وتسخيره لخدمة نصِّه ومقصده.

بيدَ أنّ هذه الاستفادة من استحضار الموروث تعتمد على صلة الأديب بمرجعياته النصـية ،وعمق اطلاعه عليها ،وتأثره بها، ولمّا كان أديبنا -موضوع البحث-ذا صـلة وثيقـة بـالتراث - في مختلف جوانبه – ومنه الجانب الأدبي، فإن هـذا لاستحضـار المكـين لمخزونـه الثقـافي قـد عمِلَ على ترصين بنائه الأدبي، وتعميق أفكاره وسنرى -ان شاء الله - في هـذا الفصـل المـدى الذي بلغه هذا الاستدعاء لمرجعياته الأدبية -شعراً كان أم نثراً - وأثرها فـي نصوصـه النثريـة

(١) التناص نظرياً وتطبيقياً، احمد الزغبي، مؤسسة عمون للتوزيع والنشر، الأردن ،٢٠٠٠م، ١٣.

-لاسيما رسائله التي بين أيدينا- وَلْنقفْ على فاعلية هذا التأثير وثمرة تأثر الأديب ابن أبي الخصال بمرجعياته المنوّه إليها.

وابن أبي الخصال ذو الثقافة الأدبية العميقة ، مكنته هذه الثقافة أن يقتطع أبياتاً أو جزءاً من أبيات ويدخلها في نصه ،أو قد يستلهم فكرة، لتحاورها غيره من الشعراء الذين سبقوه ولكن هذه الفكرة تثير في "ذهن المتلقي دلالاتٍ وصوراً أو ومضاتٍ تقرّب بها المعاني ... التي يُريدها الشاعر"(١) فالأديب يستحضر ما اهتم به من معاني الشعراء وصياغتهم لأنّ الشعر يُعدّ الحصيلة الرئيسة من التراث الشعري الذي تتناهى إليه عبر قرون عديدة (٢) .

فالكاتب يستمد من الشعر العربي صوره ومعانيه، واعتمد في ذلك على ثقافته وما اختزنته ذاكرته من ذخائر النصوص العربية العريقة.

(١) ثقافة المتنبي وأثرها في شعره، هدى الارناؤوطي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٧م،٧٧.

(٢) إثر التراث في الشعر العراقي الحديث، علي حداد، دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والاعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، ط١ ،١٩٨٦م، ١٠٦-١٠٧.

المبحث الأول

الشعر العربي

إنّ من أراد التعرّف على التراث العربي والثقافة العربية، عليه الرجوع إلى الشعر العربي، لأنَّ الشعر هو صناعة امتاز بها العرب وأجادوا فيها، وهو سجلهم الذي يثبتون به كلَّ ما يَمرُ بهم لذلك قيل إنّ الشعر ديوان العرب ،ولا عجب ،فالشعر أوسع مجالات الأبداع والفن انتماءً إلى الماضي ومحافظة على اصوله التي ينتمي إليها ،والشاعر- هو الآخر - الذي ما انفك تأثره بالماضي يعَدّه (أي الشاعر) يغذي عواطفه وعقله على مآثر الماضي[1] فالاستحضار لنصوص الشعراء يُفترض أن يكون استدعاءً فنياً باعثاً على قوة البناء وعمق المعاني خآدماً للمضمون، وإلّا فهو استدعاء خالٍ من البناء وروح الإبداع، فهذا استدعاء ثقافي مشوَّه إذ لا يستطيع النص الجديد إنتاج دلالة مقبولة وفي هذا يقول الدكتور عبد الله الغذّامي " تزداد أدبية النص كلما زادت قدرته على انتاج الدلالة الضمنية"[2] فكانت القبيلة العربية تحتفل إذا ولد لها شاعر، وهذا راجع لقيمة الشعر عند العرب ،فشكل الشعر العربي موروثاً قيّماً أخذ الأدباء ينهلون منه ،والأدباء الأندلسيون عادوا إلى هذا الموروث القيّم ،وأخذو يرجعون اليه في أدبهم سوا كان شعراً ام نثراً ،فيأخذون من الصور الشعرية والألفاظ التي حفل بها الموروث الأدبي.

ويَعدُّ ابن أبي الخصال من الأدباء الذين استحضروا الشعر العربي في رسائله ،لما امتاز به هذا الشعر من أتفاق وصدق في التعبير، وقوة سبك، وفصاحة اللفظ ،فعاد الكاتب إلى التراث الأدبي واستقى منه ما يُغني نصه ،ولم يقتصر ابن أبي الخصال على شاعر واحد أو عصر شعري واحد ،فقد اختلف الشعراء الذين أُخذ من شعرهم، وكذلك عاد إلى الشعر الجاهلي والإسلامي، فضلاً عن الشعر الأموي والعباسي وكذلك رجع إلى الشعر الأندلسي كشعر ابن زيدون وابن خفاجة وابن هاني وغيرهم، فالكاتب يعود إلى الشعر العربي ويضمّن

(١) الشعر والتجربة، ارشيبالد مليكش، ترجمة وتحقيق: سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت،١٩٦٣م،١٣.
(٢) النقد الثقافي -قراءة في الأنساق الثقافية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، لبنان، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م، ١٧.

رسالته بيتاً او بيتين، او شطراً من بيت، مستثمراً التشابه بين موقف الشاعر وموقفه هو فيوردها ضمن نص رسالته، أو لرغبة الكاتب في استحضار شيء من التراث وتوظيفه توظيفاً جديداً يكشف عن مدى براعته وصلته بالتراث ،وكثيراً ما يعمد ابن أبي الخصال إلى حلّ المنظوم الشعري وتوظيفه في رسائله النثرية ليُعطي المعنى الذي يُريد التعبير عنه .

فالمرجعية النصية في أي ثقافة من الثقافات تمثل فضلاً عن بنائه النصي ونطاقه التركيبي، طاقة توليدية لدلالات جديدة تتوالد في مالا نهاية له من النصوص [1]

وهكذا يكون التضمين دالاً على قدرة الأديب ومهارته الإبداعية وقوة قدرته على التضمين الهادف المفضي إلى انسجام الأبيات او المقاطع المضمنة مع خطاب الشعر وتجربته الوجدانية.

(١) ينظر: ظاهرة التعالق النصي في الشعر السعودي الحديث، د. علوي الهاشمي، مؤسسة اليمامة السعودية الصحفية ، الرياض، ١٩٩٨م، ١٣.

١- الشعر ما قبل الإسلام:

لقد شكل الشعر الجاهلي عنصراً أساسياً ومنهلاً عذباً نهل منه الأدباء الأندلسيون، فأخذوا بمحاكاة القصيدة الجاهلية والأخذ من الصور الجاهلية ، متخذين من الشعر القديم أنُموذجاً مثالياً وفنياً عالياً يجمع الأنماط الشعرية المتطورة [١]وابن أبي الخصال وهو الأديب الاندلسي قد تأثر بالشعر المشرقي وضمنه في رسائله فقد وجد فيه ضالته، ومن الشعراء الذين تأثر بهم ابن أبي الخصال امرؤ القيس فقال في احدى رسائله:

(...وهذا حظّ أَدناه يُؤذِنُ بأقصاه، وأُولاه تُومئ إلى مُنتهاه، واللهُ يُيَمِّنُ ذلك السَّفَر، ويُبَوَّئُكَ صورَ المجدِ أكبرَ أكبر...) [٢]

فقد استحضر قول أمرئ القيس:

وَكُنّا أُناساً قَبلَ غَزوَةِ قُرمُلٍ وَرَثنا الغِنى وَالمَجدَ أَكبَرَ أَكبَرا[٣]

وهذه الرسالة تدل على الطيبة بين الكاتب والمرسل إليه، فهو يصبّره على ما أصابه ويدعوه إلى تسليم أمره لله، فهو القادر على إبدال حُزنه فرحاً ،ووظَّف لتلك الفقرة قول امرئ القيس وكيف تغيّر حاله بعد غزوة قرمل، وكانت له قبل هذه الغزوة أيامٌ كلُّها غنىً وأمجاد فيماثل الكاتب بين موقف المرسل اليه، وحاله وحال امرئ القيس، فكلاهما أصابه البلاء وابدلت الأيام حالتهم من المجد والغنى ،فالكاتب وبفضل ما أوتي من ثقافة أدبية ،وحفظ للموروث الأدبي ، استطاع توظيف البيت الشعري المناسب في مكانه المناسب، وقد نقل الكاتب البيت من الشعر إلى النثر ودمجه في رسالته في قالب واحدٍ يدّلُ على ثقافته وسعة معرفته .

---

(١) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، نوري حمودي القيسي وآخران، مطبعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الموصل، ط٣، ١٩٨٩م، ١١٧.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٩٠
(٣) ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط٤، ٧٠.

ويستحضر ابن أبي الخصال ما يناسب رسالته ويُضفي عليها قوة تثري الرسالة فيعود إلى مرجعيته الأدبية الغنية، ويستحضر منها ما يلائم الغرض الذي أراده، فهو يشبّهُ حالَ المرسَل إليه بحال امرئ القيس الذي تغيّر حاله بعد غزوة قرمل، وهو المعروف بالمجد والغنى فتغير حاله كما تغير حال المرسل إليه، بعد أنْ فقد أمواله، ويدعو للمرسل اليه بالصبر ويذكره بأخبار من مضى، وكل هذا يعتمد على حافظة قوية ومرجعية أدبية رصينة مكنته من هذا الاستحضار والملاءمة بين الحالين(حال الشاعر وحال صديقه) فيكشف هذا التداخل في سياق الرسالة عن قدرة إبداعية عالية وتَفنّنٍ في صياغة رسائله بأسلوب شائق غنيٍّ ،أغنى دلالته بالرجوع إلى الموروث الأدبي العريق.

وقال في رسالة أخرى (...وهذا ذُو القُروح أَمر التي وُسِمَت بحبّه، وقَدحت بسهمَيْها في أَعشارِ قَلْبه أَن تحلَّ معقودَ أَسْبَابه، وتَسُلَّ ثيابها من ثيابِه ولقد بكى صاحِبُه لّما رأى الدَّرْب وفارق العُرْب، فنَهى الدَّمع وكَفّ الغَرْب...) (١).

يضمن ابن أبي الخصال هذا المقطع من الرسالة عدداً من أبيات أمرئ القيس ومنه قوله:

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلاَّ لِتَقدحي بِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ(٢)

فهو يذكر امرأ القيس في رسالته، ويُشيرُ إلى قوله إنّ حبها أصابه كما أصاب السهم المرمى ويذكر ايضاً قوله:

وَإنْ كنت قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ فسُلّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ(٣)

فأمرؤ القيس يقول لمحبوبته إنْ ساءتك خصلةٌ من خصالي ففارقيني إذا أحببتِ، فهو لشدة حبه يؤثر ما آثرته هي، فإن اختارت الفراق قبل به، وإن كان هذا الأمر يؤذيهِ ويُتعبهُ وما ذلك الا لشدة حبّه لها، فاستحضر ابن أبي الخصال هذا المعنى (وسلي ثيابي من ثيابك تنسل) بمعنى تفارقه وتتركه وضمن أيضا قول آمرئ القيس:

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٤٠٣
(٢) ديوان امرئ القيس:١٣
(٣) المصدر نفسه:١٣

بَكى صَـــاحِبي لمّا رأى الدَّرْبَ دُونـه وأيقنَ أنـا لاحِقـاَنِ ِبقَيْصـــَرَا
فَقُلْـتُ لـَهُ لا تَبـْكِ عَيْنـُكَ إنَّمـا نحُـاوِلُ مُلْكـاً أوْ نُمـوتَ فَنُعْـذَرَا[1]

فها هو يعود إلى التضمين من الشعر الجاهلي ويختار حامل لواءِ الشعراء امرأ القيس وما تميّز به شعر هذا الشاعر من قوة ، فيشكل ابن أبي الخصال قطعة من رسالته مكونة من شعر امرئ القيس، لتخرج هذه القطعة بصورة رائعة فهو يذكر الموقف الذي كان بين الشاعر وحبيبته، فهو الذي أصاب حبّها قلبه كالسهم الذي أصاب المرمى، أن يفارقها وذلك لحبه لها ولأن الفراق رغبتها فهو لشدة حبّها لا يستطيع معارضتها.

فيستحضر الكاتب النصوص الأدبية وينثرها في رسالته، لتتداخلَ هذه النصوصُ الرائعةُ في سياق الرسالة، وتتفاعل لتنتجَ لنا قطعةً أدبية تدّلَ على إبداع كاتبها وتفننه في استحضار الموروث الأدبي وحُسن استثماره في نطاق الرسالة.

ووظَّف الكاتب عددا من أبيات امرئ القيس في رسالة أخرى من رسائله إلى أحد اصدقائه من ذوي الشأن قال فيها:

(...وعلى ذلك فكُلاًّ استطَاب، ومِنْ كلّ أصاب، وبالأَشقْين ما كانَ العِقابِ...) [2]

فأورد الكاتب بيتاً من شعر امرئ القيس في قوله:

وقـــاهم جـَـدُّهم ببنـــي أبـــيهم وبالأشـــقين مـــا كـــان العقـــاب[3]

فليت انّ العقاب لم يكن لبني كنانة، وهم كانوا أشقياء البخت في هذا العقاب، فضمن الكاتب في رسالته شطراً من بيت امرئ القيس في سياق نص سلس وبسيط فالكاتب يوظف هذه النصوص المختارة مع نص رسالته بحيث تكون منسجمةً ولها القدرة على تجسيد الفكرة التي أرادها الكاتب.

(١) ديوان امرئ القيس:٦٥-٦٦
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٢٨
(٣) ديوان امرئ القيس:١٣٨

وقال ايضاً (...وشمسٍ تَسْتَلبُ النُّهى؛ من كلِّ مُتَفضّلٍ تُعشي محاسِرهُ ومُتبذّلٍ تبدو مَحاسِنُه يضَعُ السّهامَ مواضِع القَتل، ويقتادُ القلوبِ بكُلّ مُغار الفتل...) (١)

فضمن الكاتب رسالته من قول امرئ القيس:

فيا لك من ليل، كأن نجومه بكل مغار الفتل شُـــدَّتْ بيذبل (٢)

فإنّ الليل طويلٌ لا ينجلي وكأن نجومه شُدت بحبل فلا تستطيع الأفول،تعبيراً عن طول الليل وعدم انقضائه لكثرة الهموم التي يعاني منها الشاعر، فأخذ ابن أبي الخصال هذا البيت ونثره في رسالته، فالكاتب يوظف البيت في سياق آخر يقول (ويقتاد القلوب بكل مغار الفتل) ومغار الفتل هو الحبل الشديد القوة فكأن القلوب تقتاد له بحبل كما عبّر عن هذا المعنى امرؤ القيس.

وفي إحدى رسائله وظَّف صدر بيت لامرئ القيس، واختارهُ ابن أبي الخصال، وابتدأ به رسالته فقال (...أَلاَ عِمْ صَباحاً أيُّها الطَّلَلُ البالي! وأعزز عليَّ أنْ أضربَ هذا لِوُدّك مثلاً وأدعوه- على قُرب العهدِ طللاً...) (٣) .

واختار ابن أبي الخصال هذا البيت المشهور لأمري القيس

أَلا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَّلَلُ البالي وهل يعمنْ مَنْ كان في العُصُر الخالي(٤)!

وعم صباحاً هي تحية تلقى عند الصباح فقد اختار الكاتب تحية المرسل بتحية من الموروث العربي ، وكانوا يقولون عند المساء عمت مساءً، فالكاتب يُثري نصوصه بما ورد من التراث العربي ويوظفه بما يلائم مقصده ويُضمن رسائله ما يجده مناسباً لقصده وغرضه ويوظفه في رسالته في مداعبة بعض الأصدقاء والخلان، فيحييهم بتحية استوحاها من العصر الجاهلي وهذا التداخل مع النص الأدبي أضاف حركة وجمالاً للنص.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٤٣٨
(٢) ديوانه: ١٩
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٤٦٦
(٤) ديوانه:٢٧

فابن أبي الخصال هو شاعرٌ أيضاً ويسعى لإعطاء الشعر مساحة في رسالته وعدم الاكتفاء بالنثر، لأضفاء إلتنوع على الرسالة ودفع السأم عن المتلقي ، فيضفي على رسالته تأثيراً عن طريق العودة إلى الموروث الأدبي والذي عكسه هذا التوظيف المباشر للبيت هو عمق ثقافة الكاتب وإبداعه وتفننه في رسائله ، وسعيه إلى مدّ الجسور بين الماضي والحاضر وهذا دعاه إلى استرفاد الأبيات الشعرية العربية ووضعها في سياق نصه النثري.

وقال في إحدى رسائله:

(...واللهُ جَلّت قُدرته يرمي أمورَكَ بالتَيسيرِ والتمامِ، ويجعلُ قضاءَ لُبناتك على طرفِ الثُّمام..) (١) ولعله ناظرٌ الى بيت امرئ القيس الشهير:

خليليَّ مُرَّا بي على أُم جُندَبِ نُقَضِّ لُبانـاتِ الفؤادِ المعذَّبِ (٢)

فالكاتب ابن أبي الخصال يستقي من الموروث العربي فقد تأثر الكاتب الاندلسي بالشعر الجاهلي وشعرائه المبدعين فكان من الطبيعي ان نجد آثار تلك الثقافة الأدبية العريقة في نتاج الأندلسيين فكان الأندلسيون يترجمون عن تجاربهم ومشاعرهم بفن مشرقي، فإن الاندلس تستعير من المشرق موضوعات شعرها ومعانيه وكلّ ما يتصل به استعارة تكاد تكون طبق الأصل (٣) فالكاتب ابن ابي الخصال تأثر بشعر امرئ القيس ومكنته الموهبة العالية التي يمتلكها أنْ يصوغ هذا الشعر بما يخدم رسالته وغايته التي أراد إيصالها في استحضاره لهذا الموروث الأدبي الجميل.

واتكأ ابن أبي الخصال في رسالته التي اعتذر فيها عن المقامة القرطبية فجاء بأبيات النابغة لتعِّبرَ عن الغرض الذي قصده فقال: (.. نعم- ادام اللهُ سَعْدَكْ – تَحوُّلاً إلى الكافِ، وإسناداً من الاعتراف بحقِّك إلى كافٍ

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٣٤
(٢) ديوانه:٤١
(٣) ينظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف -مصر، ط٩، ٤٣٨.

وعيدُ أبي قابوسَ، في غيرِ كُنهِهِ أتاني، ودوني راكسٌ، فالضواجِعُ [١]

فانطويت على حريق وتَعلَّلتُ بِرَحيق...) [٢]

فقد ضمن رسالته بيت النابغة بشكل مباشر بدون تدخل منه في تغيير البيت، وهذا البيت يعتذر فيه النابغة، وأبو قابوس كناية عن النعمان بن المنذر، فوظّف ابن أبي الخصال هذا البيت في سياق رسالته في الاعتذار عن المقامة القرطبية، فاستثمر المواءمة بين الموضوعات وهو الاعتذار، فوظفها في سياق رسالته ،فإنّ الكاتب قد جاء بالنص الذي يناسب رسالته وفي هذا الصدد يقول د حسين رستم" وانه متى ما كان ذلك الاتكاء الثقافي على النص القديم- الأخذ منه-واستلهامه والاستفادة من مشاربه الثقافية ، والأدبية يولد القدرة على الخلق الإبداعي ،والفني ويضمن حالة إضافية من الإبداع ، والتكثيف الدلالي الايحائي ،يكون الشاعر حينئذ قد أسهم في توافر زاد ثقافي ماضوي ينمّي ملكته الإبداعية، وموهبته الشاعرة ويُسهم في إثراء سياقه الشعري وشحنه بطاقة لا حدود لها فيجعله مفعماً بالأفكار والمعاني "[٣]

وله رسالة إلى أحد الفقهاء القضاة يوصي بصهره أبي جعفر بن سليمان (...وكرَّ التعقُّب منه على رَمقٍ خافتٍ وذَماءٍ، ولَمَا بغتَتْهُ هذه البَديهة، والحادِثَةُ الكَريهة، عَوَّل على الاستِسرار، وطوى كَشْحاً على الفِرار؛ فأشفقت الحالة ...) [٤].

يوصي الكاتب في هذه الرسالة بصهره إلى أحد الفقهاء فيبتدئ الرسالة بمدح ذلك القاضي وأنه القاضي لحاجات المحتاجين، وإنّ صهره قد تَعِبَ من فساد الزمان الذي تولى فيه الأحمق المناصب فلم يعطِ الناس حقوقها فاستعان الكاتب ابن أبي الخصال بعبارة من الموروث الأدبي ليعّبر عن حاله ذلك الرجل (صهره) وما أضمره في نفسه بقوله (طوى كشحاً على الفرار) أي أضمر ذلاً وأنه ليود ان يقضي له حاجته فيبعده عن الفقر هو واطفاله وقوله (طوى كشحاً) مأخوذ من الموروث الأدبي فقد ضمن من قول زهير ابن ابي سلمى:

(١) ديوان النابغة الذبياني تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط٢، ٣٢.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٣٥٨.
(٣) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الاندلسي :٤٦٠
(٤) رسائل ابن أبي الخصال :٩١

وَكَانَ طَوَى كَشْحاً عَلَى مستكنه فَلاَ هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَجَمْجَمِ[1]

فهذا الرجل (أبو جعفر) قد أضمر في صدره ما يؤذيه واستر ذلك الفقر والحاجة في نفسه.

وهذا التوظيف الرائع يدل على صلة الشاعر بتراثه الأدبي وتبحره فيه إذ يوظف العبارات والأشطر في رسالته نثراً وينقلها من سياقها إلى سياق رسالته ويجعلها مندمجة بها كأنها تعبر عما في نفسه ، مستثمراً ملاءمة تلك التضمينات لموقف الكاتب والغرض الذي أراد التعبير عنه.

ولا ترى الباحثة أنَّ هذا الاستدعاء كان يتّم بقصدية واعمال ذهن -بل كان -يأتي طوعاً وعفواً ويذكّر به الموقف الراهن والأجواء المماثلة، وتسعفه الذاكرة فتكون فنية بحسب ثقافة الشاعر وقدرة خياله على تأليف صور فنية مؤثرة مثلما رأينا في مقاطعه النثرية التي انطوت على مثل هذه الصور فالمرجعيات الثقافية-إذن- ولاسيّما النصية منها، ترفد الأديب بما يؤهل نصّه للفوز بالمجد الأدبي.

فالمرجعية الأدبية وبخاصة الشعرية التي تشكل التعبير عن الحياة أو هي فنّ من فنونها الجميلة المعبرة عنها بلفظة سائغة جذابة، تعدّ رافداً رئيسا وخِصْباً في تنمية الثقافة عند الأديب

ولما كان الشعر يعدّ أعلى درجات الفن التعبيري التأثيري ف (حين يذكر العرب في جاهليتهم يذكر معهم الشعر، فقد كان الشعر في ذلك العصر هو فن التعبير الأول الذي بلغ اقصى فن من حيث النضج والاستواء.. متغلغلاً في ضمير الانسان العربي مستوعباً لشتى جوانب حياته الروحية والوجدانية او الفكرية [2] لذا لا يستغرب ان ينهل ابن أبي الخصال كأمثاله الأدباء من معينه .

(١) ديوان زهير ابن ابي سلمى شرحه وقدم له، علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية لبنان -بيروت ،ط١ ، ١٩٨٨م،١٠٨ .

(٢) المكونات الأولى للثقافة العربية (دراسة في نشأة الأولى والمعارف العربية وتطورها)، عز الدين اسماعيل، مديرية الثقافة العامة،وزارة الاعلام (د.ت):١٧

واستدعى الكاتب شعر زهير ابن ابي سلمى بصورة مباشره في مقامته التي عارض فيها الحريري قال فيها (...حتى دفعت إلى الفَدّادين أهل الفَخْرِ والْخُيَلاء، فألفيتهم كما قال زُهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل[١]

قال: فبينا نحن بخناصرة إذْ نشأتْ بَحريّة فَجعلت تسحَّ ولا تَشحّ...) [٢]

فالكاتب لا يكتفي بالعودة إلى الموروث الأدبي وأخذ الصورة والمعنى او اللفظ، بل يعمد أحياناً إلى بعض الشعر العربي ويورده في الرسالة موظفاً إيّاه بشكل مباشر، بدون تدخل منه في تغير البيت او تحويره وهذا تضمين مباشر، اذ يقوم الكاتب بإحضار بعض الأبيات واختيار المكان المناسب لها في رسالته ووضعها لتعطي الدلالة والفكرة التي أراد ابن أبي الخصال التعبير عنها.

وقال (...ويقول: إنك لابنُ همّام منذُ الليلة!

يا حارِ لا أُرَمَيَنْ منكم بداهيةٍ لم يلْقَها سُوقةٌ قبلي ولا مَلِكَ[٣]

ثم اعْتنقني وُداً، واستحال الهَزْلُ جدّاً....)[٤]

فيورد الكاتب -عن طريق التضمين المباشر بيتاً- لزهير ابن ابي سلمى، ويوظفه بدون تغيير في الرسالة ليعبر عن الفكرة التي أراد التعبير عنها، فوظفه بشكل جميل ملائم للرسالة ومعبرٍ عن الغرض الذي أراده الكاتب.

(١) ديوانه:٨٧
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٤٢١
(٣) ديوان زهير: ٨١
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٢٧

وفي رسالة إلى الوزير أبي بكر بن عبد العزيز (...كتبتُ -ادام اللهُ عزَّهُ – والنَّشاط أُمنيةٌ تُزْوى، أو طَلَلٌ بِحُزْوى؛ والقلبُ صادٍ، والذُّكرة الّتي تَجذبُ الضُّلوع بِمرصاد؛ والوَرْدُ روضَةُ أبي بَصير، والشَّوقُ عَصا قَصيرٍ...) (١)

فقد ذكر الكاتب في رسالته شوقه إلى الوزير ووصف وروده عليه بروضة الأعشى أبي بصير وما تمتاز به هذه الروضة من جمال خلاب وطبيعة رائعة فهو يقول:

ما رَوضَةٌ مِن ْرياضِ الحَزْنِ مُعْشِبةٌ خضراء ُجادَ عليها مُسبلٌ هَطِلُ
يُضَاحِكُ الشَّمْسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤزَّرٌ بِعَميم ِالنَّبتِ مُكتهِلُ
يوماً بأطْيَب َمنها نَشْرَ رَائحةٍ ولا بأحْسَن َمنها إذ دَنَا الأصلُ(٢)

فهي روضة من رياض الحزن أي الأرض المرتفعة ،وهي أجمل من رياض المنخفضات لأن الريح تهب عليها فتهيج رائحتها والأمصار مسلبه عليها، أي منزلة وقوله مؤزر او جعل لهذه الروضة حلة تكسوها وهي تامة بالغة وأشار إلى ذلك بقوله مكتهل أي نضجت وبلغت وهي تنشر رائحتها الطيبة في كلِّ حين، وما أجمل هذه الروضة في الغروب فما أروع تلك الروضة !وما أجمل رائحتها! ومنظرها الجميل ، فالكاتب أشار إشارة خاطفة إلى هذه الروضة ولم يفصل في ذكرها ما يترك المجال للمتلقي والعودة إلى مخزونه الثقافي ويستحضر هذه الروضة وجمالها وهنا أراد الكاتب الربط بين الماضي والحاضر فقد استحضر الروضة من الماضي وربطها في رسالته إلى الوزير أبي بكر، وهذا يدلُّ على عمق العلاقة بين ابن أبي الخصال ومرجعيته الأدبية والتي استحضرها ووظفها توظيفاً مكيناً في رسالته المنوَّه بها، بشكل جميل مما عزز من قدرة التعبير وفاعليتة في هذه الرسالة لما توافر فيها من دلالات جمالية وفنية متنوعة .

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٥١
(٢) ديوان الاعشى، شرح وتعليق محمد محمد حسين، الناشر مكتبة الآدب بالجامبزت، المطبعة النموذجية ،٥٧.

(...ليَخلطَ مَجْدهُ بمجْدِكَ، ويَقْتَدِح سقطاً ساطعاً من زَندِك وإذا وافاكَ فقد بلغَ المَدَى، ووَجَد على النّارِ المحلَّق والندى ...) [١] ضمن الكاتب من قول الأعشى:

لَعَمْرِي لَقْد لاَحَتْ عيونٌ كَثيرةٌ إلى ضـــوء نـار بـاليَفَـاع تَحرَّقُ
تشـــبُّ لمقْرُرَيْن يصـــْطَليَانِها وباتَ على النّار النّدى والمحلَّقُ [٢]

فابن أبي الخصال أراد التعبير عن كرم المرسل إليه، ويُزكي فيه وزيره ويصفه بالكرم فاستعان بالتعبير عن ذلك، المعنى بقول الأعشى في مدح المحلَّق بن خَنثم بن شداد بن ربيعة الذي جعل الندى والمحلق في مكانة واحدة لبيان شدة الكرم ولذلك وظَّف الشاعر هذا البيت الشعري، فهو يولّد في ذهن المتلقي الصفات التي يمتلكها الممدوح من الكرم والغنى والجاه فالكاتب أحبّ أن يشير إلى كرم المرسل اليه، فاخذ من بيت الاعشى الذي يولد الإحساس بالتفاؤل ونيل العطاء، وضمنه في رسالته للتأثير في المتلقي والوصول إلى الغاية التي قصدها الكاتب .

وقال في رسالة أخرى: (...أما همام فَنجا وفَرّ، وأما الوَعِلُ فأَوْهي قَرنَهُ ومَرّ ولعل أَبا الفضل لو التَقت حَلَقتا البِطان ...) [٣]

يشير في رسالته إلى قول الاعشى

كناطحٍ صـــخرةً يوماً ليَفلقها فلم يضـــرها وأوهى قَرْنَهُ الوعلُ[٤]

فشبهه بناطح الصخرة الصلبة التي لا ينفع فيها النطح مهما بلغت قوته ، بل يُضاف إلى ذلك انه أوهى قرنه وجاء بذلك مثلاً للهمذاني الذي يكلّف نفسه مالا يُطيق ،ولا يتمكن من الوصول اليه ،فهو كالوعل الذي ينطح الصخرة فلا يؤثر فيها شيئاً ولا يضعفها مهما بلغت قواه فالصخرة أقوى منه بل يُضعف قرنه ويؤذيه وعاد في المقطع نفسه إلى قول اوس بن حجر

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٣٥٣
(٢) ديوانه:٢٢٣و٢٢٥
(٣) رسائل ابن أبي الخصال :١٤٨-١٤٩
(٤) ديوانه :٦١

وازدحمت حلقتا البطان بأقْ وامٍ وطارَتْ نفوسهم جزعا [1]

فابن أبي الخصال يوظّف في هذه الفقرة من الرسالة، عدداً من الأبيات الشعرية وقوله (ولعل أبا الفضل لو التقت حلقتا البطان) كناية عن اشتداد الأمر وتعقده فالكاتب يعود إلى الموروث الأدبي ويستحضر ما يناسب الرسالة من الشعر العربي فيعمد إلى توظيف الشعر في رسالته وتحويله إلى نثر لينسجم مع الرسالة وينصهر معها ليعطي دلالة رائعة تعبرّ عن قصد الكاتب وغايته، فالكاتب أحسن استثمار النصوص الأدبية المستدعاه والاتكاء على مضامينها ودلالتها بتفننٍ عالٍ وابداعٍ يكشف عن عمق الثقافة الأدبية التي تمتع بها الكاتب ابن أبي الخصال.

وفي رسالة إلى بعض الكبراء يعتذر عن دعوة وجهت اليه (...يا عمادِيَ الأَعلى، وكبيريَ الموقَّر المْفَدّى، ومُنيري الأَ شرق الأهدى، الذي ينمُّ على ضميره ما أبْدى، ويُحيي ما درَس من آثارِ الْمُروءة والنّدى، ويدعو إلى مأدبةٍ حينَ انْتَقر النّاس الْجَفلى؛ ولا زالت نارُك توقَدُ باليَفاعِ...) [2] فالكاتب أحسن توظيف قول طرفه بن العبد في هذا المقطع النثري وهو قوله:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر [3]

فالكاتب يصف المُرسل إليه بالكرم وانه يعمم بدعوته إلى الطعام ولا يقتصر على دعوة أناس معينين، بل دعوته عامه لا تخصّ أحداً من دون غيره وهذا دليل على شدة كرمه فهو الداعي إلى الطعام في الشتاء استحضر الكاتب قول طرفه بن العبد ووظفه في الرسالة فهم الداعون إلى الطعام في أيام الشتاء وإنّ الأديب أي الداعي إلى الطعام لا يخصّ أحداً دون غيره.

(١) ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم، الجامعة الامريكية -بيروت دار بيروت للطباعة والنشر-بيروت ، ١٩٨٠ م، ٥٤.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٩٧-٩٨
(٣) ديوان طرفه بن العبد شرح مهدي محمد ناصر الدين، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٣ ،٢٠٠٢م، ٤٣

فابن ابن أبي الخصال نقل المعنى إلى سياقه في نص رسالته فهو يقول إنَّ ذلك الرجل (المرسل اليه) يدعو إلى الطعام ويعمّم الدعوة، في حين أنّ الناس تخصّ ولا تعمم بالدعوة وهذا خير توظيف للنص الشعري ليدل على شدة كرم الداعي، إنّ الشعر العربي القديم مليئ بالإيحاءات والدلالات التي من شانها أن تضيف إلى الرسالة أبعاداً جماليةً ودلالية أخرى، وتضفي عليها قوةً وتنوعاً، فضلاً عن أنّ هذا الرجوع إلى الشعر القديم يديم الصلة بين الحاضر والماضي.

فكان هذا التوظيف جسراً ربط بين الأدب الماضي القديم والأدب الحاضر-عصر المؤلف- ليُثري رسالته بأجمل العبارات والصور الشعرية القديمة، فجاء النص الشعري ليدلل على شدة كرم الداعي الذي لا يخصّ أحدا بدعوته وهذه المأدبة التي يدعو اليها حتى في أيام الشتاء الباردة، فالشعر العربي القديم مليء بالايحاءات والدلالات التي من شأنها أن تُضيف إلى الرسالة أبعاداً جمالية ودلالية أخرى وتُضفي عليها قوة وتنوعاً فضلاًعن أنّ هذا الرجوع إلى الشعر القديم يُديم الصلة بين ماضي التراث وحاضره.

وهذا توظيف مكين يُوحي با لثقافة الأدبية للكاتب، وصلته بهذه المرجعية النصية العميقة والتي تتيح له التحكم في صياغة الموروث الأدبي بالشكل الذي يتلاءم مع مقصده ،ليضيف من الجودة والقوة مالا مثيل له، فهو حين يُريد الاعتذار عن الدعوة يقدم مقدمة رائعة استقاها من تراث أدبي عريق ليقول للداعي، إنه شديد الكرم ولكن ظروف الكاتب حالت من دون تلبيته للدعوة ثم يعتذر لعدم التلبية .

وقال في رسالة جوابية إلى صديق له: (...وأدركنا الكأس الرَّوِيَّةَ فَسرت حُمَيّاها على وجُوهٍ تُحَيِّنا الشّموسُ الطالعة من مُحَيّاها وجعلنا ما نفضَتْهُ غَدائرها ونفَحَتْهُ رَيّاها...) [1]

فقد اتكأ الكاتب على قول طرفه بن العبد:

متى تَأتني أُصبحكَ كأساً رَويّةً وإنْ كنتَ عنها ذا غِنى فاغن وازْدَد [2]

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١٧٨
(٢) ديوانه: ٢٤

فالكاتب يتكئ في رسالته على مضمون البيت الشعري الذي استحضره من التراث الشعري القديم وهذا التضمين" يفصح عن سعة محفوظ المبدع، وعمق ثقافته الأدبية وإطلاعه على مدونات اشعار السابقين أولئك الذين يمثلون للشاعر الجديد منبعاً خصباً وعنصراً يمده بالمعطيات الثقافية التي يتكئ عليها بناء نصه الإبداعي، وفي التعبير عن تجربته الجديدة بأبعادها المختلفة "[١] فالكاتب يعبّر عن صلته الوثيقة بالتراث العربي باستحضار الموروث الأدبي القديم وتوظيفه بشكلٍ رائعٍ يخدم الرسالة ويمنحها جمالاً.

ولابن أبي الخصال رسالة يهنئ عاملاً بولايته:

(...فالحمدُ لله الذي أَحيى الأَعمال منك بزادَانها، من بعد ما ضرب على آذانها، فشول الفيء تُكسعُ بأَ غبارها، وعُلب الْحَلب تملأ إلى أَصبارها؛ فهنيئاً لراعي الأُمّة...)[٢]

فالكاتب يهنئ العامل بالولاية ويسدي إليه النصيحة ان يحسنها، فقد استرفد قول الحارث بن حلَّزة وضمَّنه في نصه بإتقان ودقة عالية، فهو يريد نصح العامل بحسن استثمار منصبه فعاد إلى موروثه الأدبي واستقى منه شطر بيت من قول الحارث ونثره وغير بالضمائر فقال (فشول الفيء تكسع بأغبارها) فهو من قول الحارث بن حلّزه:

لا تكسع الشول بأ غبارها إنك لا تدري من الناتجِ[٣]

فالكاتب يقول عليك ان تحسن الفيء وتحسن استثماره كما قال الحارث بحسن استثمار الناقة والكسع: هو ضرب ضرع الناقة بالماء البارد لكي يرتفع لبنها ولكي لا تجهد في الحلب ،والشول جمع شائلة وهي الناقة خفيفة اللبن لحملها أو لوضعها في سبعة اشهر فلبنها خفيف والأغبار هو بقية اللبن في الضرع ،فالشاعر أراد أن يقول انتفع انت بلبنها وأحسن استثمارها فشّبه الولاية بالناقة فعندما يحسن العامل استعمالها فتعود عليه بالمنفعة، وعلى الناس ايضاً ، وإن لم يُحسن استعمالها فأتى يوم وتذهب لغيره ويقعد ملوماً محسوراً ،فاستند في إسداء

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الاندلسي:٤٦١
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٦٣
(٣) ديوان الحارث بن حلزة، تحقيق: اميل بديع يعقوب، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١م،٦٥.

النصيحة إلى مرجعيته الأدبية ،وهذا دليل على براعة الكاتب ونقل المعنى من الشعر إلى النثر إذ جعل شول الفيء تكسع بأ غبارها إثباتاً، وقد وردت في بيت الشاعر نهياً فقد استثمر الكاتب النص القديم وعكس دلالته واستحضرها في إيضاح ما قصده فأفاد من ثقافته الأدبية في إغناء تجربته بمضامين فنيه رائعة.

وقال في إحدى رسائله الزرزورية: (...إلى أبي زَرع في حُسن العِشرة والثَّراء؛ إلى آفة الْجُزر، إلى الطيّب معاقِدِ الأُزر، إلى أبي الأَضياف، ومجْمَعِ الأخيافِ؛ في الشتّوةِ الغَبْراء، والهبوة الْحَمْراء....) (١)

وهذه إحدى رسائل ابن أبي الخصال في التهنئة بالمصاهرة وتمني الخير للعروسين فيقول إنَّ هذه الزوجة انتقلت من كنف أبيها الكريم إلى زوجها الحسن الأخلاق الكريم الشجاع وقد ضمّن في هذا النص قول الخرنق بنت هفان:

لا يبعدن قومي الذين همُ ... سمّ العداة وآفة الجُزرِ
النازلين بكل مُعْتركٍ ... والطيبون معاقد الأُزرِ (٢)

فالكاتب أراد التعبير عن شجاعة ذلك الرجل ،وعفتهِ، وكرمه، فاستحضر قول الخرنق بنت هفان وهي تشيد بأبناء قومها، إذ إنهّم أقوياء شجعان، فهم كالسمّ على الأعداء لكنهم آفة للجزر فهم يكثرون الجزر عندما يأتيهم الضيوف، وهم شُجعان ينزلون عن الخيل عند احتدام المعترك فيقاتلون على أقدامهم ،وقولها والطيبون معاقد الأزر، كناية عن العفة فابن أبي الخصال استعان بمرجعيته الأدبية ووظفها في خدمة نصّهِ، ونقل معنى بيت الخرنق من الرثاء واستذكارها لشجاعة قومها إلى غرض التهنئة بالمصاهرة وأضاف صفات الممدوح من قول الخرنق فهو سيد الأحياء الموصوف بالكرم ،والشجاعة، والعفَّة فهو كريم في أصعب الأوقات وهي أوقات الشِتاء الباردة ،وشجاع في المعارك المحتدمة ،ويُكنيّه (بآفة الجزر) كناية عن كرمه (وانه طيب معاقد الازر)كناية عن عفته فهو كريم ذي أخلاق حسنه.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٥
(٢) ديوان الخرنق بنت هفان برواية أبي عمرو بن العلاء المتوفى(١٥٤هـ) تحقيق: يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ٤٢-٤٤.

إن تأمل هاتين الكنايتين توحي للباحثة بقوة تأثير المرجعية النصية التي تمثلت ببيتي الخرنق وهما كنايتان كثر ورودهما في الشعر العربي و(افة الجزر) وهي كناية عن صفة الكرم وهو المعنى الذي يختزل كل معاني الكرم ابتداء من النحر وتقديم الطعام للضيوف بعد ان ذكرت شجاعتهم بكل تكثيف(سمّ العداة) ثم ثلثت بهذه الصفة التي ساقتها على سبيل الكناية قائلة (والطيبون معاقد الازر) وهي الكناية عن العفة التي كثر ترادها في دواوين الشعر فاكثروا من عبارة (عفّ المآزر) والأديب ابن أبي الخصال استوحى خطاب الشاعرة واستحضره ليدخله في خطابه النثري، فاندمج الخطابان لينتجا لنا هذا الخطاب الذي نتأمل قوة بنائه وعمق معناه وتأثيره في المتلقي ، إذ جاءت العبارات الثرية منسجمة مع السياق والمناسبة التي قصدها الأديب، ولولا اتكاؤه على مرجعيته الأدبية الشعرية واستحضاره لها في هذا المقام، لما بلغ النص هذا البناء الفني وقوة الإيحاء .

وقال في رسالة أخرى:

(...وأمّا أَنا فما استَغْربت ، لأني قد جَرّبت، ولابُدّ بِحول الله من قُرجةٍ كوَحْيِ المَقال، وحلّ العِقالِ:

وإن بهمْ لو يعلمُون لَغُلَّةً إليك كما بالحائماتِ غَليلُ...)[1]

وظف الكاتب قول أُميةَ بن أبي الصلت:

رُبّما تجزعُ النفوسُ من الأمرِ لـه فَرجةٌ كحلِّ العقالِ [2]

أي ربما تضيقُ النفسُ أو تكرهُ الأمر الذي له انفراجٌ سريعٌ كحلِّ عقال الدابة ،وربما تُكْبِرُ النفوس امراً سهلاً لا يستحق كلّ هذا القلق فهو سهل الحل والانفراج ،وهذا التوظيف للنصوص القديمة قد تفنن الكاتب في ايراده في رسائله، فتارة يورده بعبارة خاطفة تعود بالمتلقي إلى الموروث الأدبي القديم ،وتارة أخرى يجد في نفسه حاجة إلى إيراد البيت

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١٧٥

(٢) اميه ابن ابي الصلت حياته وشعره، تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث الأمارات، ط١ ،٢٠٠٩م، ٣٤٣.

الشعري وتضمينه رسالته بشكل مباشر ،وكلُّ هذا يتمُّ بتفنن ودقه من الكاتب في جعل النص المستدعى يُعطي دلالةً مختلفة في الرسالة ويوصل الغرض الذي أراده الكاتب إلى المتلقي بسهولة وَيسر.

وقال ايضاً :(...وبُرّ يلبكُ بشِهاد، ويُترك من الزُّبد في مِهاد، وأرائك في أعلى نِجاد..) [١]

فأخذ الكاتب شطر بيت من شعر أمية بن أبي الصلت ونثره في رسالته مستفيداً مما فيه من صورةٍ جديدةٍ وتعبيرٍ جميلٍ وهو قوله:

إلى رُدُحٍ من الشَّيزي ملاءٍ لبُابُ البُرِّ يلبك بالشّهادِ [٢]

فالقمح مختلط بالعسل وهذه الصورة جميلة وجديدة وقد رجع ابن أبي الخصال عبر الزمن واحضر هذه الصورة الجميلة ووظفها في رسالته..

وقال في رسالة أخرى (...ويُنيله فتُنال به العلياء؛ حتى اكتحلت أُوار الأَرَق واستشعرتُ صِدَارَ الفَرَق؛ واستأنستُ بالوَحشة، وسكنتُ إلى العُزلة والوَحدة...) [٣]

من قول تأبط شرا:

يَرَى الوَحْشَة الأنِسَ الأنيسَ ويَهتدِي بحيْثُ اهْتدت أُم النجومِ الشّوابكِ[٤]

فأخذ بعض ألفاظ من البيت ومعنى (استأنست الوحشة) من بيت تأبط شرا فيغني نصه بالتضمين من الشعر الجاهلي والشعر العربي بصورة عامة ليضيف إليها مزيداً من الحركة وهذا التداخل يشكل لوحة جميلة داخل الرسالة يلونها الكاتب فيضيف عليها، لتخرج في شكلٍ آخر غير الذي كانت عليه، ويُلبسها حُلَّةً جديدةً ويبعثها بعثاً جديداً مستوحىً من التراث الأدبي العربي.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٩٤
(٢) ديوانه: ١٩٥
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:١٩٩
(٤) ديوان تأبط شرا، تحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الاسلامي، ط١، ١٩٨٤م، ١٥٦.

وغني عن البيان انّ لشعر ما قبل الإسلام ونثره مكانةً كبيرةً في نفوس الأندلسيين "فقد شكل (الشعر ما قبل الإسلام) رافداً ثقافياً وعنصراً رئيساً نهل منه الاندلسيون معطياتهم الثقافية وعناصرهم الفنية، ومناشطهم الفكرية فالتمسوا بعض صورهم الشعرية، وأفكارهم ومعانيهم من معينه الثر مضمنين أحياناً وملوحين أحايين أخرى "(١)

وقال في إحدى رسائله:(...ولئن هممتَ بالإعراضِ، وألممتَ إلمامةَ البرقِ في الإيماض، فنحنُ بما عندنا وأنت بما عندك راض ....) (٢) فقد ضمن الرسالة من قول قيس بن الخطيم:

نحنُ بماعندنا وأنت بماعندك ر اضٍ والرأي مختلف (٣)

فالكاتب يأخذ البيت ليدخله في رسالته ويجعله معبّراً عن صوته وغرضه الذي أراد إظهاره في الرسالة، فابن أبي الخصال -كغيره من أدباء الاندلس- الذين تأثروا بالموروث الأدبي الغنيّ ووظّفوه في رسائلهم بفنيّة عالية "ولا نكاد نجد شاعراً لم يستفد من شعر غيره الذي يمثل لديه حياة أخرى وعالماً آخر يزخر بالتجربة والفكر"(٤) فالكاتب استفاد من الإرث القديم ويبعثه في رسائله من جديد كاسياً الرسالة بحلّة جميلة استقاها من الماضي.

وقال (... ولم تحملْ منهُ ثقلاً تجهَّزتُ إليكَ بلَطيمة، وفأرةِ مِسْكٍ مستأجر بقَسيمة مسك يحملُ أرجَ الثُّغور ودَعَجَ العُيون الحور...)(٥)

وأحسن الكاتب توظيف بيت عنترة بن شداد:

وكأنَّ تاجر بقسيمةٍ سَبقَتْ عوارِضها إليْكَ مِنَ الْفَمِ(٦)

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الاندلسي:٤٦٨
(٢) رسائل ابن أبي الخصال ٢٣٣
(٣) ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ابراهيم السامرائي واحمد مطلوب، مطبعة العاني -بغداد، ط١، ١٩٦٢م،٨١.
(٤) ثقافة المتنبي وأثرها في شعره :٩٥
(٥) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٧٢
(٦) ديوان عنترة بن شداد، شرح الخطيب التبريزي، بعناية مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م،١٥٦.

فهو يصف الرائحة المنبعثة من فمها وكأنها فارة تاجر، فللحرية رائحة طيبة كرائحة الطيب ، فالعرب قديماً اولعوا بالطيب وتزينوا به ، وضمخوا به أجسامهم واغتسلوا بماء الورد، وحمل العطر في حياتهم أعظم معاني التكريم ،وتعطروا في مجالسهم واجتماعاتهم وفي أفراحهم وأعراسهم ،وكأن عندهم من صناعات الأشراف وتاجر به ملوكهم وأمراؤهم(١) والكاتب نقل هذا المعنى إلى رسالته واضفى هذه الصفة على رجل لم يذكر اسمه فهو يقول له رائحته كرائحة المسك الطيبة التي تملأُ الأنفاس بالعطر الزكي وتريح النفس فهو كوعاء المسك مجمع العطور الطيبة.

فنلاحظ مدى التداخل والارتباط بين نصوص الكاتب الأندلسي والشعر العربي ما قبل الإسلام الذي، أثر في الشاعر، فمثل الشعر الجاهلي الأساس الذي سار عليه الشعراء فيما بعد واخذوا يترسمون خطاه ويحاكون صوره ومعانيه.

(١) ينظر :الزينة في العصر الجاهلي، يحيى الجبوري، جامعة قطر-حوليات كلية الإنسانيات، ع٦، ١٤٠٣ه-١٩٨٣م، ٢٠٣، ٢٠٥.

٢.الشعر ما بعد الاسلام

وقد استحضر ابن أبي الخصال من الشعر الإسلامي كما استحضر من الشعر الجاهلي، فقد أورد في رسائله بعض النماذج من الشعر الإسلامي والأموي وكذلك أكثر الكاتب من استحضار الشعر العباسي في رسائله وقد تداخلت النصوص الأدبية وشكلت بعض رسائل ابن أبي الخصال بشكل مجتمع من كل العصور الشعرية، وقد أدرجت في هذه الفقرة الشعر الذي كتبه الشعراء المخضرمون وقد تأثر ابن أبي الخصال بعدد من الشعراء ما بعد الإسلام والشعراء المخضرمين ومنهم الحطيئة قال في احدى رسائله موظفاً قول الشاعر الحطيئة :

(... ولا يذهبُ العُرفُ بين الله وبين هذين..) (١)

من يفعل الخيرَ لا يعدم جوازيهُ لا يذهب العُرفُ بين اللهِ والناس(٢)

فوظف ابن أبي الخصال بيت الشاعر بتضمين جزء منه في الرسالة، ففاعل الخير لابدَّ له أن يُجزى خيراً، جزاءً بفعله الحسن وإن المجازي هو الله إذ قال تعالى ((هل جَزَاء الاحسان الا الاحسان))(٣) فضلاً عن الجزاء من الله فأن فاعل الخير له سمعة طيبة ومكان حسن بين الناس ففعل الخير لا يضيع بين الناس بل يرفع صاحبه إلى اسمى المراتب والمناصب بين الناس.

ويستحضر الكاتب بيتاً لكعب بن زهير وينثره في رسالة له: (... ولامَ حين لم يقدّم إليه رَسُول، ولا أعلمَهُ معلومٌ من ثقاته أو مجهول وإنّ عُذرهُ عندي لَمقبول...) (٤) فقد عاد الأديب إلى المرجعية الأدبية وضمن رسالته من قول كعب بن زهير:

أُنبئتُ أنّ رَسولَ الله أَوعدني والعفْوُ عِنْدَرَسولِ اللهِ مأمولُ (٥)

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٢٩٩
(٢) ديوانه:١٢٠
(٣) الرحمن :٦٠
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ١٨٣
(٥) ديوان كعب بن زهير: تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان ،١٩٩٧م، ٦٥.

فقد وظف الكاتب في رسالته التي أرسلها إلى صديق له، قول كعب حين جاء يقدم لاعتذار إلى النبي (صلى الله عليه واله وسلم) عمّا بدر منه وقد أحسن ابن أبي الخصال التضمين ، فجاء هذا الاستدعاء للمرجعية الأدبية مُكّللاً بالإبداع وعاكساً القدرة الفنية التي تمتّع بها الكاتب ،فاكسب النص الجديد القدرة على نتاج دلالة أخرى -في سياق الرسالة النثرية- وهذا التوظيف المتمكن نابع من ثقافة واسعة تمتع بها الأديب الاندلسي بدت جليَّة في رسائله.

ويستحضر في إحدى رسائله [١] بيتاً لابي ذؤيب الهذلي، ووظفه بشكل مباشر من دون تغيير (...وعندنا رَجاءُ وعند اللهِ مَنٌّ وحِباءُ؛ والنفسُ راغبةٌ إذا رَغّبَتها وإذا تُردُّ إلى قَليلٍ تَقنَعُ) [٢]

فاستحضر الكاتب البيت، بشكل مباشر، ووظفه في رسالته مستثمراً المواءمة بين البيت الشعري وموضوع الرسالة فجاء سلساً موظفاً بصورة رائعة تكشف عن سعة ثقافه الكاتب وتمكنه من الشعر، إلى جانب النثر فيوظف هذه الموهبة ويظهرها واضحة في رسائله، اذ ينقل الشعر من شكله المنظوم بعد ان استحضره ونثره في رسالته ليفيد في إغناء معنى الرسالة والبيت المنوه به :

والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

وقال في رسالة (...وسبيلٌ نَقتادُ رِكابَ الصِّلةِ على أَذلالِها؛ وَليتني قَدْ أَجزتُ نحوكُمْ حبل المعرّف في أَمثالِها..) [٣] فاستحضر ابن أبي الخصال قول عمر بن ابي ربيعة:

يا لَيتني قَدْ اجَزتُ الْحبلُ نَحْوَكُمُ حَبْلَ الْمعَرَّفِ أو جَاوَزْتُ ذا عُشَرِ[٤]

ونثر هذا البيت في نص رسالته للتعبير عن اعتذاره لصديقه الذي منعته الظروف من زيارته حبل المعرف والحبل اسم عرفه، والمعرف الموقف بعرفة، فهو موضع الوقوف بعرفة

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٩٥
(٢) ديوان ابي ذؤيب الهذلي، تحقيق: أحمد خليل الشال مركز الدراسات والبحوث الاسلامية -بور سعيد، ط١، ٢٠١٤م،٥٠.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:١٣٢
(٤) ديوان عمر بن ابي ربيعة، قدم له فايز محمد دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢ ،١٩٩٦م، ١٤٢.

فالكاتب يعود في ذاكرته إلى العصر الأموي ويستحضر قول الشاعر منه، ويأخذ لفظة ويوظفها في رسالته رغبةً منه في تأكيد الصلة بين الماضي والحاضر.

وقال في رسالة أخرى (...اللَّهم طَهِّرْها من دَنسِ الدّعوة، واجْعَلْني فيها مُسْتَجابِ الدِّعوة، حتّى نَدْعُوَها لأبيها ونَتّبعَ الأقساط عِندك فيها، أَولى لهذا المتَوَهّم -ساءَ ما حَكَم، وياء بُعْدَ ما تَوَهّم-

أَيُّهـــا المـــنكِحُ الثُّرَيّـــا سُـــهَيلاً عَمـــرَكَ الله كيـــفَ يَلتقيـــان؟
هـــي شـــاميّةٌ إذا مـــا اسْـــتقَلّت وسُـــهيلٌ إذا اســـتقلَّ يمـــانِ [1]

مَنَع الجارَ سَبقَاً، وادَّعى لأبي طريفٍ عَقِباً ...) [2]

فاستحضر ابن أبي الخصال هذين البيتين ووظفهما في رسالته التي يعتذر فيها عن نسبة المقامة القرطبية إليه وهذان البيتان يحتويان على التورية فثريا تحتمل ان تكون اسم بنت والأخر ثريا السماء وسهيل اسم لرجل او يكون اسم النجم المعروف وقد أورد الكاتب هذين البيتين بدون تحوير او تغيير ووظفهما في رسالته بشكل رائع وأسلوب سلس.

وكتب رسالة تعزية إلى الوليد بن رشد: (...للإمام الأَجل -أيده اللهُ- مَثَلُ الْخَير، ولا تناولتْهُ يدُ الضَّير، ولا وجدَ أُواماً ولا ذَعرَتْ له الحوادِثُ سَواماً...) [3]

الرسالة في التعزية وقد وظف الشاعر موروثه الأدبي في هذه الرسالة وعاد إليه واستقى منه فضلاً عن رجوعه إلى مرجعيته الدينية (القران-الحديث النبوي الشريف)

فهذه القطعة مليئة بالإشارات إلى الأحاديث النبوية، والآيات القرنية، فضلاً عن المرجع الأدبي الذي عاد اليه الكاتب وأخذ منه ما يناسب رسالته، فعاد إلى قول يزيد بن مفزع في قوله:

---

(١) ديوانه: ٣٩٧
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٣٥٩
(٣) ديوانه:٩٦

لاذَعَـرْتُ السَّـوامَ فـيوَضَـحِ الـصُّ بـحِ مُغيـراً ولا دُعيـت يزيـدا (١)

فابن أبي الخصال أراد دفع الحزن عن المرسل إليه ومواساته بما حلّ به من مصيبة وهي فقد ولده فأخذ يدعو له ويذكره بالأحاديث والآيات التي تدعو إلى الصبر

وايضاً استرفد التراث الأدبي ووظّفه في هذا الغرض، فقال ولا وجد أواماً ولا ذعرت له الحوادث سواماً، أي لا اصابك البلاء ودفع عنك كلّ حزن وبلاء، وقال بعدها ويا نار الحزن كوني عليه برداً وسلاما فهو يدعو إلى القاضي بالصبر فعندما أراد الكاتب الدعوة إلى ابي الوليد إلى التراث ووظف بيتاً من أبيات الشاعر الحميري ووظفه بما يلائم رسالته ويضفي عليها قوه وليثري معناها ويضيف التنوع والقوة اليها.

وقال في رسالة ايضاً :(.. وأَستبدَّ بسمعهِ وبَصره، وأستمدّ من حكايتهِ وخَبرِه، فقال: تاللهِ لقد أَجَدت، ولكنْ أيْن ما وَعدت؟ لعلّك الغارُّ الغَابِن، والتّامرُ اللابن..) (٢)

فعاد ابن أبي الخصال واستحضر بيتاً من قول الحطيئة وهو قوله في الهجاء:

أغررتنـــي وزعمـــت أنَّـــك لابـــنُ بالصـــيَّفِ تـــامِرْ (٣)

فأخذ ابن أبي الخصال من هذا البيت وصاغه نثراً (والتامر واللابن) ويقال للرجل لابن إذا كثر عنده اللبن في الصيف وتامر إذا كثر عنده التمر ،فالحطيئة يقول له زعمت أن عندك لبناً كثيراً وتمراً، ونلحظ قدرة الكاتب في التحكم بصوغ رسائله ومضمنا إياها التراث الأدبي " ونحن نعلم ان عملية الابداع لا يمكن لها أنّ تأتي من فراغ، انما يستحضر المبدع من نتاجها ثقافته ، وما يقبع فيها من ابعاد معرفية ، وما تحتويه ذاكرته من نصوص شعرية قديمة قد تأثر

(١) ديوان زيد بن مفزع الحميري، تحقيق: الدكتور عبد القدوس ابو صالح، مؤسسة الرسالة ط١، ١٩٧٥م،١٠٣.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٤٢٨
(٣) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، بعناية: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٣م، ٩١.

بها، وهي قابعة تنظر ما يلائمها من مواقف الحياة والاستفادة منها بهدف إغناء التجربة الشعرية الجديدة بدلالات تمنحها بعدها التعبيري والقصدي"[١]

وله رسالة إلى الوزير ابي محمد عبد الله بن محمد الفهري قال فيها: (...أبو إسحاق مَعينُ القَول، مُقْدِمٌ على الْهَوْل، يَصُول صَوْلَ القَرْمِ في الشَّول إن غضبَ حَسبْتَ النّاس غضابا، ورأيتَ السُّهولَ وُعوراً وهِضابا...) [٢]

فابن أبي الخصال انتصر للصابي في رسالته وَفَضَّلهُ على بديع الزمان الهمذاني واستند في رسالته هذه إلى الأدب العربي ورجع اليه في رسالته.

فقد وظف قول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كُلَّهم غِضابا [٣]

فقد ضمن ابن أبي الخصال شطراً من بيت جرير فقال (ان غضب حسبت الناس غضاباً)

فأخذ الشعر وغيّر فيه بما يتناسب مع رسالته، فالشاعر جرير يقول ان بني تميم أذا غضبوا تظن أنَّ كلَّ الناس تغضب عليك ،فقد أفاد العموم عند الشاعر عن كل القوم ،أمّا ابن أبي الخصال فقد أخذ العبارة وأطلقها على ابي إسحاق ،وإنّه إذا غضب كأن الناس كلّها غاضبة فخص أبا إسحاق بهذا الوصف ، فالكاتب أخذ التعبير الشعري ونثره في رسالته وهذا يحتاج إلى دراية وخبرة، فليس كل أديب يستطيع توظيف الموروث بهذا الشكل المتناسق الذي يدلُّ على وعي الكاتب واعتزازه بالتراث العربي الذي وظّفه في كل رسائله ،ما أضاف لها تنوعاً وتشكلاً غنياً لا مثيل له في رسائل أقرانه من الكتاب آنذاك.

وغنّي عن القول أنّ ليس كلُّ توظيف فنياً ،فثمة توظيف لا يزيد الخطاب الأدبي الا ثقلاً وبعداً عن القدرة على التوصيل ،لما فيه من صنعة وتكلّف، ويرينا توظيف ابن أبي الخصال للموروث الثقافي الأدبي، قدرةً فائقة على استدعاء الموروث الشعري ذي الصلة الوطيدة

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي:٤٧٦
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٤٦
(٣) ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان محمد أمين، دار المعارف، ط٣، ٦٤٩/٢.

بسياقه ومبانيه ،ما يتيح له الاندماج بين خطابه وبين النص المستحضر ليصل بخطابه الجديد - فيما يقدر هو- إلى النضج بناءً وصوراً وتشاطر الباحثة الدكتور حسين مجيد الحصونة إذ قال" وأكبر الظنّ أنّ كثرة قراءة الدواوين القديمة، والتأثر بها وسعة إطلاع المبدع على المدونات الشعرية منها، تكوّن في ذاكرة المبدع وخزينه الثقافي بؤرة التقاط تلتقط ما يناسبها من معين في بناء النص الجديد وفي التعبير عن التجربة الشعورية..."[١]

وقال كذلك: (...والجوّ لا أَبي الفضل -مالم يُلْزَز في قَرنٍ- خالٍ، وثمنُه -مالم يُحْمَل على ثمنِه- غال..)[٢]مأخوذ من قول جرير:

وابن اللبون إذا ما لز في قرنٍ لم يستطع صوله البُزْلِ القناعيسِ[٣]

وابن اللبون هو ولد الناقة الذي دخل في عامه الثالث، فابن أبي الخصال في هذه الرسالة يفضل أبا إسحاق الصابي على بديع الزمان الهمذاني فيقول: إنّ للصغير الذي ظهر له قرنه للتو لا يستطيع مقارعة الناقة الضخمة القوية المكتملة البناء والجسم، وهو بطريقة، فضل أبا إسحاق وعاد إلى الموروث ليعبرِ عن تفضيله للصابي.

وقال في رسالة ايضاً (...وحَسْبُهُ عندَ مثلك من أَهلِ الإيمان الصّحيح، والنَّقد الَمحْضِ الصَّريح؛ اعْتِزاؤُه الأَكرم، وانتماؤُه الذي يَعْرفهُ الحلُّ والحرَم...) [٤]

فأخذ من قول الفرزدق في مدح الامام زين العابدين (عليه السلام)

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتهُ والبيتُ يعرفهُ والحِلُّ والحرمُ [٥]

فأخذ قوله ووظفه كما قال (الحلّ والحرمُ) والحل هو التحلل من الإحرام أمّا الحرم فهو الاحرام العمل عمره، والمعنى إنّ الكلّ تعرفه لنبل أخلاقه ولطيب سمعته فالكاتب يأخذ

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي: ٤٦٢
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٤٨
(٣) ديوانه: ١٢٨
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ٥٩٤-٥٩٥
(٥) ديوان لفرزدق، بشرح ايليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط١، ١٩٨٣م، ٣٥٣/٢.

النصوص الأدبية القديمة ويقدمها بشكل جديد مختلف عن السياق الذي وردت فيه ،وقال محمد مفتاح" إنَّ موضوع التناص ليس جديداً تماماً في الدراسات النقدية المعاصرة، وأن جذوره تعود في الدراسات الشرقية والغربية إلى تسميات ومصطلحات أخرى كالاقتباس والتضمين والاستشهاد والقرينة والمجاز والمعنى وما شابه ذلك في النقد العربي القديم ، فهي مصطلحات او مسائل تدخل ضمن مفهوم التناص في صورته الحديثة "[1] فابن أبي الخصال اتكأ على الموروث الادبي بشكل واضح وضمنه في رسائله.

وقال ابن أبي الخصال في رسالة له إلى صديق: (... وجاءَ الشَّيبُ وكفَى بهِ ناعياً يَنْعى الشّباب، ويذكر المعادَ والْمَآب؛ وإنَّ في ثكلِ مَنْ فَقدناهُ من الأصحاب والأتراب ...) [2]

فقد ضمن الكاتب قول الفرزدق:

والشَّيبُ يَنهضُ في السّوادِ كأنَّهُ لَيْلٌ يَصيحُ بجَانبَيهِ نَهَارُ [3]

فالكاتب عبّر عن ذهاب الشباب، ومجيء الشيب، بما قاله لفرزدق في هذا الشأن فوجد ابن أبي الخصال في قول الفرزدق خير تعبير عما أراد ايصاله، فعمل على حلّ المنظوم ونثره في رسالته لُيظْهرهُ بهذا الشكل -الماثل أمامنا- بأجمل صوره.

وقال ايضاً في رسالة إلى أبي بكر بن العربي:

(...وإن تَرجّحت الثّاءُ ففي الأَزدِ العَددُ والثّراء، والعِزَّةُ القعساء والبأس الذي تُدفعُ بهِ البأساء، ولا يدرأ عن شَرفٍ دراء ما أقامَ ثبيرٌ وحرِاء...) [4] من قول الفرزدق:

لنا العِزّةُ الغَلبَاءُ والعَدَدُ الذي عَلَيْهِ إذا عُدّ الحصَى يُتَحَلّفُ [5]

(١) التناص نظريا وتطبيقياَ:١٩
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ١٧٩
(٣) ديوان الفرزدق، ١/ ٦٠٠
(٤) رسائل ابن أبي الخصال:١٨٨
(٥) ديوان الفرزدق:١٢٦/٢

فنلاحظ شدة تأثر الكاتب بالموروث الأدبي ويظهر ذلك عبر توظيفه في رسائله سواء أكان ذلك التوظيف بشكل مباشر أم غير مباشر، كأن يأخذ عبارة وردت في الأدب العربي القديم ويوظفها في رسائله، فالكاتب يجدُ في التراث مبتغاه ويأتي به ليعبّر عما أراد، فنلاحظ التداخل والتضمين غير المباشر لبيت الفرزدق ونثره بأسلوب جميل وقد عكس هذه الصلة بين الشعر العربي والنثر الاندلسي الذي ظلّ متأثرا به سائراً على صوره ومعانيه.

ولنتأمل رسالته إلى احد الأعيان عندما أتاه زائراً فالفاه نائماً * استثمر فيها شعراً لقيس بن الملوح قال :(...ونْمتَ-لا نُعِّصْتَ- نومَ مَنْ أَذكى عَيْناً، ووَلَّدَ للأَعادي رَغماً وحَيْناً ، فآثرتُكَ بلذيذٍ كطعمِ الصَّرْخَدِيّ، وانثنيتُ بغُلّتي عن ذلك النَّدِيّ، وتركتُ راحتَك في سردِها، وعينَك-لا أرقتْ!-مُستمتعة بِبْردِها ،مُتلفّة بالسَّنةِ وبُرْدها؛ وتخطَّيت محلَّك إلى ما وراءهُ، وعَقدتَ شوقي إزاءه لِتَرجعني عليكَ الرَّواجعِ ،وتصحّ للإدراك الواجبة الْمَراجع...)[1] فالكاتب اختصر مقصده في كلمات قليلة وجميلة بعدما ألفى صاحب الدار نائماً وقد استحضر مرجعيته الأدبية في هذه القطعة اليسيرة، إذ نثر شطر بيت لقيس بن الملوح في رسالته وهو قوله:

(لترجعني عليك الرواجع) فهو مضمَّنٌ من قول قيس بن ذريح:

واعمدُ إلى الأرض التي من ورائكُم ليُرجِعَني يوماً عَليك الرواجِعُ [2]

فاستحضر الكاتب شطر بيت من قول الشاعر وادخله في نسجه النثري مما يتناسب مع غرضه الذي أراد فأحسن الكاتب استدعاء هذا البيت وتوظيفه في شعره، وانّ الشاعر يتطلع إلى الأرض التي من وراء من ذكرهم وترده يوماً عليك الأسباب أما الرواجع أسباب رجوعي

وهناك بيت آخر له يقول فيه:

واعمد للأرض التي لا أريدها لترجعني يوماً اليكِ الرواجعُ [3]

---

* قصده الكاتب ليتوسط في امر رجل لم يذكر اسمه في الرسالة

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٥٩-٦٠

(٢) ديوان قيس بن ذريح (قيس لبنى) اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م، ٨٩.

(٣) الديوان نفسه :٤٧

فالكاتب يعود إلى المرجعية الأدبية ويوظّفها في نص رسالته ويعمد إلى اختيار أحد الأبيات للتعبير عن المعنى الذي أراد، فيأخذ الكاتب هذا المعنى وينثره ويوظّفَه في المكان المناسب مستفيداً مما في البيت الشعري من ثراء واختصار لكثير من الكلام الذي أراد الكاتب التعبير عنه، ويعمق الكاتب عند طريق استدعائه للمعاني الموروثة، صلته مع التراث الأدبي الذي تداخل مع خطابه.

وقال في رسالة إلى صديق له (...فلْيسْخُ بنفسِكَ ماسَخا بنفسِ الدؤلي فما تأسى هناك على زمَنٍ ناضرٍ، ولا ثمَّ شيءٌ يَخاف عليه لذعه نَاظر...) (١)

فالكاتب يذكر أبا الأسود الدؤلي وهو يعاتب صديقا له كان الدؤلي يودّهُ ويحاول ان يقّربهُ ولكن صديقه يزداد ابتعاداً وانقطاعاً عنه.

أبت نفسي له إلّا وصالاً وتأبى نفسه الّا انقطاعا (٢)

فنفس أبي الأسود الدؤلي تأبى الانقطاع فهو يقرب ذلك الصديق لكن الصديق لا يريد القرب والوصال، أنما فضل الانقطاع على الوصال فأستحضر ابن أبي الخصال قول الدؤلي وأشار اليه في رسالته دون التفصيل بالقول، فابن أبي الخصال بحث في الشعر العربي ووظف كلّ ما من شأنه إغناء معاني رسالته وتعزيز ايحاء كلماته ومنح رسالته قوة ،فلجأ إلى توظيف الشعر القديم والاستفادة من مرجعيته الأدبية والتي تحقق له هذا المطلب في إعطاء قوة وجمالية وبعد التأثير لرسالته وقد ضمن الكاتب البيت ليكشف عما في نفسه راجعاً إلى التراث ومستقياً منه بيتاً أختزل ما أراد الكاتب التعبير عنه وافصح عنه بشكل جميل ،وهذه العودة إلى المرجعية الأدبية تدلّ على وثيق صلته بها واستثمار هذه المعرفة الأدبية في رسائله.

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٧٤

(٢) ديوان أبي الاسود الدؤلي، صنعة أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، منشورات دار ومكتبة الهلال، ط٢، ١٩٩٨م، ١٤٩.

وقال في رسالة إلى صديق سعى بينه وبين الكاتب ساعٍ بكذب وزور (... فلا عليك أعزك الله- أن تخفض لأخيك الصّدق جَناحاً، وتخفضُ عنه إيجاباً وإسجاحاً ...) (١)

فثمة إشارة إلى بيت جميل بثينة:

أبثُّيَن إنك قد ملكتِ فأَسْجِحي وخُذِي بحظِّك من كريمٍ واصلِ(٢)

وضمن الكاتب رسالته معنى هذا البيت وملك فاسجح بمعنى أحسن العفو فأخذ ابن أبي الخصال هذا المعنى وصاغه في رسالة بأسلوب سلس وعبارة لطيفة ولفظ عذب وتتيح سعة الثقافة الأدبية للكاتب التحكم في التضمين من الشعر العربي بشكل جميل لا تكلف فيه بل يأتي المعنى واضح العبارة جميل السبك وقد أحسن الموائمة بين معنى البيت والمعنى الذي أراده الكاتب وهو الطلب من صديقة العفو والمعذرة.

وقال: (...ولايَزالُ الشَّوقُ يَقودُها ولا يَبْلى عَل الأَيَّامِ جَديدُها، وتُطوي لَها الأَ يّضامُ ويدنُو بعيدُها...) (٣) ضمن رسالته من قول كُثير عَزَّة:

وكنتُ إذا ما زُرت سُعدى بأرضْها أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدُها(٤)

وضمن الكاتب رسالته من قول كُثَير واتخذ من التناسب بين معنى البيت الشعري والرسالة موطن إثراء للرسالة (فيقول: وتقوى لها الأيام ويدنو بعيدها) فهذا تعبير جميل استحضره الشاعر من العصر الأموي ووظّفه في رسالته وهذا ينبئ عن إلمامه بالموروث الأدبي وأثره في تشكيل مرجعيته الأدبية الرصينة.

وقد تأثر ابن أبي الخصال بالشعر العباسي فقد كثر وروده في رسائله ومنها ما قاله في مخمسة *في الأمير ابي إسحاق **ويظهر في هذه المخمسة إبداع الكاتب وتفوقهُ في الشعر، إذ

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٧٤
(٢) ديوانه:١٧٩
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:١٩٨
(٤) ديوان كثير عزه: تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ،بيروت-لبنان ،١٩٧١م ، ٢٠٠.
* المخمسة: هو ان يأخذ الشاعر قصيدة لشاعر اخر ويُضيف إلى كل بيت ثلاثة اشطار على الوزن وعلى قافية شطر البيت فتتم خمسة اشطار.
** الامير ابو اسحاق (ت ٥١٥هـ) وهو أحد ابناء يوسف بن تاشفين وهو احد القادة المشهورين بالأندلس ويعرف (بابن تاعيشت) و(تاعيشت)اللفظ البربري لاسم عائشة وهي أمهُ ونسب إليها .

ينظم الكاتب أبياتاً اما الشطر الخامس فيأخذه الكاتب من أبي تمّام وضمَّن المخمسة ايضاً بعضاً من شعر المتنبي قال ابن أبي الخصال: **[البسيط]**

الحمدُ للهِ أضْحى الدِّيْنُ مُعْتَلِيا وباتَ سَيْفُ الهدى الظَّمآن قد رَويا
أن كنتَ ترتاحُ للأمر الذي قُضـيا فسَـلْ نَشْـراً ودَعْ عنكَ الّذي طُوِيا
فـالسَّـيْفُ أصـــدَقُ أَنبـاءً من الكُتـبِ [١]

أراد ابن أبي الخصال العودة إلى التراث العربي في مدحه للأمير أبـي إسـحاق إبـراهيم، فعاد إلى الموروث الأدبـي واخـذ مـن شـعر أبـي تمـام وَضَـمَّنه فـي مخمسـة، فـأبو تمـام يمـدح المعتصم وسار ابن أبي الخصال على نهج أبي تمام في مدحه قال أبو تمام:

السـيفُ أصْـدقُ أنباء منَ الكُتبِ في حَدَّهِ الحّد بين الجدّ واللعبِ [٢]

وكان المنجمون قد قالوا إنّ المعتصم لا يفتح عمورية وراسله الروم بأنّها تجد فـي كتابهـا انه لا يفتح عموريه ففتحها رغم البرد والـثلج، فبطـل مـا قـالوا ، فـابن أبـي الخصـال يحمـد الله ويمدح الأمير بأنه أعلى الدين وروى سيف الحق من دماء الأعداء، فدفعه تعلقه بالموروث إلى استعادة قصيده أبي تمام وتوظيفها في مخمسةٍ ويعود ويوظف عجز البيت في الجزء الثاني من المخمسة إذ قال:

هو المقيـدُ للآثـارِ والحِكَمِ لولا وقـائعُـهُ في سَـالف الأُممِ
لم يَحفل النّاسُ بـالقِرطـاس والقَلمِ أينَ اليَراعةُ من صَـمْصَـامَةِ خَذَمِ
في حَـدّهِ الحَـدُّ بين الجِـدِّ واللَّعـبِ [٣]

"فالحد الأول هو السيف والثاني الذي يفصل بين الشيء كالدار والدار"[٤]

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٣٩-٤٠
(٢) ديوان أبي تمام، شرح التبريزي، بعناية راجـي الاسـمر، دارا لكتـاب العربـي، بيـروت، ط٢، ١٩٩٤م، ٣٢/١.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٤٠
(٤) ديوان أبي تمام، هامش رقم (١)، ٣٢.

فبعد ان يمدح الأمير يعود إلى وصف سيفه باليراعة والخذم وهي من صفات سيفه القاطع ، والمخمسة طويله وفي نهاية كلَّ أربع أشطار يورد ابن أبي الخصال شطراً من قصيدة أبي تمام مستثمراً المواءمة والمناسبة بين موقف قصيدة أبي تمام وغرضها وهو مدح المعتصم والغرض الذي أراده الكاتب ابن أبي الخصال وهو مدح الأمير ابي إسحاق وفي هذه المخمسة تظهر براعةُ ابن أبي الخصال وتفوقهُ في الشعر ويظهر ايضاً مدى تأثره بمرجعيته الأدبية والقدرة على استيعاب هذا الموروث وإعادة توظيفه بطريقة جديدة مغايرة للصورة التي جاء عليها وهذا لا يكون الا لأديب ذي ثقافة أدبية عالية وذوق رفيع يكشف عن مواضع الجمال والمناسبة في القصيدة وتوظيفها في نصوصه، ولم يقتصر ابن أبي الخصال على تضمين مخمسة من قصيدة أبي تمام فقد ضمنها من قول المتنبي ايضاً ومثل ذلك قوله:

والسَّمْهَرِيَّة تتلوهُ وتتبَعُهُ ... ما مالَ عَرْشٌ رماحُ الْخَطِّ ترفَعُهُ

خُذْما تراهُ ودَعْ ماكنتَ تَسْمَعُهُ ... فالعلْمُ في شُهبِ الأرماحِ أَجْمَعُهُ

بين الخميسين لافي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ [1]

فقد وظف قول المتنبي في مدح سيف الدولة:

خُذ ما تَراهُ وَدَعْ شيئاً سمعِت َبه ... في طلعةِ الشمس ما يُغنيك َعن زُحلِ[2]

فسيف الدولة أفضل الملوك وانه مثل الشمس مُفضَّلة على سائر النجوم والكواكب، فهي أكرم منهم وأكبر، وفي طلعة الشمس تغني عن زحل فهي أكبر وتكرم منه فان سيف الدولة الحمداني مثل هذه الشمس في فضلها فهو أفضل من كل الملوك، فالمتنبي يقول انا اصف ما أراه من فضله وكرمه فهو الشمس وباقي الملوك أقل منه ،واستحضر ابن أبي الخصال هذا المعنى في مخمسته التي مدح فيها الأمير، فهو يقول إنّه شهد ورأى ما بدر من هذا الأمير الكريم الشجاع من صفات حسنة وأخلاق حميدة وأخذ ايضاً من قول أبي تمام:

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٤١

(٢) ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، مؤسسة هنداوي ،٢٠١٢م،٩١٨.

فالعلمُ في شـهبِ الأرماحِ لامعةً بين الخميسينِ لافي السَّبعةِ الشهُبِ [1]

ويعود ويضمن المخمسة من أبيات أبي تمام فهو يرد على المنجمين ومـا حكمـوا بـه، لأنّ الظفر والنصر كان قبل حكمهم ، وشهبُ الأرماح اسنتها.

فَألحَقَ المعتصم هزيمةً بالروم وانتصر عليهم ،وبطل قـول المنجمـين الّـذين نصـحوه بـأن ينتظر موعد ذوبان الثلج وانقضاء البرد، لكنه انتصر عليهم رغم هذه الأجواء ،ولـم يأبـه لقـول المنجمين ،ويعتمد ابن أبي الخصال في مخمسته على قصيدة أبي تمام في فتح عمورية مضـمناً ابياتاً منها، متداخلاً معها بأسلوب رائع تبدو كأنها قصيدة بنفس واحدة ،فأخذ ابن أبي الخصـال ما يناسب قصده في مدح الأمير الاندلسي ،وإنّ تأمل المخمسة الواردة في رسائله، يرينا عمـق مرجعياته النصيّة ،فهو عندما توجه مادحا الأمير الاندلسي ،استدعى موقفاً أدبيـاً مـاثلاً فضـمنه وعبر عنها الشـعراء المشـارقة الكبـار ،فتـارة يسـتدعي أبـا تمـام الطـائي ويمثـل أمامـه موقفـه التاريخي في تجسيد واقعة عمورية وبطلها الخليفة المعتصم وكيـف نصـر الله جـيش المسـلمين نصراً عزيزاً ،فواقعة عمورية التي كان سـببها، أمـرأة عربيـة اعتـدى عليهـا رومـي فصـاحت وامعتصماه فجهز المعتصـم جيشـاً وقـاده بنفسـه إلـى عموريـة علـى الـرغم مـن ان المنجمـين أشاروا عليه ان لا يذهب إلى المعركة خشية الهزيمة، ولكنه أصرّ على فتح المدينة وتحقـق لـه ذلك ،فخاب ظن المنجمين فجسد أبو تمام كلّ هذا في بئية رائعة وهذا مطلعها :

السـيفُ أصْـدقُ أنباءً منَ الكُتبِ في حَدَّهِ الحدّ بين الجدّ واللعبِ

وكلّ هذا الموقف التاريخي وكلّ أجوائه استحضره الكاتب ابن أبي الخصـال فـي رسـائله -موضوع بحثنا-ووظفه توظيفاً خلاقاً ،إذ قدّمـه تقديماً وجـدانياً ناجحـاً ،حتـى إنّ المتلقـي يـري الكلام نصّاً منسجماً مع المناسبة والموقـف الأندلسـي، ولـولا مرجعيتـه وعمـق ثقافتـه وصـلته بالتراث المشرقي وتأثره بها ،لما استطعنا أنْ نرى هذا الاستدعاء الفنّي في هذه الرسـائل التـي غدت ذات شهرة كبيرة، لما توافر لهـا مـن عناصـر الشـعرية التـي بـدا بـأن التـأثر بمرجعياتـه النصية (الشعرية) في طليعتها وتارة أخرى يستدعي ابا الطيّـب المتنبـي مثـل مـا مـرّ بنـا فـي

(١) ديوان ابو تمام: ٣٣/١

مخمسته التي اتكأ فيها على ديوان أبي الطيّب ووظف أشطراً من أبياته المنوّه بها، فرفع كفاية خطابه وأحلّه محلاً رفيعاً في ميدان التلقي وقوة التوصيل.

وله رسالة جوابية إلى صديق له يعمل كاتباً سلطانياً يخبره فيها بأمور منها عنايته برجل يدعى ابن سراج قال فيها:

(...ولكنْ قد يركبُ المضطرُّ الأَسِنَة ولا يركَبُ الظِّنَّة، ويغشى البُهَمَ، ولا يَغْشى التّهم، وإنّي لأَلفُ رأسي حَياء ...) (١)

والمناسبة التي استدعاها الكلام، إذ كانت الرسالة جواباً لصديق كان كاتباً سلطانياً أخبره بأمور عدّة تخصهما مثلما نوّه في صدر هذه الرسالة.

وترى الباحثة أنّ ثمة توافقاً دقيقاً في خطاب ابن أبي الخصال والنص المستحضر، إذ حوّل الكاتب شطر أبي تمام إلى معانٍ نثرية عمقت معنى الخطاب وزادته في حسن البناء وجودة الأداء، عادت به ذاكرته إلى موروثه الأدبي الأثير اليه وحطت في رحال ابي تمام الطائي الأكثر إداء تأثيراً في انتاجه النثري وقدح في ذهنه بيته الآتي:

أتاني مع الركبانِ ظنٌّ ظننتهُ لففتُ بهِ راسي حياءً من المجدِ(٢)

فقد تصرف الكاتب البليغ في الشطر الثاني من هذا البيت وصاغه بعبارة نثرية معبرة أجل تعبير عن غرضه في الرسالة ،ولهذا الاستدعاء للبيت الشعري أثر مهم في إثراء النص فيتخذ ابن ابي لخصال الأدب مرجعاً خِصْباً من شأنه إغناء نصه وتلوينه بشتى الألوان وأضفى عليه التنوع، فيعود ليستقي منه بين الحين والأخر فهو عندما يريد التعبير عن خجله من ذلك الصديق يعود إلى مخزونه الأدبي ويوظف ما قاله أبو تمام ويدرجه في سياق يتناسب مع رسالته وغرضه الذي أراد التعبير عنه فهذا الاستدعاء لنص أبي تمام أغنى التجربة الجديدة ومنحها ثراءً أوسع.

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٨٢

(٢) ديوان ابي تمام: ٢٩٠/١

ونلحظ مرجعية أدبية أخرى تضمنتها رسالته هذه تتمثل في قوله (ولكنْ قد يركبُ المضطرُّ الأَسِنَة ولا يركَبُ الظِّنَّة) فقد تعود هذه الإشارة النثرية بالمتلقي إلى بيت الكميت:

وإنْ لَمْ يَكُنْ إلا الأَسِـــنـةِ مَرْكـبٌ فَلا رَأي لِلمحمولِ إلا رُكوُبُها [١]

ففي هذا المقطع النثري القصير أرانا ابن أبي الخصال ما يمثل مرجعيتين أدبيتين استحضرهما استحضاراً عفوياً مستنداً إلى مرجعيته الأدبية وتمثلها تمثلاً فنياً رفعت من كفاية خطابه في فن الرسائل.

وقال في إحدى رسائله: (...واستكشف لمتقدّم العِرفان ما أَذهله عن الأَوطان، وعلّمه مُفارقة الجِنان...) [٢]

فالكاتب يعود ليثري رسالته بشيء من الموروث الأدبي الغني بالحيوية والقوة فقد ضمن رسالته من قول أبي الطيب المتنبي في نونية له على لسان حصانه بشعب بوان:

أبُوكم آدم سَـــنَّ الْمَعَـاِصـــي وعَلّمكُمْ مُفـاَرقَـةَ الجِنـاَنِ [٣]

فالكاتب اخذ من شطر بيت للمتنبي وهي إشارة إلى قصة آدم (ع)وخروجه من الجنة بعد ان تناول من الشجرة التي نهاه الله (عزّ وجلّ) عن الأكل منها فعصى آدم ربه واخرجه الله (عزّ وجلّ) من الجنة، جزاءً بما فعل وأشار المتنبي إلى هذه القصة على لسان حصانه في شعب بوان بعد أن تحدث عن تلك المنطقة وجمالها وغربته ثم يجري محاورة بينه وبين حصانه.

فإنّ ابن أبي الخصال استعان بهذه العبارة الجريئة لما فيها من تصريح بحق النبي آدم(ع) فقال (وعلمه مفارقة الجنان) فالعبارة هنا في شرح حال ابن عمه الذي أصابه الأذى والفقر وهذا الرجوع إلى الأدب العربي أضاف تنوعاً وحيويةً إلى الرسالة، إذ لم يقتصر على العودة

(١) ديوان الكميت بن زيد الاسدي، تحقيق: محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ٧١.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٢٧
(٣) ديوان المتنبي:١٤٩٩

إلى الشعر العربي القديم بل عاد إلى العصور الأدبية ووظفها في رسالته ويتبين عبر هذه التوظيفات سعة ثقافة هذا الكاتب ونبوغه في الادب العربي.

وقال أيضا (...وأَمَر وأَحْلى؛ أَو مَدَحَ تَوَّجَ وحَلّى، أو قدَح أَخْلقَ وأبلى، أو غرَّ سَوَّلَ وأملى، لا جرم! إنّ لَهُ القَلم الأَعلى، والذُّروة الباسقَةُ لا تُظْهَرُ ولا تُعْلى...) (١)

فقد استحضر قول أبي تمام:

لك القَلَمُ الأعلى الذي بِشَباتِه تُصَابُ من الأمْرِ الكُلى والمَفاصِلُ(٢)

استفاد الكاتب من قول أبي تمام (لك القلم الأعلى)فقال إنّ له القلمَ الأعلى ،فلم يقتصر الكاتب على تضمين رسائله الشعر العربي بصورة مباشرة او محوَّرة مع بعض التغيير والتحوير، بل استرفد الكاتب إلى رسائله بعض العبارات من الموروث القديم وهذا الاستدعاء للموروث يدلّ على وعي الكاتب بالتراث وحفظه لموروثه الأدبي واعتزازه به وتوظيفه له لإغناء رسائله المعبرة عن تجربته الأدبية ،فالكاتب عند ما يعمد إلى التراث الأدبي ،فإنّه لا يقصدُ الإضافة الجامدة التي لا تغني المعنى ،ولا تزيده الّا التواءً وانطواءً ،انما يعمد إلى صوغ ذخائر الأدب العربي والموروث الأدبي بما يُثري نصه ويرصِّن أسُلوبه ويخدم مضمونه ،وعند العودة إلى نصّه هذا ونتأمل بروية وإمعانٍ عبارته الأولى (..إن عَزّى سَلّى، أوْ عاتَب سَرَّى وجلّى)فقد يعود بنا هذا التأمل إلى ديوان ابن خفاجة الاندلسي صنوبري الاندلس، اذ وصف جبلاً وحاوره متخذا منه صنوه، إذ يقول بعد حوار فلسفي مثير مع الجبل قال:

فسَلّى بما أَبكي وسرّى بما شَجا وكان على عَهدِ السُّرى خيرَ صاحِبِ(٣)

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٤٦-١٤٧

(٢) ديوان أبي تمام:٢/٥٧

(٣) ديوان ابن خفاجة، بعناية عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ٤٩.

وقال ايضاً: (.. وأنا لا أعـدِلُ الهـزلَ بالفَصْـل، ولا الخَيْزُرانـة بالنَّصْـلَ، ولا أرغـبُ عـن الْهُدى، ولا أضَعُ السَّيْف موضع الندى..) (١)

فالكاتب يستمر في استحضار الأبيات وتحويرها وإلباسها حُلّـةً جديـدة فـي سـياق مختلـف عن السياق الذي كانت فيه ،فينقل البيت من المعنى الذي أراد الشاعر التعبير عنه إلى رسـالته، هو ليصبح معبراً عما في داخل ابـن أبـي الخصـال وملخصـاً لفكرتـه التـي أرادهـا ،فـابن أبـي الخصال يسترفد قوله (ولا أضع السيف موضع الندى) من قول المتنبي:

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيفِ بِالعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفَ فِي مَوضِعِ النَّدَى(٢)

ومعنى البيت ان لكّل شخص، وكل شيء مكانه الذي يكون جميلاً بـه، فـالمتنبي يقـول: إنّ وضع الشيء السيء في مكان أكبر منـه فهـو مضـّر لـه، وللمجتمـع كأنمـا يكـون انسـان عـديم الشخصية بمركز عالٍ (رئيس أو ملك أو غيرها من المناصب) فيجب علينا أنْ نُحسنَ الاختيار فأن السيف تُعدم فائدته، فكذلك الأشخاص يجب ان يأخذ كلَّ انسـان وصـفه بمـا يناسـبه ، فـابن أبي الخصال يوظف الموروث الأدبي العربي ، فلجأ الكاتب إلى نثر البيت الشعري فهـذا النثـر ليس مجرد شرح للشعر وتحويله إلى نثر، فالكاتب يلجأ إلى الشـعر وينثـره ويحولـه إلـى نـص موحٍ يُضيف إلى الرسالة الشيء الكثير فهـو يحولـه إلـى شـكل أحسـن منـه ليعبـر الكاتـب عـن شعوره فهو ينقله من سياق الشعر ليضـيف إليـه أفكـاره وعواطفـه وكأنمـا يعبّـر عـن مشـاعر الناثر للبيت الشعري وافكاره، فهو يأخذ بعض الألفاظ من البيت الشعري مضـيفاً اليهـا الكثيـر مـن الفاظـه دون أنْ يفقـد الـنص معنـاه وروحـه التـي وردت مـن التـراث ولنتأمـل قولـه(ولا الخَيْزُرانة بالنَّصْلَ) فقد عاد إلى قول الطغرائي:

وعادةُ النصـــل أَن يُزهَى بجَوْهَرِهِ وَلَيسَ يَعْمَلُ إلا فِي يَديْ بَطَلِ (٣)

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٥١

(٢) ديوان المتنبي:٣٨٣

(٣) ديوان الطغرائي، تحقيق: علي جواد طاهر ويحيى الجبوري، مطبعـة الدوحـة لحديثـه، الدوحـة -قطـر، ط٢، ١٩٨٦م، ٣٠٧ .

فنلاحظ اتكاء ابن أبي الخصال على المرجعية الأدبية الذي أتاح له هذا الاستدعاء المكين للتراث الأدبي، هو الثقافة الأدبية العميقة والتي اتاحت له التعبير عن قصده فهو يزينُ نصوصه بتضمين من الشعر العربي ويعود إلى شعر المتنبي وأبي تمام وغيرهما من شعراء العصر العباسي ولا يغفل عن نتاج شعراء الاندلس فيعود إليه ويستدعيه ويحسن تضمينه في رسائله فينتجُ نصوصاً غاية في الروعة والقوة والجمال.

وقال (...هذا وهو يُمْسِي بِزَعْمِه لفَقْدِ السِّقام شاكياً، ويُفارق بِرغْمِهِ شيبَهُ موجَعَ القَلْبِ باكِياً..) (١)

وهنا في هذه الفقرة يتداخل الكاتب مع نصوص شاعر آخر عرف بشاعريته المميزة ومكانته العالية في الشعر العربي، الّا وهو أبو الطيب المتنبي فينثر بيتين من شعره مكوناً قطعته الأدبية التي تعكس مرجعية رائعة للكاتب ومخزوناً هو ليس بالقليل فأخذ من قوله:

وَشَـــكيَّتي فَقدُ الســـَّقامِ لأنـهُ قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أعضـــاءُ (٢)

وهذا البيت له معنى لطيف، ووظفه الكاتب في سياق رسالته مستفيداً من معناه الجميل فهو يقول أشكو فقد السقام ، لأنَّ أعضاءه أتعبها الجهد الذي من هواك، فلم يبقَ محلّ في اعضائي لكي يحلّ به السقام، فهو يقول لو عدت إلى الصبا لبكيت عليه لألفتي لذلك الشيب وتعودي عليه فان فارقته ورجعت إلى أيام الصبا لافتقدته، ويشير قول الكاتب (...موجع القلب باكيا)الى قول أبي الطيب المتنبي:

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَحَلْتُ إلى الصِّـبَا لَفَارَقْتُ شَـيْبِي مُوجَعَ القلبِ بَاكِيا(٣)

وكثيراً ما يشكل الكاتب ويستدعي أبياتا شعرية من العصور الشعرية المشرقية المختلفة وكذلك ضمنها من الشعر الاندلسي لتتداخل هذه الأبيات الشعرية وتمنح نصّ ابن أبي الخصال ابعاداً دلالية رائعة تعكس مدى صلته بمرجعيته النصية الأدبية العريقة ، ومنه ما قاله في

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٤٠٤

(٢) ديوان المتنبي:١١٩

(٣) ديوانه : ١٦٠٥

إحدى رسائله: (...فإنّ أدبك اليانعَ هَبّ هبوبَ النسّيم، وخَلُصَ إليَّ خُلوصَ البُرْءِ إلى السَّقيم، وألقي عِصيّ الحَاضِر الْمُقيم، حين أنصلتْ أَسِنةُ الأقلام، ووضعتُ أَوزارَ الكلام، وأَتبعتهُ بعد الحولِ اسمَ السلام وفارقتهُ مفارقَة عمرو حين شَبّ لِطَوقهِ ، ونبذتهُ نَبْذَ أَبي صخر بعد الحاجبيَّة لنسيبهِ وشوقِه ،وخلعتهُ خَلْعَ الَمفَارق للشَّبابِ الُمفارق؛ ولطالما أَطعْتُه أَميراً ،وقطعتُ اللَّيل به سميراً، وقُمت عليه قِيامَ الوازع، وصادَيْتُه مُصاداة السِّرب النّازع فالآن حين آثرت على النَّصب الراحة ، وقلتُ له ما قال لناقَتهِ بعدَ الحِساءِ ابن رَواحة...)[1]

ضمن الكاتب هذه القطعة أكثر من بيت شعري لأكثر من شاعر فقد ضمن الرسالة من قول زهير ابن ابي سلمى:

فلما وَرَدْنَ الماءَ زُرقاً جمامهُ وضْعنَ عصيَّ الحاضرِ المُخيمِ[2]

فلما وردن الماء :أي أتينه وجدنه صافياً ويقال زرقاً جمامه لأن الماء الصافي لونه أزرق ،أقمن عليه فلما ورد القوم الماء، وقد اشتد صفاؤه عزَّ عليهم مفارقته، فكأنما وضعوا هناك كمن يبني خيمة ليقيم بها، فالكاتب ربط بين رسالته إلى صديقه وهو الصديق الوفي ذو الأفضال الكثيرة على الكاتب ،فأنه نقل معنى قول زهير ونثره في رسالته (وألقى عصي الحاضر المقيم) أي المقيم المستقر فيقول لما وَرَد الماء وهو صافٍ فهو ازرق لشدة صفائه فاحبّ أنّ يقمن عليه وكأنما أحبَّ القوم القيام عنده والتخييم عنده ،فلم يُرِدْ القوم مغادرة المكان لجماله وصفائه، وابن أبي الخصال استحضر (والقي عصي الحاضر المقيم) أي النازل المقيم فأنه وجد فيه الشخص المناسب الذي يجد فيه ما يرجوه.

واستحضر ابن أبي الخصال من قول لبيد ، وهو يخاطب ابنتيه لمّا حضرته الوفاة يطلب منهما البكاء عليه حولاً كاملاً ويطلب منهما العذر:

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسمُ السَلامِ عَلَيكُما وَمَن يَبكِ حَولاً كاملِاً فَقَد اِعتَذَر[3]

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٥٦-١٥٧
(٢) ديوان زهير ابن ابي سلمى :١٠٥
(٣) ديوان لبيد بن ربيعة شرح الطوسي، تحقيق: حنا نصر، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ٧٤ .

فهو يذكرُ حالَ ابنتيه ويتخيلُ حالتهما بعده فيصيبهما الضعف بعد فراقه، فهو السند اليهما واسم السلام يعني :السلام عليكما واستحضر ابن أبي الخصال هذا المعنى من بيت لبيد إذ قال (واتبعه بعد الحول أسم السلام) فهو يرسل إلى صديق له ويوصل إليه السلام ويصف حاله وشوقه إلى صديقه الوفي، فقد عاد الكاتب إلى موروثه القديم ونقل معنى البيت من رثاء الذات إلى الاعتذار من صديقه الذي له عليه الأفضال ولأنعام، ومع ذلك الكاتب يعتذر عن التأخر في مراسلته والسؤال عليه، ولنتأملْ كيف استدعى بيت كُثيَر عزّة ووظّفه هذا التوظيف الفنّي:

وددِتُ وما تُغْني الودادةُ أنّني بما في ضـــميرِ الحاجبيّةِ عالمُ [1]

فَكُثيَرُ يتمنى أنْ يعرف ما في قلب الحاجبية وهي عزة وانّ التمني لا ينفع ،فالقدر هو الذي يكشف ما في قلبها نحوي، فاستحضر ابن أبي الخصال قول كثير عزه في قطعته الأدبية ليكشف لنا مدى تأثره بالأدب العربي وهو يختار أن يعبّر عما في نفسه بالتداخل مع شواهد من الأدب العربي القديم ويستدعيها في رسائله ،ليضفيَ عليها روحاً جديدة ويبعثها من جديد ،واستحضر كذلك قول عبد الله بن رواحة في مسيره إلى مؤتة:

إذا اديتني وحملت رُحلي مسيرة أربع بعد الحساءِ
فشأنك أنعمٌ وخلاكِ ذمٌ ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وآب المسلمون وغادروني بأرض الشام مشتهي الثواءِ[2]

استحضر ابن أبي الخصال من قول عبد الله بن رواحة في مسيرته إلى مؤتة عندما تجهز الناس للخروج إلى مؤتة، فلما نزلوا أرض الشام سَمِعوا هرقل نزل في أرض البلقاء في مائة الف فشجع ابن رواحة القوم على القتال فإنما المسلمون يقاتلون بدينهم وإنَّ الله سيرزقهم إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، فاستحضر ابن أبي الخصال حديث ابن رواحه لناقته وما أخبرها به من عدم التراجع، وإنّه عازم على: إمّا النصر أو الشهادة فينبغي بالقارئ العودة إلى مخزونه ليعرض قصة ابن رواحه مع ناقته ففي هذه القطعة تتداخل المرجعيات الأدبية

(١) ديوان كثير عزه، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان،١٩٧١م، ٢٤٥.
(٢) ديوان عبد الله بن رواحه (دراسة في سيرته وحياته وشعره) تحقيق: وليد قصاب، دار العلوم للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٢م، ٣٨.

والموروثات فيضمّن الكاتب هذه القطعة الأدبية من الشعر الجاهلي والإسلامي والشعر الأموي فهذه القدرة على الجمع بين هذه النتاجات في سياق نصي واحد يكشف سعة المرجعية الأدبية ومدى روعتها وحسن الانتقاء ،عند الكاتب ويعكس تبحِّرهُ بالأدب العربي وحفظَهُ للأدب العريق اذ يستقي من صوره والفاظه ما يراه مناسباً لرسالته في سياق جميل لا تكلُّفَ فيه ولا صنعةَ، فهو سلس يعكس انصهار التراث العربي العريق وامتزاجه مع التراث المعاصر للشاعر، ويتكامل التراث الماضي والمعاصر للكاتب في تشكيل الصورة التي أرادها والتعبير عن الغرض الذي قصده ،وهذا لا يمكن إلّا لكاتب تفوّقَ في حفظ التراث ،وتعمّق فيه، ما أتاح له التصرف بهذا الموروث بشكل رائع غير مخلٍّ ،بل مكتمل مضيفاً إلى رسالته الشيء الكثير ولعلّ هذا الذي تأملناه من استحضار ابن أبي الخصال لشذرات من الشعر العربي بما يمدّ جذور فنه الأدبي بهذه المرجعيات الثقافية الأدبية النصيَّة، تجعلنا نتفق مع الدكتور صلاح جرّار إذ يقول: "فالأدب العربي نَهْرٌ جارٍ متدفق ذو روافد ،منبعه الأدب الجاهلي، ولا تزال خصائص هذا الادب مترامية في روافده الشرقية والأندلسية ، فالمتكأ الحضاري للأدب العربي في الشرق والغرب واحد"(١).

ويُكمل ابن أبي الخصال رسالته ويؤتيها بمختلف الإشارات والتضمينات من العصور الشعرية كافة ، فهي تجمع قَدْراً كبيراً من التراث في بضع كلمات ما يستدعي القارئ إلى العودة واستحضار التراث الأدبي من أجلِ فَهْمِ الصورة التي أراد الكاتب التعبير عنها .

ويُكْمِلُ الرسالة (...أجلْ لقد كانَ في الفَصاحةِ ثاني اثنين ،وذا هِجرتين وحامل رايتين ، والْمُسُتْولي على غَايتين ؛ يَؤمُّهُ أَهلُ الحديث، بالرّكض الحثيث ، فيقيمُ إسنادَهُ ويثقّف مُنْآدَهُ ، ويعلمُ صلاحَهُ وفَسادَهُ، وأَمّا أَهلُ الأَدبِ فينسلون إليه من كل حَدَب ، وينتدبون نحوَهُ من كل مُنْتَدب، فيكْرَعُون في حِياضٍ تَفهق ،وينعمون في رياضٍ تَندى طيباً وتُعبق ،ثم يَصْدُرون عن غَمرٍ تغترف منه الأحياء، ولا تكدّرهُ الدلاء ومَنْ كان ذُباب هذا النصِّل...واللهُ الكفيلُ بما أمّلت له وأمّل، بجوده ومَجْده واقرأ عليه -دامَ عِزُّه!- سلاماً لو عُصر منهُ المسكُ لانْعصَر...)(٢)

(١) دراسات في الشعر الاندلسي:١٠

(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٦٠-١٦١

وقد تشكلت هذه الرسالة من المرجعيات الأدبية للكاتب فقد عاد إلى قول عدي بن الرقاع:

وَقَصـــيـدَةٍ قَـدْ بِـتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَـا حَتَّـى أُقَوِّمَ مَيْلَهـاَ وَسِـــنَـادَهَـا
نَظَرَ المُثَقِّفُ فِي كُعُوبِ قَنَـاتـهِ حَتَّـى يُقِيمَ ثِقَـافُـهُ مُنـادَهَـا (١)

فهذا الصديق فصيح اللسان وحامل راية للعلم، فهو في الحديث يرجع الحديث إلى سنده الصحيح ، أما في الأدب فهو مرجع لكثير من الأدباء وينهلون من ذلك الرجل الأديب ذي الثقافة الأدبية العالية الذي لسانه لا يوجد به عيب ولا خلة، فهؤلاء الأدباء يغترفون من ذلك الماء في البحر الواسع وهو لا تكدره الدلاء أي لا تغير لون مائه كثرة الدلاء، فوظف قول حسان بن ثابت لهذا المعنى:

لِســـانِي صَـــارِمٌ لا عَيْـبَ فيهِ وَبَـحْـرِي لا تُـكَـدّرُهُ الـدّلاءُ (٢)

ففي هذا البيت تشبيه بليغ، فلسانه كالسيف الذي يقطع ولا يوجد فيه أي عيب ، فهو كالبحر الذي لا يُكَّدرُ ماؤه مهما كثرت الدلاء غير النظيفة ،واستفاد الكاتب من هذا المعنى فهو كالماء الكثير الذي لا تكدره الدلاء ولا تضرّهُ ولا تؤثر فيه فضمن في قوله (سلاماً لو عصر منه والمسكُ لانعصر) من قول أبي النجم العجلي:

لَو عُصْـرَ منْهُ البَانُ والمِسْـكُ انعَصَـر (٣)

فيأتي التضمين بسيطاً وواضحاً لا خلَّةَ فيه فهذا السلام المليء بالحب لو عصر منه المسك لانعصر له ،فلهذا السلام خصوصية فهو يُشّبهُ بالبان وهو شجر حبه طيّبٌ الدهن والعصر وإنَّ هذا السلام جميل حتى لشدة جماله ومن شدة الحب والشوق إنّه لو عصره لوجد فيه البان والمسك، وهذه من أجمل الصور التي عبَّر عنها الكاتب في تحية المرسل إليه وهو يعبر عن مكانة المرسل إليه وصله الكاتب به ،فالكاتب يأخذ هذا الوصف الجميل الذي عبر

(١) ديوان عدي بن الرقاع العاملي، تحقيق حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٩٩٠م، ٣٨ .
(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق: عبدا مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط٢، ١٩٩٤م،٢١.
(٣) ديوان أبي النجم العجلي، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢٠٠٦م، ١٥٩.

عنه العجلي ،وإنّ لشدة حبه للفتاة أنّ الناظر يُطيل النظر إليها ولا يشبعُ من هذا النظر وإنّها طويلة الشعر تفوحُ منه العطور الطيبة حتى لو عُصر منه البان والمسك لا نعصر، فالكاتب يأخذ هذا الوصف لشعر الفتاة ويوظّفهُ في وصف سلامه للمرسل إليه، وهذا يدلُّ على إبداع الكاتب وتصرّفهِ بالشعر ونقله من صورته القديمة إلى صورة جديدة مبتكرة.

وقال (...ولقينا حِلمه بأعظم جَهل؛ وتسنّمناه طبقاً طبقاً، وأَكلْنَاهُ ثَمراً ووَرقاً، ولذدنا الطَّير عن شَجرٍ قد بلَونا الحُلو من ثَمره...)[١]

اخذ من قول ابي نؤاس :

لا أذودُ الطْيرَ عن شـــجرٍ قد بلوتُ المُرَّ من ثَمرِه [٢]

والعرب تشبه الأبل التي عليها هوادجها بالنخل والشجر فهو يُشبه الأبل بالأشجار يقول (بلوت) أي ذقت ثمرها وانهّا كانت سببَ فراق أحبته ورحيلهم عنها، ولكن ابن أبي الخصال يعكس المعنى فهو يقول (ولذدنا الطَّير عن شَجرٍ قد بلَونا الحُلو من ثَمره)فهو يتمنى لقاء ذلك الصديق الذي سكن قرية قريبة من جيّان ، فأتاحت له سعة الثقافة الأدبية عكس المعنى دون أن يخلّ بالرسالة والصورة التي وردت فيه من التراث الأدبي، وهذا البيت يوظفه ابن أبي الخصال في أكثر من رسالة لجمال صورته وعكس معناه في رسالته، للاستفادة من صورته الجميلة وتعبيره الرائع .

ووظف قول المتنبي في رسالته بشكل مباشر بدون تغيير أو تحوير في البيت فأورده في نصّ الرسالة كما هو قال (...بل يقتني الذَّهب، ويرتاحُ البخيل ويَهب، وكلٌّ يستيقن أَنَّ نوالك لا يعزب، ولكنّ مناجاتك تعذب

وَكَثِيرٌ مِنَ السُّـــؤالِ اشْـــتِيـاقٌ وَكَـثـيـرٌ مِـنْ رَدِّهِ تَـعـلـيـلُ [٣]

وأَقرأ عَليكَ سلاماً كثنائِك...) [٤]

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٦٨
(٢) ديوان أبي نؤاس برواية الصّولي، تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي -الأمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٠م، ٢٧٢ .
(٣) ديوان المتنبي: ٩٢٩
(٤) رسائل ابن أبي الخصال:١٦٩

استدعى ابن أبي الخصال بيتاً للمتنبي من دون تغير أو تحوير ولعلَّ ذلك يرجع إلى كون الكاتب ابن ابي الخصال في وضعٍ مشابهٍ لوضع المتنبي ،ولذلك وجد في النصِّ القديم صوتاً مماثلاً لصوته فوظفه في رسالته ومعنى البيت ،أنّ كثيراً من السؤال لاعن جهل انما هو اشتياق عمن نسأل عنه، وقوله وكثير من رده تعليل أي من أن كثيراً من الأجوبة هو تطيب لنفس السائل فهو يعرف قصد السائل، فيلجا إلى تطيب نفسه بالإجابة التي تفرحه وقد أورد الكاتب هذا البيت في عتاب صديقه الذي يسأل عنه الكاتب ويشتاق اليه، فيوظّف لهذا المعنى قول المتنبي بشكل مباشر من دون تغّير ويختار لهذا القول المكان المناسب في الرسالة بحيث يُكملُ الفكرة والمعنى الذي أراد ابن أبي الخصال التعبير عنه.

وفي رسالة إلى أحد أصدقائه ابتدأها بقول المتنبي:

هَوّنْ على بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ فَإنَّمَا يَقَظاتُ الَعْينِ كالحُلُمِ (١)

فهو يقول هون عليك ما صَعُبَ منظرهُ ورؤيته، وَهَبْ أنك تراه ذلك الشيء في الحلم فإنّ يقظات العين، إنمّا هي كالحُلمُ واستعان الكاتب بقول المتنبي واستفتح بها رسالته وإنّما هذه الدنيا قصيرة فهي كما يصفها الكاتب، لَهْوٌ ولَعِبٌ، واستعان الكاتب بهذا البيت لما أراد أن يبتدئ به الرسالة ، فأختار من الموروث الأدبي ما يناسب رسالته وجعله في مقدمة الرسالة وفاتحاً لها.

وله رسالة إلى صديق نطالع فيها اتكاءه على الموروث الأدبي الشعري اتكاءً فنياً مما يؤمي إلى تمكَّنِه مِن استلهام التراث الشعري وتوظيفه في رسائله توظيفاً ثقافياً واعياً وعلى النحو الاتي (...وأثارت بِقُدْرَتِهِ سَحابا؛ يَحْدَرُه الرّعد مُهَيِتاً لِيُحْيِي بهِ بَلداً مَيتاً؛ ويُثلج بهِ الثُرى المكْرُوب..) (٢) استحضر ابن أبي الخصال قول أبي تمام:

دِيمَةُ سَمْحَةُ القِيادِ سَكُوبُ مُستغيثٌ بِهاَ الثَّرَى المكْرُوبُ (٣)

(١) ديوان المتنبي:١٢٦٢
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٧٧
(٣) ديوان ابي تمام: ١٥٧/١

فأبو تمام يعني السحابة الممطرة التي تقودها الريح ،وسكوب كثيرة المطر فإن الثرى أو التراب الذي حُرث يستغيث بهذا المطر لكي يسقيه ويظهر نفعه، فأخذ ابن أبي الخصال من هذا المعنى وقال(ويُثلج به من الثرى المكروب خيراً) ،فوظفه بالمعنى ذاته، الذي جاء به أبو تمام مع إجراء بعض التغيير الذي اقتضاه نقل البيت من المنظوم إلى المنثور ليتماشى مع سياق النص النثري المرسل ،فالاستحضار للنص وادماجه في الصياغة النثرية التي هو عليها، ليس شيئاً هيّناً ، إذ به حاجة إلى الحافظة المكينة التي تهتدي إلى ما يلائم خطابه النثري من مخزونه الثقافي ،ثم تأتي عملية الاندماج الفنّي التي تستند بعد الاستدعاء والاستحضار، إلى ما يسمى بالشعرية التي يُقصد بها القدرة الإبداعية للمنشئ على جعل النصّ المستحضر قادراً على مدّ أو تغذية عواطف الأديب وفكره بما يجعله يُعيدُ انتاج النص إعادةً تنأى به عن المحاكاة والتقليد وتحلُّه محلّ الإبداع والتصّرف الأدبي الذي يتساوق وتجربته الأدبية .

وقال (...ويا نعْمَهاَ ريحاً ما أَخْطَرها وأَسراها؛ تنفحُ بالمِسك يَمينُها ويُسراها، ألذّ في الأَجفانِ من سنة كَراها، وأطيبُ في النُّفوسِ من عَشّيات الحِمى وذكراها حين استبحنا من اللَّذاتِ حِماها...وأَفدي شادي الظّباء إذا بغم، وأَنْتشِقُ طيّب الكِباءِ إذا فَغم...)"[1].

وظف ابن أبي الخصال في هذه القطعة عدداً من الأبيات الشعرية مضمناً إياها في رسالته منها قول ابن عمار الاندلسي:

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ في الأجفان من سنةِ الكرى[2]

وقول الشاعر الصمة القشيري:

فَلَيْسَت عَشِيأت الحِمَى بِرَواجِعٍ عَلَيكَ ولكِنْ خَلِّ عَينيك تَدْمَعا [3]

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٧٨

(٢) محمد بن عمار الأندلسي دراسة أدبية تأريخية صلاح خالص، مطبعة الهدى – بغداد،١٩٥٧م، ١٩٠

(٣) الصمة بن عبد الله القشيري حياته وشعره، تحقيق: خالد عبد الرؤوف الجبر، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان -الاردن، ١١٠.

وقول محمد بن القوطية الاندلسي

اشرب على السوسن الغضّ الذي فغما وباكِر الآسَ والوَردَ الذي نَجما [١]

فتداخلُ النصوص في تشكيل هذه الرسالة ،واضفاءُ البعد القرائي العميق عليها ،آتٍ من استحضار عددٍ يستحضر عدداً من الأبيات الشعرية إذ اسعفت الكاتب مرجعيته الأدبية ليستقي منها ويعزز نصوصه النثرية بابعاد جمالية ودلالية عميقة ، فهو ألذّ في الأجفان من طيب النوم بعد الكرى وأطيب من عشيات الحمى وأطيب من الغم وهو الطيب الذي انتشر وملأ المكان، وهذا التشكيل الذي جاء به ابن أبي الخصال ،والتداخل بين هذه الأبيات لتشكيل القطعة الأدبية بصورة أدبية ،يكشف عن ثقافة عميقة ،ونفس طويل، وارتباط بالمرجعية النصية الأدبية ،ودراية في الأدب العربي، وتمكنٍ من كل هذا أتاح للشاعر الغوص في التراث والاستقاء منه ليروي نصه بأعذب الألفاظ والمعاني والصور المستقاة من الموروث الأدبي الرفيع بما رصنّ بناءه وخدم مضامينه بتقديمه نصاً ذا قدرة عالية على التأثير والتوصيل ، فقد حلَّ الكاتب قول الشاعر ووظفه في الغرض نفسه، وهو المدح وقد أحسن توظيف البيتين والذي يدل على قدرته الفائقة على استقاء الألفاظ والتراكيب والمعاني من المدونات الأدبية وادخالها في خطابه بصوغها خطاباً جديداً ، بيد أنّ هذا الاستحضار -وعلى الرغم من فنيته العالية – لم يكن هدف ابن أبي الخصال منه التوظيف الصوري أو تحسين البناء بل يمثل هذا الاستحضار لبنة أساسية في النص النثري ويعكس تأثر ابن أبي الخصال بالإرث الأدبي الغني.

وقال (...أولئك قومٌ انفردوا بالإحسان، وأَتوا الزَّمان في شبيبةِ الزّمان...) [٢]

استدعى هذا من قول المتنبي:

أَتَى الزَّمَانَ بَنوهُ في شَبِيبتِهِ فَسَرهُمْ وأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرمِ [٣]

(١) رايات المبرزين وغايات المميزين لابي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧م، ٥٥.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال:١٨٠

(٣) ديوان المتنبي:١٢٦٢

فالكاتب يضمن قول المتنبي وجاء في نفس المعنى الذي ذكره المتنبي، والمعنى إنّ أبناء الزمان أتوه عندما كان في حدثان الدهر ، فسَّرهم وأخذوا منه ما يتمنون وما يفرحون به، أمّا نحن فقد أتينا الزمان وقد هَرِم وخَرِفَ ولم نجد عنده ما يسرُّنا، فعندما يأتون الزمان في شدبيبته فأنه يسرهم ويجد عندهم ما يفرحهم ويرضيهم فتأثر نص المنشئ بالموروث الثقافي الأصيل، الذي غدا الأنموذج لكل أديب إذ حاولوا مجاراته ومعارضته وصولاً لبلوغ شأوه وربما التفّوق عليه ، وكأن الأديب ابن أبي الخصال يتحدث نيابة عن مبدعي النصوص المستحضرة بناءً ومعاني. و"الموروث العظيم ينعكس في عمل الأديب في شكل ثقافة زاخرة تجد صداها في الرؤية الذاتية للشاعر"(١)

وقال ايضاً (...وأشهد ان محمداً عبدُهُ ورسوله الّذي انتظمتْ رسألُتهُ جميعَ الأُمم، وأَسمعتْ بلاغتُهُ كلَّ ذي صَمَم ...) (٢) من قول المتنبي:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي واسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ(٣)

فالكاتب أراد التعبير عن بلاغة الرسول الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) فاستعار تعبيراً من التراث العربي وضّمن رسالته قول المتنبي، فالكاتب الاندلسي تأثر بالأدب العباسي والمتنبي بشكل خاص فقد ضمن رسائله الكثير من شعره ،نظرا لما تميّز به شعره من قوة وجمال لا نظير له ، فيعود إلى تلك المرجعية الغنيَّة بالشواهد الزاخرة والمعاني الجميلة والصور الرائعة ،فيأخذ منها ما يلائمُ غرضه الذي أراد ايصاله " فكان الشعر العربي العبق الذي يمُد نصَّه بماء الحياة الضروري لانعاشه ،ويشدُّ عرى جذوره إلى خلفية ثقافية ذات قاعدة واسعة في الثقافة الأدبية للشعر الاندلسي متمثلةً بالأدب العباسي المُترف صاحب الاتجاه المتجدد في الصوغ الشعري ، الذي بهر الاندلسيين بنتاجه ، وصوره ، واستعاراته ، وابتكاراته التشبيهية"(٤)

---

(١) منابع الالهام والثقافة في الادب العربي(بحث)، عادل جاسم البياتي، مجلة المجمع العلمي العراقي مج ٢٣ ، ج٣،٤ ،١٩٨١م، ٥٦٦

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٣٥

(٣) ديوانه:١٢٢٨

(٤) المرجعيات الثقافية الموروثة:٥٠٩

وقال في رسالة إلى ابي بكر بن العربي:(...ولا يُخْفَرُ لديه الذَّمام، ولا تُبلي جِدّة وُدّه الأَيام يَلُمُّ الإخوانَ على شَعَث ، وينبعثُ إلى صِلتهم كلَّ مُنبعث ويغفرُ عَوراءَ الصَّديق ، ويأذنُ لعذره أذن التّصديق ولا يلزمُ الضَّعيف ذنبَ الْمُطيق ،ويرتفعُ جَلالهُ عن الظنّ، ولا يكدّرُ معروفَه بالْمنّ لاسيما عند من يعرفُ ويَعترف ،ويَمضي في سَننِ شكره ولا يَنحرف فأَما الْكُفر فهو لنفسِ الْمُنعم مَخبْثة..)[1].

فقد تداخلت التضمينات من الشعر العربي في هذه القطعة الأدبية، إذ وظَّفَ الكاتب أربعة أبيات لشعراء مختلفين ونثرها لخدمة نصه بما يناسب المعنى الذي قصده ،فقد ضمن رسالته عدداً من أشطار الأبيات ومنها قول أبي نؤاس في مطلع قصيدته:

يا دار ما فعلت بك الأيام لم تُبق فيك بشاشة تُستامُ[2]

فإنَّ الأيامَ أضامت الدار وأذلتها ولم تبق فيها مكاناً للفرح، من طبع الأيام تُضيمُ دون أنْ تُضام ،فهو يذكر الأيام- وقد تبين لنا من قراء تنا دواوين الأندلسيين -بالأثر الثقافي الذي أحدثه شعر النابغة في النص الأندلسي:

ولسْتَ بمُستبقٍ أخاً لا تلُمَّهُ على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ[3]

فأخذ الكاتب ابن أبي الخصال في قوله (يلمُّ الأخوان على شعثٍ) من قول الشاعر ووظفه ايّما توظيف أي يلم الله شملكم ويجمعكم فضمن ابن أبي الخصال رسالته في الشعر العربي فهو يأخذ معنى البيت ويوظفه في الرسالة بشكل مغاير عما ورد فيه من سياق إلى سياق آخر يختلف عنه، مستغلاً الموائمة بين معنى البيت والرسالة ولقد أمدته هذه الاستعانة بالمرجعية الأدبية النصية بما مكنه من تقديم خطاب نثري ذي قدرة على التوصيل.

وضمن قطعته النثرية أيضاً من قول حاتم الطائي:

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٨٤
(٢) ديوان ابي نؤاس:٣٤١
(٣) ديوانه:٧٤

وأغْفِرُ عَوراءَ الكَريمِ ادّخارهُ وأُصْـفَحُ مِنْ شَـتمِ اللئيمِ تكَرُّمَا (١)

فابن أبي الخصال يوظف في رسائله، الموروث الأدبي فهذا الصديق يصف خصاله الحسنة بالعودة إلى مرجعيته الأدبية والتعبير عنها بما عبر عنه القدماء لتوثيق هذه الصفات الحسنة في صديقه فهو يعفو عن القبيح من الكلام، وعوراء الصديق فعله السيء فهو لشدة كرمه ونبل أخلاقه يغفر لصديقه ما بدر منه، ورصن هذا الوصف ووثقه بالعودة إلى الموروث ومن قول عنترة:

نُبئتُ عَمراً غَيْر شَـــاكِرِ نِعْمتَي والْكُفرُ مَخبثَـةٌ لِنَفْسِ المنعِمِ (٢)

فيعود ابن أبي الخصال إلى المرجعية الأدبية أيضا ليضيف إليها الرصانة وقوة التأثير والايحاء فيستحضر قول عنترة وينثره في قوله (فأما الكفر فهو لنفس المنعم مخبثة) فيقصد الكاتب بعبارته نفس المعنى الذي قصده عنترة في معلقته، فهو يقول ان كفر الأنسان وعدم الشكر على النعمة تدفع نفس المنعم إلى النفور من الإنعام عليه ،لأنه لا يقدر النعمة فهو كالكفر والجحود بالنعمة ولهذا التشكيل والتداخل في الرسالة الشيء الكثير والتأثير القوي والايحاء الواضح، وهذا التحوير يظهر -واضحاً -ببيتي النابغة وعنترة حيث ظهرت في هذا النص قدرة الكاتب على تحوير معنى البيتين والتصرف فيهما وقلبه إلى صفة الثبات ليتناسب مع مقصده ،فابن أبي الخصال قلب المعنى بعد ان اتى بلفظ (تلمّ)وحذف أداة النفي وأخذ من الشطر الثاني لفظة شعث، وجمع أخا إلى إخوان ليتناسب مع المعنى الذي أراد الإفصاح عنه وتبدو مقدرة الكاتب واضحةً في هضم ما استرفده من أشعار الجاهليين وغيرهم وتوظيفه الفنّي الذي يعتمد فيه غالباً على التحوير بعد انتقاء المعنى الذي يفيد المعنى الذي أراده .

وقال(...ولَمّا نَشيتُ من رِيحها ما نشيْتُ قلتُ: ليسَ لي ما شيتُ، وعَلّلتُ نَفْسي بِتَراخي الصَّدر، ورَجَوْتُ أنْ يكونَ لنا ريحُ الجِلاد، ورَحا القَدر فتبعث الخَواطرَ بواعثُ النَّصر، وتُرسل الهِمَم من عِقال ذَلك الحَصْرِ فورَدَ من الأَمر ما وَردَ، وبَرَد الدعاءُ حيثُ بَرَد، وحقَّتْ

(١) ديوان حاتم الطائي، تحقيق: أحمد رشاد، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٣، ٢٠٠٢م، ٤٥ .
(٢) ديون عنترة بن شداد: ١٨٠

ذُنوبٌ وتَرَقّت خُطوبٌ ، وتَوالَتْ شُغُوب ، وأَنكادٌ مسَّ الخاطِرَ منها لُغوب ؛ودَفَن القَوافي غُمَير، وتُرِك عَنْ ميامِنِنَا ضُميَر ، وعاثَ في الذِّمم الوافية العَدَم، ولم يَحْدُث لمَنْ وَدَّعتهم نَدم، ولا التفَّ بالشَّوق قرنٌ ولا قدم، وما خَطَطْتُه إلاّ عن عجزٍ وكَسَل، وفكرٍ كوخْزِ الأَشافي ، بل كوقْعِ الأَسل..)[1]

استحضر عدداً من الأبيات بالعودة إلى مرجعيته الأدبية فأخذ من قول ابن هاني:

فتُقتْ لكم ريح ُالجلادِ بعنبرٍ وأمدَّ كم خلقُ الصَّباحِ الْمُسْفرِ [2]

فوظف ابن أبي الخصال عبارة من بيت ابن هانئ الاندلسي في رسالته وهو قوله (ريح الجلاد) والجلاد هو المجالدة في القتال والحرب ،ويقال كانت لفلان الريح أي كانت الغلبة له أما ابن هانئ فيقول أنتم تشمون رائحة النصر ورائحة الجثث في الميدان كالعنبر لأنكم ابطال تحبون القتال، فأخذ عبارة من بيت الشاعر ووظفها في رسالته وأعاد في ذلك ما في العبارة من قوة وإيحاء ،ولا غرو أن يتأثر الأديب الأندلسي الكبير ابن أبي الخصال ذو الثقافة الموسوعية بالشاعر ابن هاني الاندلسي الذي لقبه النقاد بمتنبي الاندلس ناظرين إلى قوة بنائه ورصانة أسلوبه وطول نفسه الشعري ،وما عرف عنه من حدّة شعريه وتوخي الجرس الموسيقي، ولذا يظهر بين رسالة وأخرى آثار الشعراء الكبار من مشرقيين واندلسيين – مثلما رأينا- بوصف هؤلاء الشعراء الأنموذجَ الثقافي الأمثل في الموهبة والإبداع ، فمن الطبيعي إن نجد آثار تلك الثقافة الأدبية ونتاج الأدباء الاندلسيين[3] بيد أنَّ كل هذا التأثر بالموروث الأدبي المشرقي والأندلسي في إنتاج ابن أبي الخصال لا يعدّ َتقليداً أو محاكاة او سيراً في ركاب الأسلاف مثلما ادعى بعض الدارسين الّذين وهموا أنّ الشعر الأندلسي هو محض تقليد للشعر المشرقي فللأدب الاندلسي روحُه وَنَفسُه الخاص الذي تميّز به .

(١) رسائل البن ابي الخصال: ١٩٠-١٩١

(٢) ديوان ابن هانئ الأندلسي، بعناية: المعلم شاهين عطية، المطبعة اللبنانية، بيروت، ١٨٨٦م، ٧٤.

(٣) ينظر: الادب الاندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة:١٩٩.

وله رسالة في إجازه مقرئ وظف فيها النصوص الأدبية ودمجها في نص رسالته يقول (...ولا ينهزُه إلا أن تكونَ كَلمةُ اللهِ العُليا؛ ومَوطن أَذى غَضبَت لهُ الأرضُ والسَّماء، وآية هُدى أُريقَت على جَوَانِبِ تَبليغها الدِّماء...) (١) ضمن الرسالة من قول المتنبي:

لاَ يَسْلمُ الشَّرَفُ الرّفيعُ مِنَ الأذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانبِه ِالدَّمُ (٢)

أي لا يسلم للشريف شرفه من أذىً المعادين والحساد حتى يقتل أولئك الأعداء فإن أراق دماءهم سَلِمَ شَرفه من الأذى لأنه أصبح مهيباً لا يتعرض له أحد، فالخطاب النثري الجديد أتاح للكاتب التعبير عن تجربته الشعورية إذ صور في البيت بما يتناسب مع رسالته في إجازة مقرئ ،فلم يأخذ من البيت الاّجُزءاً منه، ولكن استطاع الكاتب بأسلوبه الخاص وثقافته تطويع الفاظ البيت وتوظيف معناه في الرسالة بشكل جميل ،وواضح كلّ الوضوح كيف ذكّره غرض رسالته ومضمونها بمدونه المتنبي الذي يبدو أثره الكبير في الأدب الأندلسي عامة وابن أبي الخصال بشكل خاص، فقدح في ذهنه بيت أبي الطيب المتنبي المذكور آنفاً، إذ اقتطع منه جلّ شطره الثاني ليرتبط بالخطاب النثري ويُثري معناه وبناءه الفني بفضل قدرة المبدع، وحسن تعامله مع النص المُستحضَر ،ليقدم لنا مقطعاً نثرياً معبراً عن تجربة الكاتب وثقافته إذ امتلك الكاتب الاندلسي القدرة على امتصاص النص المُستحضر -بعد غيابه- واستثمار دلالته الضمنية .

ومن رسالة إلى بعض الأصدقاء (...أضربُ المثلَ في الفَضل بِفَوْتك، وأدعُ كلّ صوتٍ بعدَ صوتِك، فإنهُ الصَّدى وأنتَ الصّائح المحكيّ، والبحرُ يتضاءَلُ عنه الرَّكي، والبازِي لا يَشتهي لقاءَهُ الكُرْكيّ...) (٣) من قول ابي الطيب المتنبي:

ودَعْ كلَّ صَوتٍ غيرَ صَوتي فأنني أنا الطائرُ الْمَحْكيُّ والآخرُ الصَّدى(٤)

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٩٦
(٢) ديوانه:١٢٥٤
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٢٢٢-٢٢٣
(٤) ديوانه:٣٨٣

يقول ابن أبي الخصال انا أدَعُ كل صوت بعد صوته فأنه الصوت الحقيقي وصوت غيرك هو صدى لصوتك، وهذا مدح للمرسل إليه وانه يتبعه ويستمع إليه ولا لأحد غيره فأنه الأصل وغيره الفرع.

وقال أيضا (...ولا تأخرتُ لِنفاق، ولا كان إلّا عن حُسنِ ظَنّ واتّفاق ، ورُبّما وافاكَ بين يَدي هذه الضَّجرةِ كِتابي ماشِياً على أَناته، وطيرُه في وكناتِه، وصدرُه مطمئنٌ ببناتِه..) (١)

من قول امرئ القيس:

وقد اغتدى والطيرُ في وكناتِها بمنجرِد قَيْدِ الأوابدِ هَيْكلِ (٢)

(وطيره في وكناته) أخذ هذه الصورة من الشعر العربي اذ يعود إلى العصر الجاهلي ويستحضر الصورة التي رسمها امرؤ القيس، ويوظفها في رسالته وقوله (وطيره في وكناته) أي من مقره الذي يرجع إليه، وثمة توظيف لقول الصمة القشيري:

وَلَمّا رأيتُ النيرَ أعرَضَ دُونَنا وجَالتْ بَناتُ الشَّوقِ يَحْنِنَّ نُزَّعا(٣)

وقوله بنات الصدر أي ما يضمره الأنسان في صدره سواء كان خيراً أم شراً فالكاتب يشكل نصه من مختلف التضمينات والتداخل الجميل بين النصوص مع ما يضيفهُ من ألفاظ وطريقة في صياغة المعاني القديمة في قالب جديد ، ليخرج الرسالة في صورة واضحة مكتملة البناء.

له رسالة في خطاب إحدى سيدات البيت اللمتوني قال فيها:

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٢٥
(٢) ديوانه:١٩
(٣) ديوانه:١١١

(...وكيفَ لا تنصَدعُ كبدِي وتَنْفطِر، وتَجْري عَبْرَتي فتُمطِر، ووراءي قرابَةٌ وتَبَع، وبُنَيّاتٌ كزُغْبِ القَطا، أَربع، وأُمَّهاتُ أَوْلادٍ ضُيَّع؟ فإلى مَن يَشتكين بمظلَمَة، وكاسبُهُنّ في قعْرِ مُظْلمَة...) (١)

وهذه الرسالة في خطاب احدى سيدات البيت اللمتوني واستحضر الأديب مرجعيته الأدبية في هذه المقطع أيضاً فوظّف قول حطان بن المعلى:

لولا بُنياتُ كزغبِ القَطَا رُددْنَ مِنْ بعْضٍ إلى بَعضِ
لكانَ لي مُضطرَبٌ واسِعٌ في الأرضِ ذاتِ الطولِ والعَرْضِ (٢)

فأخذ شطر بيت الشاعر ووظفه فقال (وبنيات كزغب القطا أربع) وبنيات تصغير بنات وقال كزغب القطا أي لصغرهن فأنهن كالقطا التي عليها الزغب وهو الشعر الصغير فقد أصاب البنيات الأذى وأصاب امهاتهن وكافلهن في السجن ويوظف لهذا المعنى قول الحطيئة:

غيبت كاسبهُم في قعرِ مُظلمةٍ فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عمرُ (٣)

فالكاتب كالطير الطائر الذي ينتقي من الحبوب أطيبها طعماً وأجملها شكلاً ولوناً، فالشاعر يطير بقلمه وينتقي الشعر العربي أجمله ويوظفه بشكل أجمل تتيحها له ثقافته العالية.

وله رسالة إلى رئيس ذي منصب عالٍ يتوسط لديه ليضمَّ رجلاً إلى ديوانه (...ولولا بَرْقٌ صَدع، وصَوتٌ ثنَى نحوكَ اللِّيتَ والأَخدع، للبثتُ حقَباً، ولم أَعرفْ لِسَناك مَرْقباً...وشرهتَ إلى مُناجَاة الْخَليط، وألقَتْ إليكَ أَمانِيُّك بالإقليد..) (٤)

وضمَّن هذه الرسالة أيضاً من الشعر العربي ومنها ما قاله الصَّمة القشيري

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٢٦٥
(٢) ديوان الحماسة، لابي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ٥٣.
(٣) ديوانه:١٠٨
(٤) رسائل ابن أبي الخصال:٢٩١

تَلَفتُّ نَحو الحَيِ حَتى وَجَدتني وَجعْتُ مِنَ الإصغاءِ لِيتاً وَأخدَعا[1]

والليت صفحة العنق، والأخدع عرق فيها ، والشاعر يقول لما حان الفراق صرت أكثِرُ من الالتفات وإطالة النظر إلى الحي ،حتى وجدت نفسي وجع الليت والأخدع أي من كثرة الالتفات، فأخذ ابن أبي الخصال هذا المعنى ووظّفه بشكل رائعٍ فقال (وصوت ثنى نحوك الليت والاخدع) فصوتك اثّر في وأثار انتباهي وأكثرتُ من الالتفات إليك حتى توجَّع الليت والأخدع ويوظف قول أبي تمام في قطعته ايضاً ،يقول أبو تمام:

نَفسي فدَاؤُك أَيَّ باب مُلمَّة لم يُرْمَ فيه إليكَ بالأقليدِ [2]

فوظف ابن أبي الخصال هذا البيت في مكانه الملائم له (والفت اليك أمانيك بالأقليد) أي سلمتك المفتاح وأخذت مكانك الذي تستحق إذ استعان بالصورة التي رسمها أبو تمام في التعبير عما أراده في رسالته.

وقال (...وأَرِحْ ركائبك، وأشْرِقْها بدَمِ الوَتينِ، واستمسك بذلك الحبل المتين...أما إن الْمُقْسَمَ بهِ لَجليلٌ وإن العِوَض -أبا بكر- لقليل؛ ...وغارة دُلُق وآجالٌ قصارٌ، وريح يَلْقَاها إعصارٌ وأما نحن فكما أُلغِيَ في الدِّية حُوار..) [3]

تداخلت رسالة ابن أبي الخصال مع الشعر العربي فشكلت هذا النص المميز فقد وشّي رسائله بأبيات من مرجعيته الأدبية الواسعة منها ما قاله الشماخ:

إذا بلغتني -وحَطَطتِ رَحْلِي- عَرَابةَ فأشرِقي بدَمِ الوتينِ[4]

أخذ الكاتب من البيت الشعري ووظفه في الرسالة في قوله (واشرقها بدم الوتين) مما أضاف إثراء للغة الرسالة، وضمن من البيت الشعري بشكل تضمين غير مباشر بل حوَّر في

(١) ديوانه:١١١
(٢) ديوانه:٢١٢
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٢٩٢
(٤) ديوانه: ٣٢٣

البيت وأضفى عليه بعض التغييرات مما يتناسب مع رسالته ووظف الكاتب أيضاً هذا المعنى في رسالته وأثرى رسالته بالمعاني العربية الأصلية ونلحظ في رسائله توظيفاً لقول ذي الرمة:

ويهلِـكُ بُينهـا المرْئيُّ لغواً كمـا أَلغيـتَ في الـدّيـةِ الْحُوارا(١)

يوظف الكاتب هذا القول بما تناسب مع الموضوع الذي نتحدث عنه نحن العرب لا يؤخذ منا ثار ولادية لشدة قوتهم.

وقال ايضاً : (...والتماسُ ما فوقَ هذا إيغال، وفضولُ العَيْش أشغال..)(٢)

من قول أبي الطيب المتنبي

ذِكرُ الفَتَى، عُمرُهُ الثّانِي وحَاجَتُهُ مَا قاتَهُ وَفُضُـولُ العَيْشِ أشْـغالُ (٣)

فيوظف ابن أبي الخصال قول المتنبي في رسالته مما يضفي عليها صلة عميقة بالتراث الأدبي العربي ،ويكشف هذا التضمين عن شدة تعلق الكاتب بالموروث الأدبي وسعة مرجعيته الأدبية.

ويقول في رسالة إلى أحد الأولياء، يخبره بورود أحد الفقهاء عليه (...روضَـةٌ من شُكرهِ تَعْبَقُ، وزهرَةٌ عيونُها بالنَّدى تَتَرقرق، وتُصبَحُ، بما احتسَبَتْ من الرّيّ، وتُغبَق..) (٤)

رجع ابن أبي الخصال إلى الشعر الاندلسي بالإضافة إلى تضمين رسائله من الشعر المشرقي فقد أورد في رسائله ابياتا من الشعر الاندلسي ومنهم ما قاله ابن زيدون:

نَلْهُو بما يَسْـتميلُ العَينَ من زَهَرٍ جَالَ النَّدى فيه حتّى مالَ أعناقاً
كأنّ أعيُنَـهُ إذ عاينَتْ أَرقي بَكتْ لِما بي فجالَ الدَّمعُ رَقْراقا (٥)

(١) ديوان ذي الرمة، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٩٩٥م، ٩٧.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٢٩٥
(٣) ديوانه:٩٤٩
(٤) رسائل ابن أبي الخصال:٢٩٩
(٥) ديوان ابن زيدون تحقيق: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٥م ٥١.

لم يقتصر ابن أبي الخصال على تضمين رسائله من الشعر المشرقي فقط ، بل ضمنه من الشعر الاندلسي أيضا ، نظراً لما في الشعر الاندلسي من صورٍ جديدة وعبارات لطيفة تندي السمع وتريح النفس .

فاخذ ابن أبي الخصال هذه الصورة اللطيفة التي تضمنها البيتان المذكوران آنفاً ووظفها في رسالته ولهذا التضمين أثره في رفد الرسالة بالرصانة والقوة وإبرازها بحلة جميلة مستقاة من الشعر الذي حلّه الشاعر وبفضل موهبة واسعة، وتصرف حسن، إلى نثر فأحسن نقل الصورة المنظومة إلى نثر ولم يخل ذلك بمعناه.

وقال ايضاً (... فأُقسِمُ بالدَّجْنِ وتَقْصِيرِهِ، والدَّنِّ وعَصيْرِه؛ والأَلحاظ وما حَرَسَت، والألفاظِ وما غَرست؛ والغدَائرِ وما أظَلّت، والبَشائر إذا أَطَلّت؛ والنّواسِم ومَرِيض طروقها، والمبَاسم ووَميضِ برُوقِها .... وحديثٍ كقِطَعِ الرَّياض ...) [١]

أمّا هذه القطعة الأدبية فهي عبارة عن تداخل نثر الكاتب مع نصوص الشعر العربي بشكل كبير وواضح ، يكشف عن موهبة الكاتب وتبحّرِهِ بالشعر العربي الذي شكّل الشعر العربي فيها مكملاً لبعضه مع أنه من عصور وأمكنة مختلفة ،لكن قدرة الكاتب جعلته يصوغ ويحشد هذا الكم الهائل من الشعر العربي في هذه القطعة فقد ضمنها من قول طرفه:

وتقْصيرُ يومِ الدَّجن والدَّجنُ مُعجِبٌ ببَهْكَنةٍ تحتَ الطّرَافِ المُعَمَّدِ[٢]

فأقسم ابن أبي الخصال بالغيوم التي تُغطّي السماء، واستحضر لقسمه هذا تعبيراً من شاعر جاهلي ، وهو طرفه بن العبد ويواصل تضمين رسالته من الشعر ويأخذ من قول حسان بن ثابت:

كلتاهُما حَلَبُ العصيرِ فعاطني بزُجاجةٍ أُرْخاهُما للمفصلِ [٣]

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٢٣-٣٢٤

(٢) ديوانه:٢٥

(٣) ديوان حسان بن ثابت:١٨٥

فاستعان ببعض من هذا البيت لتكميله معنى الرسالة مع التضمين

واخذ من قول جميل بثينة:

وأَولُ مـا قـاد المـودّةَ بيننـا بـوادي بغـيضٍ يـا بُثـينَ سُـبابُ(١)

فأخذ ابن أبي الخصال معنى البيت ووظفه في رسالته، ليُكْمِلَ رسالته ويوضّح فكرتها ويوشيها بألوان من التنوع ووظف قول امرئ القيس:

غـدائرُه مستشـزِرَاتٌ إلـى العـُلاَ تضـلُّ المَـدارَى فـيمُتَثَّـى ومُرْسَـلِ(٢)

والغدائر هي الخصلة من الشعر وهي جمع الغديرة، فاستحضر من شعر امرئ القيس ووظفه أيضاً في هذه القطعة ووظّف قول عنترة:

فـوَددْتُ تقبيـلَ السُّـيوفِ لأنهـا لمعـتْ كبـارقِ ثغـركِ الْمُتبسَّـمِ(٣)

وما تحمل هذه الصورة التي جاء بها عنترة من جمال وروعة وتشبيه رائع ،فالشاعر أحبَّ تقبيل السيوف لأنه رأى أنّها كثغر المحبوبة المباسم ،ولمعان أسنانها لشدة بياضهن فأخذ ابن أبي الخصال من هذا المعنى وقال (والمباسم ووميض بروقها) وجاء نثر البيت الشعري بدقة وتفنن من المبدع وهذه الصورة التشبيهية الرائعة أعطت للنص دلالةً جماليةُ مختلفة.

فللمباسم وميضٌ وبرقٌ، لشدة بياضها وجمالها، واستحضر أيضاً قول بشار بن بُرد في وصف محبوبته:

وكـــأنّ رَجـــْعَ حـــَديثِها قِطَـــعُ الريـــاض كُسِـــينَ زهْـــرَا(٤)

وهذا تشبيه جميل لحديث المحبوبة الذي يجعل رجع الحديث قطع الرياض مكسوات بالزهر الجميل، فنلاحظ تداخل النصوص في تشكيل هذه القطعة الأدبية الرائعة وإظهارها

(١) ديوان جميل بثينة، تحقيق: حسين نصار، دار مصر للطباعة –٣٧ شارع كامل صدقي، ٢٤.
(٢) ديوانه:١٧
(٣) ديوانه:١٩١
(٤) ديوان بشار بن برد، تحقيق: السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت- لبنان،١٩٨١م، ١١٨.

بهذه الصورة من الحسن والروعة ، وهذا لا يُتاحُ الا لأديبٍ متمكنٍ في الأدب ويعتمد على مرجعيه أدبيه رصينة كأبن ابي الخصال.

من كلّ ما مر ذكره وتحليله ندرك كلَّ الإدراك، حرص الأدباء الأندلسيين على السير على نسق الشعراء المشارقة[١] وهذا ما صرح به ابن بسام قائلاً" الا أنّ أهل هذا الأفق - الاندلس -أبواالا متابعة اهل الشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتاده، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً "[٢]

(... وفُزتُمْ بكرامةِ الأَبد، وعُوفيتم في الأهل والوَلد، ولا خَالفتكم إلى من خلَفْتُم نائبة، ولا شابتْ مَوارِدكُم شائِبة وقد أدرجْتُ قطعاً ربّما ترنَّمَ بها شادٍ وطَرِبَ بها حادٍ...) [٣]

ضمن الكاتب قطعته الأدبية هذه قول الشاعر أبي العلاء المعري:

غَيرُ مُجدٍ في ملتي واعتقادِي نَوح بَاكٍ ولا تَرنمُ شادِ [٤]

فهو يقول أنَّ صوت البكاء يشبه صوت البشير، ويشبه صوت الفرح والحزن بصوت الحمامة عندما تترنم فوق الأغصان، فنحن لا نعلم سعيدة هي أم حزينة، استحضر ابن أبي الخصال هذا البيت الشعري وصاغ منه صورة أخرى غير التي كانت عليه، مستنداً في هذه الصياغة إلى مرجعية رصينة تمدّه بالأبيات والمعاني المناسبة عند الحاجة اليها.

(...وتعلقوا بالجياد، وتشوَّفُوا إلى الجِلاد، فكأنّ الخمرَ تَمشّت في نُفوسِهم، ولعبت بأعطافهم ورُؤوسهمْ...)[٥] فأخذ ابن أبي الخصال معنى بيت ابي نؤاس وصاغه بما يناسب رسالته، فأدى هذا التضمين مهمته التعبيرية وأثرّ في الرسالة أيمّا تأثير، فهو يمنح الحياة

(١) الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة :١٠٢
(٢) الذخيره:١٢/١
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٩٣
(٤) سقط الزند، لأبي العلاء المعري، تحقيق أمين هنديه، مطبعة هندية بشارع المهدي -مصر ١٩٠١م، ٨١.
(٥) رسائل ابن أبي الخصال:٤٣٥

للجماد بقوله(تمسيت) وهذا مالا يوصف به الجماد، وربما أراد أثرها فيهم كمن سرت فيهم وتمشيت في أجسادهم فوصل إلى رؤوسهم.

(...ولا خاضَ على كَدِري صفوي ثم قال خَفّف الوَطْء وسِرْ حتى تُخرج هذا الخبء...)[١]

وهذا يذكِّر بقول أبي العلاء المعري:

خَفِفِ الوَطءَ مَا أُظنُ أديمِ الَ أرض الإمنْ هذه الأجسادِ [٢]

فاستحضر ابن أبي الخصال قول أبي العلاء ووظفه في سياق رسالته فهو يتداخل مع النصوص الأدبية المختلفة من مختلف العصور ويوظف منها ما يراه يُغني نصه ويثريه.

فأقام ابن أبي الخصال النصوص الموروثة مرتكزاً، إذ جعل هذا الموروث الأدبي محور الرسالة ، ففي كلّ رسائله نجد أنّه اعتمد بشكل لافت على الاستحضار من الشعر العربي ،والعودة إلى مرجعيته الأدبية ،لتوظيف النصوص القديمة وتجسيدها بشكل تعبرّفيه عما أراد الكاتب.

وقال (...ذلك إذا انْجلَت هذه العَماية، واتَّفَقَتْ وِلاية، ولله في كل شيءٍ اية...) [٣]

وضمّن ابن أبي الخصال رسالته من شعر ابي العتاهية وهو قوله:

وفي كلّ شيءٍ له ايةٌ تَدلُ على أنّهُ واحِدُ [٤]

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٤٤٤

(٢) سقط الزند:٨٢

(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٤٦٦

(٤) ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٨٦م، ١٢٢ .

فاستحضر ابن أبي الخصال هذا البيت ووظفه بشكل مناسب لرسالته، فكلُّ شي في هذا الكون اية تدل على انّ الله عزّ وجلّ هو المبدع والخالق الوحيد الذي أبدع وصوّر الكون بأجمل ما يكون وهذا البيت سرى مسرى الامثال.

وقال في رساله أخرى (أمرنا- وصَلَ علاءَك وتَمّم مَواهِبكَ وآلاءَك من أمركم أَمَم والمعارف في أهل النهي والوفاءِ الذي إليكم انتهى كما قال القائل ذمَم ...)[١]

يبتدئ الكاتب رسالته بتضمين قول المتنبي فيها ومما كشف عن قدرة الكاتب على تطويع الشعر للتعبير عن الغرض الذي قصده ونقلها من النظم إلى النثر يدل على تمكن الشاعر وموهبته العالية فقد ضمن الرسالة من قول المتنبي:

ما كان أخلَقنا منكم بتكرمةٍ ... لو أنَّ أمْرَكُمُ من أمرنا أَمَمُ

وبينَنا لو رعَيتُمْ ذاك معرفةٌ ... إنّ المعارف في أهل النُّهى ذِمَمُ[٢]

فالشاعر يقول كنت حرياً بحبكم وإكرامكم لو احببتموني كما كنتُ أُحبكم

وإنّ لا وجود للحب لي عندكم فيننا معرفة وهي جمعتنا واهلُ العقل يراعون المعارف وعندهم عهود وذمم لا يضيعونها.

وقال (...وأخرى تنشره ذُؤابة؛ وتُقيمه إبرة لهب، ...) [٣]

يذكر ابن أبي الخصال من قول المتنبي ويوظفه:

كَشَفَتْ ثَلَاثَ ذوائبٍ مِنْ شَعْرِهَا ... فِي لَيلْةٍ فأَرَتْ ليالِيَ أرْبَعَا [٤]

فالشاعر يقول انها عرضت ثلاث ضفائر من شعرها الشديد السواد، فاجتمع سواد شعرها مع سواد الليل فكأنهن أربع ليالٍ، وقد أثرى هذا التضمين رسالة ابن أبي الخصال، وأدام

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٥٩١
(٢) ديوانه:١٢٢٨
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٦١٧
(٤) ديوانه:٧٢٨

الصلة بين الحاضر والماضي وقال (...وخَففّ عن كاهِلِ المَكارِم ماهاضك وآدَك، يلقى دَهْرَه غير مُكْتَرِث، وينازله بصبرٍ غير مُنتكث..)[١] فوظف قول المتنبي:

لا تلق دهرك إلّا غيرَ مكترثٍ مادام يصحب فيه روَحك البدنُ[٢]

فابن أبي الخصال أراد تقديم النصيحة والوعظ، فرجع إلى التراث الشعري و تمكّن من توظيف بيت المتنبي بما يناسب الرسالة، فهو يقول على الأنسان أنْ يكون قوياً مدافعاً عن مبادئه وراسخاً في هذه المبادئ ولا يزعزعه أحد أو يثني عزمه أحد.

وقال ايضاً (...وأصفق بالأجماع على سُؤددِه خلافُه؛ فَنَزَلنا عن الأكوارِ نَتَدافعُ و نَتَدارى ...)[٣] ضمن رساله من قول المتنبي:

نَزَلْنَا عَنِ الأكوَارِ نَمْشـــي كَرَامةً لِمن ْبَان عَنْهُ كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتْبَا [٤]

وقال ايضاً (... وحَدَّ ثَلمهَ غِرارهُ فإنَّما هي آثارٌ، بل أنوار؛ صدرَت عن عينِ الأوان وصَدرِه ، بل عن شمسِ الزَّمان وبَدْره استشرف ساهِرَ نَوئها السَّمَرُ الرّاقد، وحَسَدني باهر ضوئها السُّها والفَراقِد...)[٥] ضمن الرسالة من قول المتنبي:

أُحِبُّك يَا شمسَ الزَّمانِ وَبَدْرَهُ وَإِن لَاَ منى فِيكَ السُّهَى وَالْفَراقدُ[٦]

فقد أثرّ المتنبي بأدباء الاندلس "وقد استثمر شعراء الاندلس وأدباؤها معانيه وصورهَ في صوغهم الأدبي وأعادوا إنتاجها بما يتلاءم وتجاربهم الذاتية "[٧] وابن أبي الخصال -كغيره من ادباء الاندلس- شدّه نتاج الشاعر العباسي وما امتاز به فنه الأدبي، فأكثر من الرجوع إلى شعره وادخاله في سياق رسائله بشكل مباشر أو غير ماشر مستثمراً ذلك النتاج الرائع مع ما

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٦٢٣-٦٢٤
(٢) ديوانه:١٤٩٦
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٢٦١
(٤) ديوانه:١٦٣
(٥) رسائل ابن أبي الخصال: ٣١٩-٣٢٠
(٦) ديوانه: ٣٨٢
(٧) المرجعيات الثقافية الموروثة: ٥٢٢

تمتع به ابن أبي الخصال من موهبة، فاحسن استدعاء النصوص الأدبية والإفادة منها في رسائله.

وله قصيدة قال فيها:

أعلل بـا لآمـال نفسـاً أغرهـا بتقـديم غايـاتي وتـأخير مـذهبي[١]

وفي هذا البيت الشعري يتداخل ابن أبي الخصال مع بيت الطغرائي وهو قوله:

اعلّل النفسَ با لأمال أرقَبهُا ما أضيق العيشَ لولا فسحة الأمل[٢]

فابن أبي الخصال اطلع على التراث الأدبي، وهضمه، وأتاح له ذلك ابتكار صور طريفة ومبتكرة تعبّر عما في نفس ابن أبي الخصال، وتحكي الغرض الذي كُتبت من أجله بسهولة ويسر " ولاشَكّ في أنّ الشاعر، عند قول الشعر ونظمه، يتبادر إلى ذهنه شيء مما حفظه، أو سمع به من الشعراء الاخرين، وقد يكون هذا بوعي كامل يوظّفه في قصيدته و بغير وعي، والأمر الذي يجعله يستفيد من تجارب الشعراء الاخرين "[٣].

وقال في رسالة أخرى (...ويَنبِط من الْحَسي، الْمَعين الريّ وإلا فمن يُعارضُ البَحْرَ بِوَشَلِ...) [٤] فقد وظف قول الطغرائي:

فيمَ اعتراضك لُج البحرِ تركَبُهُ وأنتَ تكفيك منه مصةُ الوشَل [٥]

فالكاتب قصد هذا الاستدعاء الثقافي ويعيد انتاج النص القديم بفنية عالية: فا للتناص الأدبي اثر مهم في إثراء لغة النص الشعري، وتحويله إلى قوة دافعة تثري التجارب الأدبية

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٦٢٧
(٢) ديوان الطغرائي:٣٠٦
(٣) التناص في شعر علي بن الجهم، عواد صباح حسن المساعيد، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الاردن، ٢٠١٢م، ٦٤.
(٤) رسائل ابن أبي الخصال :٨٢
(٥) ديوانه: ٣٠٨

للشعراء، ونقل رؤيتهم ومبتغاهم إلى المتلقي، فقد كانت العودة إلى التراث هدفاً غنياً يختاره الشاعر لمنح نصه قيماً جمالية" (١)

وقال في رسالة ايضاً:

فَبتنا كَأنَّ الطَّيرَ فَوْقَ رؤوسنا إصاخَةَ مَن ناجاهُ كِسرى وَقَيصَرُ(٢)

فقد ضمن الكاتب من قول ذي الرمة:

فظلَ يُصاديها فظلّت كأنها على هامِها سرْبٌ من الطَّيرِ لوَّحُ(٣)

فالكاتب ضمَّن رسائله من الشعر العربي ،فهو المرجع الثاني لابن أبي الخصال بعد المرجعية الدينية ،إذ احتل الأدب مكانة كبيرة في نفس الكاتب، وشدّه الادب العربي بما فيه من صور وتشبيهات ومعانٍ رائعة وجد بالكاتب القدرة على توصيل مقصده ،فعمد إلى التضمين منها في رسائله، وقد مكنت الاديب سعة الثقافة الأدبية المتولدة من كثرة الاطلاع على الموروث الادبي، أنْ يعكس صوراً رائعة للأدب العربي بدلالات جديدة تختلف عن التي جاءت بها في كثير من الأحيان، وأحيانا يستغل الكاتب المواءمة بين الموقفين – موقف الشاعر وموقفه هو- فيجيء بالبيت الشعري ويجعله معبّراً عن تجربته الذاتية وهذا ايضاً يتطلب الموهبة والإبداع.

وما لاشك فيه أنّ هذه الثقافة الأدبية تكونت من سعة الاطلاع على دواوين الشعراء فالكاتب عكس -عبر توظيفه للتراث العربي -ثقافةً أدبيةً واسعة وموهبة في استثمار الإرث العربي الزاخر بالصور والمعاني الجميلة فعكس هذا التداخل مع مرجعية الكاتب الأدبية، سعة ثقافته وتعلقه بهذه المرجعية.

---

(١) التناص في شعر محمد القيسي، نداء علي يوسف، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠١٢م، ١٠٣.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٦٤٢

(٣) ديوان ذي الرمة:٤٧

المبحث الثاني

الأمثـــــــــال

المثل لغة: مَثَلَ الشيءَ مثلاً: زعزعه أو حرّكه ومَثِل بالكسر كلمة تسوية يُقال هذا مِثْلُهُ كما يُقال شِبْهُهُ وشَبَهُهُ فإذا قيل هو مثْلُهُ على الإطلاق فمعناه أنه يسدّ مسدّه، وإذا قيل هو مثلُهُ في كذا فهو مساوٍ له في جهة دون جهة (١)

والمَثَلُ : ما يُضرب به من الأمثال ومَثلُ الشيء ايضاً صفتهُ (٢) قال تعالي((مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ))(٣) ومثلت له كذا تمثيلا إذ صوّرت له مثاله بالكتابة وغيرها(٤) ونطالع قوله تعالى ((فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ)) (٥) فالمثل في الآية المباركة بمعنى العبرة ،ومعنى السلف إنا جعلناهم متقدمين يتعظ بهم الغابرون، وفي قوله تعال ((وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لبّنَي إسرَائيلَ))(٦)والمراد به عيسى عليه السلام ،إذ جعله الله آية وقال ابن فارس: المثل والمثال بمعنى واحد ومَثيل كشبيه(٧) وورد في القران الكريم أيضا قوله تعالى ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيٌء وَهُوَ السَّمِيعُ الَبْصيرُ))(٨) فالمثل هو الشبه والنظير وما ساوى الشيء وشابهه فهو مثله.

وفي الاصطلاح: الأمثال كانت وماتزال مادةً حيةً يتناولها الناس على اختلاف ثقافاتهم وعقائدهم ومناسباتهم ، لما تحويه من خبراتٍ وتجاربَ ونصائحَ وتكون الأمثال بأقصر العبارات لتؤدي معاني عميقةً ودلالاتٍ هادفة وقد تمثل بها كبار الفصحاء، وتُعَدُّ سجلّاً من سجلات اللغة العربية، لما تحويه من فصاحةٍ ودقة في التعبير، ولكثرة الأمثال وأهميتها ألفت

---

(١) لسان العرب: ٦١٠/١١
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ٥/ ١٨١٦.
(٣) محمد:١٥
(٤) الصحاح، ٥/ ١٨١٦
(٥) الزخرف: ٥٦
(٦) الزخرف:٥٩
(٧) معجم مقاييس اللغة: ٢٩٦/٥
(٨) الشورى: ١١

فيها كتب وعقدت لها فصول، من أبرزها (مجمع الامثال) للميداني و(أمثال العرب) للمفضل الضبي (وجمهرة الامثال) لابي هلال العسكري وغيرها ...

ويرى ابن سلّام الجُمحي (ت٢٣٢هـ) أنّ الأمثالَ حكمةٌ العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق، بكناية غير تصريح وقد ضربه الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بها هو ومن بعده السلف [١] .

ويعدُّ المثلُ تجربة أمةٍ وخبرات شعب، يصف كثيراً من أطوار الحياة بآمالها والآمها، وظواهرها النفسية ذات الأبعاد العميقة الغور والجذور في واقع الإنسان والمجتمع [٢] وقيل في الأمثال" أدب العرب، ومرآة صادقة تتجلى فيها صور الأمم، وما عليها من أخلاق وعادات، وإنَّ الأمة لا ترقى إلى العمران، او تتألف لها لغة، إلّا وهي تنطق الأمثال لأنها غرس الحكمة، ونبت الخبرة، ومقياس الأدب"[٣].

فللأمثال أهمية بالغة وفائدة كبيرة في إيصال الكثير من الحكم والقصص بأسلوب موجز وسهل فللمثل تأثير في نفوس السامعين وهو" ثروة لغوية كالشعر والخطابة وغيرها من فنون الكلام"[٤] .

وابن أبي الخصال استحضر الأمثال العربية في رسائله بما يتناسب مع الموقف وغرض الرسالة، او أحيانا يستحضر الكاتب المثل لتوكيد معنى أراد توكيده بالرجوع إلى الأمثال القديمة ، فالكاتب يعيد توجيه الأمثال في نصه الجديد أو أحيانا يعكس المثل ليتناسب مع رسالته والفكرة التي أراد إبرازها.

---

(١) ينظر: المزهر في علوم اللغة وانواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ت(٩١١هـ) بعناية: أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت ج١/ ٤٨٦.

(٢) مقدمة كتاب مجمع الأمثال العامية والبغدادية وقصصها، محمد صادق زلزلة، ط١، تقديم: عناد غزوان دار الإرشاد للطباعة والنشر، سورا،٢٠٠٦م، ١١٠.

(٣) الامثال العربية، احمد تيمور باشا، ط٢، مطابع دار الكتب العربية، مصر، ١٩٥٦م، المقدمة، ٢.

(٤) الامثال العربية القديمة (دراسة في كتابي مجمع الامثال للميداني والمستقصي في أمثال العرب للزمخشري) سلام احمد الدليمي، ط١، ٢٠١٠م، ١٧.

استثمر ابن أبي الخصال الأمثال العربية القديمة، لما فيها من معنىً لطيفٍ ،وعبارة موجزة، وصورة حسنة ،وبلاغة في الكلام ،وقد أورد عدداً من الامثال العربية في رسائله ووظفها بما يلائم رسالته ،ويكشف عن المعنى الذي أراد، وأول هذه الأمثال التي وظفها ابن ابي لخصال المثل العربي ((عند الصباح يحمد القوم السرى)[١] فقد ورد هذا المثل في أكثر من رسالة من رسائل ابن أبي الخصال، وقد وظّفه في رسائله ،فكلُّ رسالة تختلف عن غيرها من حيث الغرض، ولكن لسعة ثقافة هذا الكاتب استطاع تحوير المثل بما يلائم رسائله ومنها رسالة جوابية نظمها شعراً فقال في بعض ابياتها**[الطويل] :**

ويحمد ساري اللّيلِ عاقبةَ السُّرى صَباحاً ويمحُو اليومُ سَيئة الأمسِ[٢]

وقال في رسالة إلى أحد الأولياء يُخبرهُ بورود أحد الفقهاء ويوصيه به قال فيها: (...ومَقامِه المتَعالَمِ المشْهُود؛ وما ارْتقى تلكَ الثنيّةَ وأَوفى على ذُراها، وحَمد عند الصِّباح وقد سرى نحوكَ سُراها..) [٣].

وورد هذا المثل ايضاً في رسالة أخرى قال فيها: (... الّذين هجَرُوا -في اللهِ تعالى- كَراهُمْ، وحَمدوا الصّباح سراهم؛ ولم تَثْنِ عزائمهم ثمراتُ الأكباد...) [٤]

وقال في خطبة حض فيها على قيام الليل (...ألا مُسْتَنْقِضٌ لنفسٍ أو بَقها وأشرط؟ ألا مُناجيَ لمَولاه ؟ألا هاجِرّ لِكَراهُ ؟ألا حامدٌ عند الصّباحِ لِسُراه...) [٥]

ففي هذه الرسائل الأربع المختلفة نجد ابن أبي الخصال يوظّف المثل نفسه مع اختلاف مواضيع الرسالة وأغراضها وسياقها والأجواء التي قيلت فيها، ويعتمد في ذلك على سعة ثقافته التي أتاحت له هذا التصرف في المثل وتوظيفه بشكلٍ مختلف في كلِّ رسالة.

(١) جمهرة الأمثال:٢/ ٤٢
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٦٧
(٣) المصدر نفسه: ٢٩٩
(٤) المصدر نفسه: ٣٩١
(٥) المصدر نفسه: ٥٣٨

والسرى السير ليلاً في السفر، يضرب مثلاً للذي يتحمل المشقة والتعب من أجل الحصول على الراحة ،فالذي يسري ليلاً يحمد مسيره إذا جاء الصباح بخلاف الذي ينام الليل ،يندم اذا طلع الصباح ،لأنّهُ لم يسر ليلاً ،ويضرب لما يُنال بالمشقة ويَوصلُ اليه بالتعب فيوظف ابن أبي الخصال ،هذا المثل العربي في رسائله المختلفة المواضيع وهذا دليل على براعة ابن أبي الخصال ومن دلائل تلك البراعة أنه جعل هذا المثل متناسقاً مع نصوصه المختلفة ،فهذا التوظيف وما تبعه من تحوير في لفظ المثل ينمُّ ويكشف عن براعة الكاتب وموهبته في فن الكتابة وحسن التضمين من الموروث الأدبي ،وتتجلى هذه البراعة في النص الرابع لاسيما إذ جعل هذا المثل في سياق آخر غير سياقه القديم وهو حضّه على قيام الليل فالذي يتعبد في الليل سوف يحمد ذلك يوم القيامة ،وهذه صورة طريفة وسياق مختلف للمثل العربي جاء بصورة معبّرة وجميلة ولم يكتف ابن أبي الخصال بتحوير المثل لجعله يتناسب مع رسالته، بل قام بعكس المثل في إحدى رسائله ،وهذا دليل على تمكنه من الكتابة والتحكّم في صياغة الأمثال بما يلائم معانيه وليثبت أنّ المثل لا يخصّ أحداً أو زمناً من دون غيره.

وله رسالة إلى صديق له يعكس فيها المثل وهي قوله: (...كأنهُ من طيبِ نفسِه في الأَشهرُ الْحرُم ، أَو من بني سعيد أَعزةِ الْحَرم ،ولئن تَمَمْتَ على ما أَراهُ لِيذُمَّن عند الصَّباح سُراه...)[1]

فاستعمل الكاتب المثل بخلاف معناه، وقد عكسه لتهويل الأمر ويمثل ذلك صياغة جديدة للأمثال القديمة، لكن بأسلوب جديد مخالف للأصل الذي وردت فيه، وهذا التحكّم في الصياغة يكشف عن براعة ابن أبي الخصال وتبحّره بالتراث وتمكنه من الأدب، ويكشف عن رصانة المرجعية الأدبية للكاتب.

ووظف ابن أبي الخصال في رسالةٍ توصيةٍ إلى صديق له قال فيها (...والحازمُ -دامَ عزُّك- لا يكتفي في هذه العُهدة الحليلة* بإيماء، ولا يَردُ الماءَ إلا بماءٍ ...) [2]

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٢٥-٢٢٦

* كذا في الأصل ولعلها الجليلة كما يظّن المحقق

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٨٤

فقد وظّف المثل العربي القائل(أنْ تَرِدَ الماءَ بماءٍ أَكَيس)[١] فأستقى ابن أبـي الخصـال مـن الامثال العربية ووظفها فـي رسـالته، معتمداً علـى تحويرهـا لتناسـب رسـالته فـورودك المـاء ومعك ماء هو أكثر كياسة -أي ذكاء وفطنه-وهذا المثل يضـرب للأخـذ بالاحتيـاط، فـالكيس إذا ورد ومعه فضل ما تزوده من منهل قبله خير له، من أن يرد المنهل بغير ماء والكـيس خـلاف الأحمق [٢] فالكاتب يوظف هذا المثل العربي في رسالته مُغيّراً فيه بعض التغيير ليلائم رسالته قال ٠ ولا يرد الماء الا بماء) فهو يثني على صديقه لسؤاله عليه، وكثرة الكتب التـي وصـلت منه فاستثمر المثل العربي وساقه في رسالته في إطار سلس متناسق مع سياق النص .

وقـال فـي رسـالة أخـرى لـه (...وأَمـا عَـوْدُك لتلـك الحـال المأمولـة، والدَّولَـة الْمأنُوسـة المأهولةِ، فالقَدَرُ فيه يهِيلُ مُحسناً...) [٣].

وظف المثل القائل(مُحْسِنةٌ فَهِيلـي)[٤]فاسـتطاع الكاتـب، وبفضـل ثقافتـه الواسـعة ،تحـوير المثل بما يتناسب مع رسالته فغيّر في ضمائر المثل بما يتناسب مع نصّه، وهذا المثـل يضـرب للرجل الذي يعمل عملاً فيكون فيه مصيباً ،واستثمر الكاتب ما في المثل من ملائمـة لموضـوع الرسالة فوظفه بشكل ملائم ،ومتناسب وما فيه من معنـى مكثّـف وإيجـاز جميـل ،فالكاتـب نقـل المثل إلى سياق آخر، ووظفه بما يريد التعبير عنه هو، فطوَّع المثـل فـي خدمـة نصـه مبـرزاً للمعاني التي أراد اظهارها يقول ابن أبي الخصال إنّ الدهرَ قد يهيل محسـناً علـى بعـض نـاس ولكن ذلك لا يدوم ولا يستمر فسرعانَ ما يزول ويختفي ذلك الإحسان وتنقلب الأمور.

فإنّ الكاتب يستثمر الأمثال القديمة لما لها الفضل في إدامة الصلة بين الماضي والحاضـر " فالأمثال العربية تستمدُّ عراقتها عبر الجذور المشتركة بينهـا وبـين الثقافـات السـامية القديمـة ولعلـه مـن أجـل ذلـك كـان أقـدم فنـون الأدب العربـي علـى الاطـلاق"[٥] وقـد أدرك ابـن أبـي الخصال ما في الأمثال من قدرة على إيصال ما أراد التعبير عنه فوظفها بشكل جميل.

---

(١) جمهرة الامثال:١/ ٦٨
(٢) المصدر نفسه الصفحة نفسها
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٩٠
(٤) جمهرة الامثال:٢/ ٢٥٥
(٥) الامثال في القران الكريم، محمد جابر الفياض، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٨م، ٢٩ .

وقال في رسالته إلى ابي محمد الفهري (...أما إنَّ لأَبي الفضلِ فضلاً يُرْعى، وهو- بعد أَبي إسحاق – مرعى ويُدعى إثره أَول من يُدعى من رَجُلٍ لطيفِ الحيلة مُشَخِّصٍ للأوهامِ الْمُستحيلة...) (١)

وظف المثل القائل (مَرْعَى ولا كالسعدان) (٢) ويُضرب هذا المثل للأمر الحسن وغيره أحسن منه، فيقول العرب مرعى ولا كالسعدان، فابن أبي الخصال يفضل الصابي لكن يجد بديع الزمان الهمذاني ايضاً محسناً ولكنه فضّل الصابي ، لما في أسُلوبه من سهولة وبساطة فرجع إلى الأمثال ليستقي معنى دقيقاً، ولما لها من تأثير في نفوس السامعين ولسهولة المثل وتميزه بالبلاغة والايجاز.

وهذا المثل يضرب للشيء الذي يفضل على أقرانه وأشكاله، فابن أبي الخصال عندما أراد تفضيل أبي إسحاق الصابي على بديع الزمان الهمذاني، عاد إلى مرجعيته الأدبية واسترفد منها مثلاً قديماً ووظفه بشكل يتناسب مع رسالته ويثري نصه ،فالهمذاني وإن كان محسناً مفضلاً فهو ليس كالصابي، وهذا ما أراد الكاتب التعبير عنه في توظيفه للمثل العربي فهو يعود إلى الأمثال العربية لأهميتها في نفسه" أمثالُ كلِّ أمة خُلاصة تجاربها، ومستودع خبراتها ،ومنار حكمتها، ومثار ذكرياتها ومرجع عاداتها وسجل وقائعها ،وترجمان أحوالها ،ومصدر ثرائها ومتنفس أحزانها ومحتكم منازعاتها ،فهي مرآة لامة تعكس واقعها الفكري والاجتماعي بصفاء ووضوح"(٣) فللأمثال القدرة على اختزال الكثير من المعاني والتعبير عنها بشكل لطيف.

وله رسالة إخوانية إلى صديق وظّف فيها المثل أيضاً (.. وما أَشبه هذا المخوفَ بالأمان، وما كل عشاءٍ يَسْقُط بصاحبه على سِرْحان ورب رامٍ أَرْمى من ابن ثُعَلِ للهَدف...) (٤)

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال ١٤٩-١٥٠

(٢) جمهرة الأمثال:٢/ ٢٤٢

(٣) الأمثال البغدادية، للشيخ جلال الحنفي، المقدمة بقلم محمد رضا الشبيبي ، مطبعة اسعد، بغداد،١٩٦٢م،٩/١.

(٤) رسائل ابن أبي الخصال:١٦٤

فقد وظف ابن أبي الخصال المثل القائل(سَقَطَ العَشَاءُ به عَلَى سِرْحَانِ)[1] وهذا مثل يضرب لأن طلب الحاجة يؤدي بصاحبها إلى التلف والسرحان هو الذئب، فابن أبي الخصال قد عكس معنى المثل ونفاه إذ يقول ان ليس كل حاجة تهلك صاحبها فقد قلب معنى المثل ،ليُضفي عليه دلالة أخرى غير التي كانت له، فهو يتحكم بالأمثال ويعكسها اذا تطلب غرض الرسالة وملاءمة المثل لها ، فنرى الكاتب مبدعاً يرسم صورة مختلفة للمثل ومغايرة للصورة التي ورد عليها ،وهذا يدُّل على تفوقٍ وبراعةٍ من الكاتب الأندلسي وتحكُّمِه بصياغة الأمثال وتوظيفها بالشكل الذي يراه الكاتب مناسباً لرسالته.

وجاء بشطر بيت لامرئ القيس وهذا البيت سرى مسرى الأمثال وهو قوله

رُبَّ رَامٍ مِن بَنِي ثُعَلِ مُتْلجٍ كَفَّيْهِ فِي قُتَرِهْ[2]

ورماة بني ثعل يضرب بهم المثل في اصابتهم للهدف، فالكاتب تصّرف في المثل وغير فيه ، فهو يقول ربما هناك رامٍ أرمى من بني ثعل للهدف، فالكاتب استثمر ما في هذا البيت ووظفه بشكل آخر لما كان عليه ،وأبرز الغرض الذي أراد.

فالأمثال جاءت هنا لخدمة النص واتفق هذا التحوير مع ما أراد الكاتب إيصاله ،وهذا التحوير يكشف عن قدرة الكاتب في صياغة المثل بأسلوب مختلف ولمغزى مختلف، فالتضمين من الأمثال قد سما بالنص وأضاف إليه التنوع، فليس كل حاجة تهلك صاحبها فالكاتب -وبفضل براعته وتمكنه من الأدب العربي- أتاح له ذلك التحكُّم في صياغة الأمثال بأسلوبه الخاص الذي يختلف عن صورتها لأصلية التي وردت فيها ولإبراز مغزى مختلف أراد الكاتب إظهاره في نصه.

وله رسالة إلى الفقيه أبي بكر بن العربي قال فيها: (...وفَخرتُ على الزَّمن بِذي يَمَنْ ولعلّه يذودُ عنها ويقول حنّ قِدْحٌ ليسَ مِنها فأُحيل على الكتبِ والآثار...)[3] فقد استثمره الكاتب بصيغته الأصلية التي ورد عليها ،فقد وظف المثل في سياق رسالته بدون تغيير او تدخل في

(١) جمهرة الامثال: ٤٢٠/١
(٢) ديوانه:١٢٣
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:١٨٦

صياغة المثل والمثل قوله(حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا)[١] ويضرب لرجل يدخل نفسه في قوم وهو ليس منهم وقيل هذا المثل لمن حبّ أن يمتدح بما ليس فيه فيقول العرب (حن قدح ليس منها)[٢] فوظف الكاتب المثل بما راه مناسباً لرسالته وبارزاً للغرض الذي أراد ايصاله.

فعندما يتحدث ابن أبي الخصال عن الأنساب ويريد ان يقول انه من غافق فيستحضر لهذه الرسالة المثل المناسب للغرض الذي يتحد ث عنه، فاستثمار المثل جاء في محله وجاء بمثابة سؤال يطلقه الأديب على لسان المرسل إليه ثم يُجيب عليه ليثبت أنه من بني غافق.

ويتبين للباحثة إحاطة الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال بمرجعياته النصية ومنها الأدبية إحاطة مكنته أن يستدعي ما شاء له الاستدعاء، ليوظفه في خطابه النثري توظيفاً فنياً خلاقاً مراعيا جدواه في خدمة السياق ورصانة البناء وعمق المعاني متصرفاً، فيه أجل تصرف لتأتي به مؤازراً نصّه النثري في خدمة المضمون وفاعلية التعبير، فالمثل المستحضر زاد المقطع النثري معنى وجّمل بناءه وعمّق إيحاءه لما ذكّر به من رمزية حملها هذا المثل الموحى.

وله رسالة في إجازة مقرئ وظف فيها المثل قل: (...فالحميّةُ تبعثُ القَرائح، والغَادي يحثُّ الرائح، والعاشي يَهيجُ الآبي، والْمَاضي يُجَرِّي النَّابي ...)[٣]

فالكاتب اختار أن يختمّ رسالته بتوظيف الأمثال لما تحمله من معنىً موجز ومكثف فهو يوظف المثل القائل(العاشية تهيج الآبيه)[٤] وهو مثل يضرب للأبل التي تأبى الرعي فأنها إذا رأت غيرها يرعى رعت مثله، ووظّف الكاتب هذا المثل للحث على العمل الصالح ،لأنَّ بالعمل الصالح يفيد الانسان غيره ،وخير الأعمال الصالحة القران الكريم وحفظه وتعليمه، فإن الإحسان في تعلمه ومن ثمّ تعليمه يجلب الآبي الذي يأبى قراءته والاستفادة منه ويُثير في نفسه الحبَّ له والعودة إليه وضرب الكاتب مثلاً آخر في هذا المعنى وهو قوله (والْمَاضي يُجَرِّي النَّابي) أي السيف القاطع يحفّز السيف غير القاطع، ويحثّه على القتال وهذا مثل ضربه

(١) جمهرة الأمثال:٢٩٩/١
(٢) الامثال العربية القديمة: سلام الدليمي، ٨٩
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٢١
(٤) جمهرة الأمثال:٥٧/٢

الكاتب في ضرورة ان يحضّ الأنسان على العمل الحسن، ويكون قدوة حسنة لغيره فوظف المثل العربي الذي وجد فيه القدرة على إيصال الغرض الذي أراده .

وفي رسالة إلى أحد أصدقائه قال: (أَنحيت -أعزك اللهُ- على السِّراج، وضللت ضلالَ صَخرة في مِراج، وتركت جَفْناً هو جُفَينة الْخَبر...) (١).

وظف المثل (وعند جُفينة الخبرُ اليقينُ) (٢) وهذا المثل يضرب في معرفة الحقيقة التي لا خلاف فيها فاستدعاه الكاتب وغير فيه ليتناسب مع مقصده، فقد أدخل المثل في خطابه النثري بعد تصرفه بألفاظه، تصرفاً فنياً وتمكَّن الكاتب من صياغته صياغة متفننة تناسب رسالته مع المحافظة على مغزاه الأصلي، ومعنى المثل عليك معرفة الخبر اليقين من الشخص المناسب فيختار لذلك القصد المثل للتعبير بإيجاز وجمال.

وهكذا عكست الأمثال جانباً كبيراً من ثقافة العرب القديمة وصورت العقلية العربية وقد تناقلها العرب بوصفها" صورة حية لمشهد واقعي او متخيل، مرسومة بكلمات معبرة موجزة، يؤتى بها غالباً لتقريب ما يضرب له من طريق الاستعارة او الكناية او التشبيه"(٣).

ووظف المثل في خطبته في الشكر على نزول الغيث بعد القحط: (...وأَغفالُها الَّتي لا تُحمَدُ عندَهُمْ ولا تُلام، قد اختَلطَ مَرْعيُّها بالْهَمَل ...) (٤) وظف المثل (اختَلطَ الَمرعيُّ بالْهَمَل)(٥).

وهذا المثل يضرب في اختلاط الأمر والتباسه والهمل هي المهملة التي لا راعي معها فالكاتب عندما أراد التعبير عن اختلاط الأمر وظف لذلك مثلاً من أمثال العرب في رسالته ليعبر عما أراد التعبير عنه فقد أغنى ذلك المثل معنى الرسالة وأضاف لها دلالة جميلة تكشف

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٣٠-٢٣١
(٢) جمهرة الأمثال:٢/ ٤٤
(٣) الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين الصغير، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد، ١٩٨١م، ٦٠ .
(٤) رسائل ابن أبي الخصال:٢٧٥
(٥) جمهرة الامثال: ١/ ٩٣

عن مبدع وظفها بشكل مناسب ليندرج المثل في سياق رسالته بصورة سلسة واضحة فالكاتب استثمر ما في الأمثال من إيجاز وتكثيف للمعنى الذي أراد التعبير عنه.

ولهذه الأسباب والمزايا التي في الأمثال ، استحضرها الكاتب في رسائله وأحسن ائتلافها مع خطابه النثري لإغناء نصوصه واثرائها بما فيها من كنوز قيمة، فللتعبير عن اختلاط الأمر على القوم حتى لا يعرفوا المرعي من الهمل وهو مثل يضرب لاختلاط الأمر وتشابكه والتباسه على القوم.

فالأمثالُ عكست صورة حياة الشعوب القديمة ومستوى سلوك أفرادها ، وهو مظهر من مظاهر ثقافتها لذلك فهي عالقة في الذاكرة الثقافية الجماعية، وتتمتع بمساحات تشاركية واسعة بين المبدع، وبين الجمهور بوصفها جُزءاً من موروثهم الثقافي، ولعلّ ذلك التعالق هو الذي أعطاها الأهمية الخاصة في التوظيف النصي عند جميع الشعراء بصورة عامة[١] ولذلك استحضر الكاتب ابن أبي الخصال الأمثال في أغلب رسائله لما لها من القدرة على التأثير في المتلقي وانّ لها الفضل في إيصال الغرض بإيجاز المعنى وتكثيفه.

ونلحظ استحضار (كما تدين تدان)[٢] في رسالته التي قال فيها: (...والنَّيْلُ لأَهلِ الشّاءِ والْحُمُرات الْمَرْعى والسّعدان، وأرض بكواكِبِ النَّورِ تَزْدان ، وبقاعٌ تَديْنُ الغَيْثَ كما تُدان...)[٣] .

فهذا المثل يضرب إنّه كما تفعل من فعل سوف يفعل بك، وهذا مثل قديم يحمل حكمة رائعة، فإنّ الانسان أذا فعل إحساناً كان جزاؤه الإحسان و عبّر عن ذلك القران الكريم (هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إلا الإحسانُ) [٤] واذا فعل سيئة فجزاءه مثله((وَجَزَاءُ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مِثْلُهَا) [٥] فقد استحضر الكاتب هذا المثل في رسالته وهو يريد ان يوصي الناس في خطبته، بأن الاحسِان لا يضيع وإنّ من عمل به سوف يجزى به وكذلك السيئة فسوف يعاقب صاحبها بمثلها، لهذا

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة: ٥٣٧
(٢) جمهرة الأمثال: ٢/ ١٦٨
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٧٧ -٢٧٨
(٤) الرحمن :٦٠
(٥) الشورى ٤٠

المعنى بتضمينه من المثل العربي القديم ليديم الصلة ويوثقها بين الماضي والحاضر ويعتمد الكاتب على مرجعيته النصية الأدبية الرصينة يسترفد ما يشاء منها ويداخله في خطابه ببراعة وتفنن يكشف عن موهبة الكاتب وتفننه.

لقد رجع الشعراء إلى الأمثال العربية واستحضروها ووظفوها في بناء النسيج النصي لإبداعهم الفني؛[١] لأنها " تصلح لإشعاع قيم شعورية وقيم اجتماعية وفكرية في حركة الحياة وتجارب الناس "[٢].

وقال ايضاً (...وأن ليسَ وراءَهُ في اتّقاد النُّبْلِ واعتقاد الفضل مَسْلك وَلْيَهْنئ العَنقاء أَن عَدمها حَقَن دَمها وإذا صِيْدَ الفَرا – وكل الَّصيد في جَوفِه- فما يُؤمِّنُها من خَوْفِه...) [٣].

أتهم ابن أبي الخصال بالاساءة إلى الغرب وأهله وتنصل من هذهِ التهمه فبعد ان أعلن براءته مما رُمي به من مدح الغرب وأهله قال هذا النص فالكاتب واثق من براءته مطمئن من تصديق ابن عبدون بكلامه وقد أختار الكاتب حجة المثل ليستدل بها على براءته فالكاتب هنا وظف العنقاء هذا الطائر الخرافي عظيم الاسم مجهول الجسم وعدم وجوده كان سبباً في حقن دمه وعدم اصطياده فكيف يصطاد من لاوجود لهُ اصلاً وكذلك التهمة التي رُمي بها لا وجود لها أصلاً ،واستحضر المثل المشهور (كلُّ الصيَّد في جَوْفِ الْفَرَا)[4] ويقصد به الشيء الأشمل الذي يغني عن صغائر لأمور ،أي اذا كان لشخص حاجات كبيرة وأخرى صغيرة فاذا قُضيت الكبيرة اغنت عن الصغيرة ،ولم يعد لها قيمة واستثمر ما بهذا من معنى لطيف ليغني رسالته ويثريها بشيء من كنوز التراث ، وأصل المثل أنّ قوماً خرجوا للصيد قصاد أحدهم ظبياً ،والأخر أرنباً والثالث فراء(حمار وحشي) فقال لأصحابه كلّ الصيد في جوف الفرا ،أي كل ما صدتموه يسير بجانب ما صدته فسار ذلك مثلاً .

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة: ٥٣٨
(٢) جماليات الأسلوب (الصورة الفنية في الادب العربي: فايز الداية، دار الفكر المعاصر -بيروت، دمشق، ط٢، ١٩٩٠م، ١٩٠.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٢٨
(٤) مجمع الامثال، لابي الفضل احمد بن محمد الميداني، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للاستانة الرضوية المقدسة، ٨٢/٢ .

فهذه الرسالة التي بين أيدينا لابن أبي الخصال، تكشف لنا عن فنّانٍ مُبدع أبدع في تشكيلها فهو يداخل بين النصوص، وتتداخل المرجعيات الأدبية والدينية والاسطورية والتاريخية في النص الواحد وبأسلوب رائع سلس لا تعقد فيه ولا صعوبة وهذا يدل على الثقافة الموسوعية للكاتب وصلته بالتراث، اذ تأثر به فوظفه جليّاً في نصوصه ويضرب المثل للشخص الذي يفوق اقرانه.

ويرى بعض الدارسين أنّ الأمثال تؤدي وظيفة عمادها التجذر الثقافي المشترك الذي يجمع بين الأمم بوصفه محوراً فعالاً في خدمةِ التواصل بين طرفي الإرسال فيرتقي بموجب ذلك إلى التصوير البلاغي"(١)

ونرى تداخلاً للأمثال في رسائله الزرزورية إذ قال:(...عن صَبوح أُرقّقُ وأَظنّك لا تُحقّق كلاّ ما سَرّحتُ بفَنَدٍ ولا عَرَّضتُ بِصَفَد ،أما إنّ الحديثَ شُجون، والعَيْش مُجون، والَمذاهِبُ تتشَعّبُ، وربَّ جِدٍّ ساقَهُ اللَّعب، واللُّهى لِلهاة كالتَّسبيح بالسّهاة...)(٢)

فقد تداخل في هذه القطعة أكثر من مثل إذ يرينا هذا التداخل براعته بشكل جليَّ في هذه القطعة فاستثمر ما في الأمثال من قيم فنية وتصويرية تتجلى في الأمثال (٣)

فاستحضر اولاً المثل القائل (أعَن صبوحٍ تُرقق) (٤) ويضرب هذا المثل بمعنى كنى عن شيء وهو يريد غيره، فلا يصرح وأصل المثل أنّ رجلاً نزل بقوم ليلاً، فأضافوه فلما فرغ قال: أين أغدو إذا صبحتموني؟ أي سقيتموني الصبوح فقيل له (أعن صبوح تُرقق) يعني الغداء ومعنى ترقق: أي تحسن كلامك وترققه بما أراد، فالكاتب في قوله فعن صبوح أرقق غيّر في ضمائر المثل بما يتماشى مع رسالته، فالمثل المستحضر يُسهم في صياغة وجه من وجوه ثراء النص النثري ، وانفتاحه على دلالات أوسع تغني النص وتمدّه بمعطيات بناء الصورة الفنية الموحية التي تمثل صيغة المثل، رصيدها وعنوان ديمومتها فيؤمن النص

(١) النص والاسلوبية بين النظرية والتطبيق(دراسة)، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، ط١، ٢٠٠٠م،٥٤.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٣٦
(٣) الامثال العربية القديمة، رودلف زلهايم، ترجمة: رمضان عبد التواب، بيروت ،١٩٩١م، ٢٦.
(٤) جمهرة الأمثال: ج١، ص ٣٠

حيوية المثل وحركته داخل إطارها العام عن طريق استثماره ، وإعادة توظيفه على وفق أبعاد التجربة الجديدة ، ومعطياتها التعبيرية [١].

واستدعى مثلاً اخر في هذه الرسالة وهو قوله (رب جدّ ساقه اللعب) المثل القائل (رب مزحٍ في غَورهِ جِدّ)[٢]

وهذا المعنى في قول أبي نؤاس

صار جدا ما مزحت به رب جد جرّه اللعبُ[٣]

وفي رسالته في الاعتذار عن المقامة القرطبية قال: (... هيهاتَ هيهات يَدُلُّ على الفَجْرِ سَناه، ويُعرب عن الشّجر جَناهُ وتفضح الشّناشِنَ أَخزم ...)[٤] .

وظف المثل القائل (شنشنة أعرفها من أخزم) [٥]

قال الميداني في المَجْمَع نقلاً عن ابن الكلبي انه لابي أخزم الطائي وهو جد ابي حاتم الطائي او جدّ جده، وكان له ابن يقال له أخزم وقيل كان عاقاً، وترك بنين فوثبوا يوماً على جدهم أي اخزم فأدموه فقال:

إنَّ بني ضرجوني بالدم شنشنة أعرفها من أخزم[٦]

وعنى المثل أنّ هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق، فالكاتب استدعى المثل لما يناسب الغرض الذي قصده ،فقد عاد إلى الأمثال وأغنى لغته الشاعرة بمفردات تراثية ذات قيمة تعبيرية تمنح الأداء الشعري آفاقاً جماليةً ومتعة حسية [٧] فقد أحسن ابن أبي الخصال استدعاء ثقافته الأدبية واستثمارها بما يتلاءم وتجربته وغايته التي أراد التعبير عنها.

---

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة:٥٤٩
(٢) مجمع الأمثال: ٣٣٠
(٣) ديوانه:٥٩٠
(٤) رسائل ابن بي الخصال: ٣٦٠
(٥) مجمع الامثال:٣٧٥/١
(٦) مجمع الامثال: ١/ ٥٠٥
(٧)ينظر: المرجعيات الثقافية الموروثة: ٥٤١

وفي معارضته لملقى السبيل قال:((...أما إنَّ الحَريص لَيَبيعَ النُّهى بـاللُّهى ، ويَعْـي عـن البَدْرِ ويُتعبُ لحظُهَ في السُّهى...)[١]

استحضر المثل القائل (أريها السها وتريني القمر)[٢]

ويضرب المثل للذي يسأل عن شيء يصيب جواباً بعيداً فالسـها هـو نجـم صـغير خافـت الضوء ،والقمر ذلك الكوكب الكبير الواضح، فالكاتب وبفضل تأثره بمرجعيته الأدبية، وحفظـه لها واعتزازه بها، فقد وظف المثل لكن ليس على صورته الأولى انما تصرف في المثل وغيـر فيه بما يتلاءم مع غرضه والسياق لذي قيل فيه والمناسبة التي دعته إلى انشاء رسالته.

وله رسالة وظف المثل فيها أيضاً وقال فيها: (... ويـا وَجْنـاء لسـتُ مـن ابـنِ ضـرار ولا أَجزيكِ جَزاءَ سِنّمار...)[٣]

يضرب المثل (بجزاءَ سنمار)[٤] وهو مثل لسوء الجزاء ويُضـرب لكـل مـن عمـل خيـراً فيجازى بالشر، وكان سِنمار بَنَّاءً مُجيداً فبنـى قصـر الخرنـق للنعمـان فلمـا نظـر إليـه النعمـان استحسنه وكره أنْ يعملَ مِثله لغيره، فالقاه من أعلاه فخر مّيتاً[٥]

"فالمحسن قـد يجـازى بالإسـاءة وهـذه خلـة تأباهـا أخـلاق العربـي وشـرفه"[٦] فـابن أبـي الخصال ينفي عن نفسه هذه الصفة وهي جزاء الإحسان شراً فيقول (لا اجزيك جـزاء سـنمار) فالعربي يرفض ذلك ،وجدير ذكره أنّ هذا المثل ذا المعنى الغزير كـان هـدفا لفصـحاء العـرب على شاكله قول قائلهم:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحســن فعلٍ كما يُجزى سَــنَّمارُ

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٣٨٨
(٢) جمهرة الامثال:١/ ١١٧
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٠٦
(٤) جمهرة الامثال:١/ ٢٤٧
(٥) المصدر نفسه الصفحة نفسها
(٦) الامثال العربية القديمة (دراسة في كتابي مجمع الأمثال والمستقصي): ٧٧

فاخذ الأدباء يُرَصِّعَونَ ادبهم بالأمثال العربية الناشئة من الوسط الاجتماعي، فرّصعوا أقوالهم، بالشكل الذي يمنحها طاقة إيحائية، قادرة على التأثير في نفس المتلقي، بما ترفده من قوة تعبيرية، وصيغ بلاغية فصيحة تتمثل بالإيجاز، ودقة التشبيه، وجودة الكتابة (١)

وله رسالة إخوانيه بعثها لأحد أصدقائه: (...وحَبَّذا مُنْتَماكَ لقد ذَكَّرَ جِواراً، وحَرَّك من عهدنا الماضي حُواراً لا جَرَم أن عهدي لك ناضِرٌ..)(٢) استحضر الكاتب في نصه جُزءاً من المثل القائل (أَرْغُوا لها حُوَارَها تَقِر)(٣)

وهو مثل يضرب لأغاثه الملهوف بقضاء حاجته ليسكن، كما الناقة عندما تسمع رغاء ولدها(الحوار) فأنها تحن، واستثمر ابن أبي الخصال هذا المثل في رسالته ليصل إلى المبتغى الذي أراده من صديقه، فالكاتب يستذكر عهده الماضي وصديقه ويحنُّ إلى تلك الأيام الجميلة فشبه حاله بحال الناقة إذا سمعت رغاء وليدها حنت إليه، فكذلك الكاتب يحنُّ إلى صديقه الذي ذكره ويحُّن إلى الأيام التي كانت تجمعهم ،وهذا تأكيد على استمرارية الوصل وديمومة المودة واتصال حبلهما على الرغم من بعد الأقطار والمسافات، فللأمثال قيمة كبيرة ، ومدلول واسع لشيوعها بين الناس ، واتخاذها صياغة لفظية محددة، ويقوم تركيزها على التهذيب والتعليم (٤) فالأمثال تحمل الكثير من المعاني والايحاءات فهي تجسد كثيراً من الخبرات والتجارب الإنسانية العامة ، ولقد شغف العرب بهذا اللون من القول ، فشاع في كلامهم وكَثُرَ في تراثهم(٥)

(١) ينظر:المضامين التراثية في الشعر العراقي الحديث، فازع حسن رجب المعاضيدي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٥م، ١١٠.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٤١٦
(٣) جمهرة الامثال:٨٤/١
(٤)ينظر: في عالم التراث الشعبي، لطفي الخولي، الموسوعة الصغيرة (٤٠)، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية، بغداد ،١٩٧٩م، ١١١.
(٥)ينظر: نثر ابي العلاء المعري (دراسة فنية)، صلاح رزق، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١ ، ١٩٨٥م، ٢٠٠.

وقال ايضاً :(...فقلتُ الخطبُ أَيسرُ، والمدى أقصر فقال عَجِّلْ بتصريحك وجَلِّ الرّغوةَ عن صَريحك ...) (١)

استثمر المثل (وتَحْتَ الرْغوةِ اللبن الصَّريحِ) (٢) وقولهم ايضاً (أَبْدَى الصَّرحُ عن الرُّغْوَة) (٣) فابن أبي الخصال يطالب المرسل إليه يكشف الحقيقة وإزالة ما يعكرّ صفو الحق، فهو ما لرغوة التي تُغطي اللبن ولا تجعله ينكشف لكن عندما تزال هذه الرغوة، فإنّ اللبن الصريح الجميل سيظهر وهذا مثل لعدم النظر إلى الظاهر من الأمور والتعجّل بل يجب التريث في الأمور والحكم عليها بعد معرفة حقيقتها.

فثقافة الكاتب تتكون من قراءته واطلاعه على النصوص القديمة ومدوناتها، وما يرتبط بها من حوادث وقصص فتستقي نصوصه الإبداعية الجديدة من النصوص القديمة -بعد استحضارها في البناء الجديد -حياة جديدة تمنحها صفة الاستمرار والتجديد، فتظهر اثار تلك الثقافة بلا شك واضحة على إنتاجه الادبي وبأشكال متنوعة مختلفة على وفق قدرات الشاعر الإبداعية والمعرفية وموهبته الشعرية في التعامل مع خزينه الثقافي، وتوجيهه النصوص الموروثة بما تحمله من دلالات ومعان وتحويرها بما يتلاءم ومقصديه غرضه (٤) فاستطاع الكاتب ابن أبي الخصال استثمار الخزين التراثي الذي يحفظه ويظهره في رسائله بشكل متألق.

وقال في رسالة أخرى: (...فتمثلَ في حُسن المتاب، وبَصْبصْنَ إذا حُدِين بالأذناب؛ وأقبل يستنزلُ ويَتَرضّى ....)(٥)

وظف المثل القائل (بَصْبَصْنَ بالأذنابِ إذْ حُدِينَا) (٦) والبصبصة تحريك الذنب، والأبل تفعل ذلك إذا أُحدي بها، ويضرب هذا المثل للرجل إذا غمز أذعنَ، فجاء ابن أبي الخصال

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٤٤١
(٢) جمهرة الامثال:١/ ٢١٨
(٣) جمهرة الأمثال :١/ ٢٨
(٤) المرجعيات الثقافية الموروثة:٥٤٦
(٥) رسائل ابن أبي الخصال:٤٤٤
(٦) جمهرة الامثال:١/ ١٨٤

بالمثل كماورد في الموروث الأدبي و بصورته الأولى نفسها، فوظفه في رسالته فأعطى الدلالة التي أرادها الكاتب في نصه ، فشّبه العرب الجبان في خضوعه لجبنه بالإبل تخضع لهاديها في سيره فتحرك أذنابها [١] والجبن عار عند العرب، وكثرت الاشعار والامثال التي تهاجم الجبن وتَعدُّه من الصفات الذميمة التي يجب أن ألّا يتحلى بها العربي.

وقال في رسالة في ذكر غلام صرفه (...وأنّى لي -أدام اللهُ عِزَّك- في تلكَ الحال وقد أَدبرتْ آدابُها، وانبتَرت أسْبَبُها، بغُلامٍ عَليمٍ يطلعُ ببُشرى ويُيسَر للعُسرى لكنَّه بَراقشُ فضح بجهله...) [٢]

من المثل القائل (عَلَى أَهلْهاَ دَّلتْ بَراقِشُ)[٣] وهي كلبة ضرب بها المثل فقالو ايضاً (أشأم من براقش) وضرب مثلاً للذي يريد إصلاحه بأ فساد وسوء، وبراقش كلبة نبحت جيشاً كانوا قصدوا أهلها خفي عليهم مكانهم فلما نبحتهم، عرفوا مكانهم فاجتاحوهم، فالكاتب ربط بين التشابه بين وضع الغلام ووضع براقش، فهو يشبه الغلام الذي صرفه ببراقش التي جَنَتْ على أهلها، فما جاءه منه الخير.

وقال ايضاً (...وانبتَّتْ تلكَ العلق، وزوى عنِّي نورَه الفَلَق، وعجت من مالِ على يباب، رَضيتُ من الغنيمةِ بالإياب...) [٤]يستحضر المثل القائل (رَضيتُ من الْغَنيمةِ بالإيَابِ)[٥] وقال امرؤ القيس:

وقد طوفْتُ في الآفاق حتَّى رَضيتُ من الغنيمة بالإياب[٦]

وورد عند الطغرائي ايضاً بقوله:

---

(١) الامثال العربية القديمة: سلام الدليمي: ٧٣
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٤٥٨
(٣) جمهرة الامثال:٢/ ٥٢
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٩٢
(٥) جمهرة الأمثال: ٣٩٤/١
(٦) ديوانه:٩٩

والـدّهرُ يعكس أمـالي ويُقنعني من الغنيمـة بعـد الكـد بـالقفلِ[١]

وسرت هذه الأبيات مسرى الأمثال، فقال رضيت من الغنيمة بالإيـاب، ويقـال لمـن رجـع ولم يحقق مسعاه "فإن استعمال الأمثال في بنـاء الـنص الشـعري يـدلّ -وبـلا شـك- علـى ثقافـة عربية أصيلة ومعاينة جادة لتراث الأمة بصـورة عميقـة[٢] ، بوصـفه مـن أكثـر الأمـور دلالـة على عقلية الشعوب، فتتبلور هذه الصيغ المعبرة، وتتداولها الأفواه علـى وفـق مواقـف محـددة تحتاج في اغلـب الأحـايين إلـى الإبانـة ، والوضـوح حينـا، والتـدليل علـى مصـداقيتها أحـايين أخرى[٣]

وقـال فـي رسـالة إلـى صـديق (...وَسـهامهم إلـيهم بِأَمثالهـا تُفـوّقُ وَتُنْـبص إنمـا أُكلـت يـوم أُكـلَ الثّـور الأَبـيض وَيـودّ مُلقّـن الْعَضـيهة وَمُعلّـم اللّفظـة الكَريهـة لـو كـرّه الْجَفـاء، وَزيّن الوَفاء ...)[٤]

وكثيراً ما تضرب الأمثال فـي الحيوانـات وقـد عـرف هـذا منـذ العصـور الأولـى لـلأدب العربي ،فوظف ابن أبي الخصال المثل القائل (أُكِلْتُ يـوم َأُكِـلَ الثَّـوْرُ الأسـود)[٥] وهـذا المثـل يضرب لمن فقد ناصره ولحقه الضيم من عدوه ،فوظف المثل بمـا يناسـب الغـرض الـذي أراد اظهاره ،والكاتب في توظيفه للأمثال وتصُّرفه في صياغتها بأسلوبه الخاص يكشف عن تبحُّره بمرجعيته الأدبية إذ أخذ من الأمثال مـا يـراه مناسـباً للرسـالة واحيانـاً يعمـد إلـى عكـس المثـل لأثبات المعنى الذي أراده في رسالته وتوكيده ، واستثمر ما في المثل من معنىً مـؤثّرٍ وعبـارة موجزة لتأدية الغرض الذي أراد فظهرت في رسائله الخصال التي تتوافر في كـل عربـي فهـو يرفض الجبن والبخل وعدم الغيرة ويحثُّ على الشجاعة والكرم والمـروءة وان يكـون العربـي ذا غيرة وهذا ما عكسته الأمثال العربية واستطاع الكاتب اسـتثمار هـذه الأمثـال بشـكل جميـل مؤثر، وقد كثر عند العرب ضرب الأمثال بالحيوانـات" والسـبب فـي تفـرد العـرب باسـتعمال

(١)ديوانه: ٣٠٢

(٢) ينظر: عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون، فوزي خضير، الكويت، ٢٠٠٤م، ١٧

(٣) المرجعيات الثقافية الموروثة:٥٥٧

(٤) رسائل ابن أبي الخصال:١٧١-١٧٢

(٥) جمهرة الامثال: ١/ ٦١

ذلك دون سائر الأمم ، ان العرب أناس انما وضعوا بيوتهم وابنيتهم وسط السباع والأحناش، والهمج والحشرات ، فليس يعثرون الا بها ، ولا يفتحون عيونهم على سواها، فحين تأملوا أخلاق تلك البهائم ... قالوا عند ضرب الأمثال بأخلاق الانسان ان فلاناً له جرأة الأسد ووثوب النمر وروغان الثعلب وختل الفهد وصولة الجمل، وحملة الثور، وغدر الذئب، وحفاظ الكلب، وعقوق الضب، وجمع الذر، وهداية الحمام، وحماقة الضبع..."[١]

ووظف المثل ايضاً في مقامته التي عارض فيها الحريري إذ قال فيها:

(...ولّما نزفَ عُمر اليوم، وحسر مَدُّ القَوم ؛ظَلّ يعكُم ويَشْكُمُ ويَصُرُّ ويَنْفُث فيما يَصُرّ، ويَشُدُّ على تلكَ الأَعلاق بُخلاً ويعقِدُ ولا يَذْكُر حَلاً، فلما استَوْعى خِرقَه ،ولا أَوْكى سُحْتَهُ وحُرقَه، إلّا ونفْسُ اليَوْم زاهقة...)[٢].

فقد وظف المثل القائل (يا عاقدُ أذكُر حلاً)[٣] ويضرب المثل للنظَر في العواقب وأصله أنَّ الرجلَ يَشُدُ حِمله على بعيره ،فيُسرِف في الاستيثَاق فيضرُّ ذلك به وببعيره عند الحلول وقد وظف الكاتب المثل في رسالته بما يناسب قصده فقد تصرف في صيغة المثل الأصلية وهذا نابع من معرفة وثقافة عالية تحلى بها الكاتب الأندلسي.

فقد نال المثل مكانة كبيرة فاخذ الكتاب والشعراء يوظفونه في إنتاجهم ويستلهمون دلالاته بما يتناسب مع أغراضهم، إذ استعان أغلب الأدباء بتراثهم العريق للوصول إلى الهدف المنشود، واستعانوا بالأمثال لما تحمله من حكمة وايجاز للمعنى بلفظ مختصر وصياغة فنية جميله واستحضر الكاتب ابن أبي الخصال المثل لإضفاء جمالية على نصوصه، وجعل هذه الامثال رافداً لمعانيه بوصفها جزءاً من مرجعيته النصّية التي أسهمت في تكوينه المعرفي، وأثرت في انتاجه الأدبي المتمثل برسائله المتنوعة بأغراضها وقوة تأثيرها في متلقيه على مرّ الحقب .

(١) الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، الاصبهاني، تحقيق عبد المجيد قطامش، مطابع دار المعارف - القاهرة ١٩٧١م،١/٥٩-٦٠.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٤٢٥
(٣) جمهرة الأمثال:٤٢٧/٢

الفصل الثالث

المرجعيات التاريخية والأسطورية

المبحث الأول: المرجعية التاريخية

المبحث الثاني: المرجعية الأسطورية

المبحث الأول

المرجعية التاريخية

يمثل التاريخ سجل الأمّة ومآثرها وماضيها، فعن طريق التاريخ ذكرت الحضارة وكيفية تكوينها وبدئها، وعن طريق الماضي وصلنا إلى الحاضر، فلكل شيء ماضٍ كان بدائياً في أول الأمر ثم نما وتطور، وأصبح على الشكل الذي هو عليه الان، وما كنا نعرف هذا الماضي لولا التاريخ الذي احتفى بالكثير من الأخبار الماضية والقصص والعبر ودوَّنها.

والتاريخ في اللغة: أَرَّخ التأريخ تعريف الوقت، والتّوريخُ مثله، أَرَّخَ الكتابَ كذا: وَقّته[1].

وجاء في القاموس المحيط: أرَخ الكتاب وأرْخه وأَرَخه وقَّته، والأرخُ ويُكسر الذّكر من البَقرِ[2]

فالتاريخ هو الوقت، كما جاء في أغلب المعاجم، فلكل شيء وقت وتاريخ محدد، والتاريخ أتاح لنا معرفة الأخبار الماضية والإنجازات القديمة لتكونَ لنا أساساً قي بناء المستقبل.

والتاريخ اصطلاحاً: هو سِجلُّ الأمم الذي يُسَّجل فيه كلُّ ما يخصُّ شعباً من الشعوب أو أمةً من الأمم، ولكلّ مجتمع تاريخه الذي تفتخر به.

ويُعدُّ التاريخُ من الروافد الأساسية التي عاد إليها الأدباء والكُتّاب في الأندلس ووظفوها في رسائلهم ونثرهم بشكل عام، فللتاريخ أهميةٌ كبرى، فلهُ القدُرة أن يديمَ الصلة بين الماضي والآني.

فأخذ الكُتّابُ يدخلون التاريخ في نصوصِ نثرِهم ورسائلهم فتمكنوا- عبر هذا التوظيف التاريخي- أن يديموا الصلة ويمدّوا الجسور بين الماضي والحاضر، فضلاً عن أنّهم استقوا من التاريخ قصصاً وأحداثاً وعِبَرَاً امتدت جذورها إلى وقتنا الحاضر.

---

(١) لسان العرب :٤/٣

(٢) القاموس المحيط:٢٤٨

إذن مثّل التاريخ مادة خِصْبةً غنيّةً بالأحداث والشخصيات القابلة للتوظيف الفنّي، وهو ملئٍ بالإشارات والرموز التي يُضفي عليها المُبدع من خياله فيحيلُها صوراً شعرية حيّةً في اتجاهاته الشعرية المختلفة، ليعبَر عن مكنوناته وخباياه النفسية ومشاعره الوجدانية [1] .

ويُعدُّ التاريخُ الرافدُ الثالثَ الذي استقى منه ابن أبي الخصال -بعد مرجعيته الدينية والأدبية فوظف مرجعيته التاريخية في رسائله، إذ عاد بين الحين والأخر إلى استحضار شيء من هذا الإرث العربي العريق ،واختلف توظيفه لهذه المرجعية النصّية ،فتارة يعود إلى الشخصيات التاريخية ،وما امتازت به من حكايات وقصص دونها التاريخ سواء أكانت هذه الشخصيات سياسية أم اجتماعية أم أدبية أم غيرها من الشخصيات التي سيرد ذكرها إنْ شاء الله، واستحضر ايضاً الحوادث التاريخية والمعارك والوقائع وأيام العرب التي حفل بها المخزون التراثي التاريخي، فضلاً عن ذكره للقبائل والأماكن التراثية مما يُحتّم على القارئ العودة إلى استحضار الخطاب التاريخي وما رافقه من أحداث أو شخصيات أو أماكن لكي يتمكن من فهم فاعلية التوظيف الفني للمرجعية التاريخية .

أ - الحوادث التأريخية

سجَّل التاريخُ العربيُّ عدداً كبيراً من الحوادث التي تمتد جذورها إلى الوقت الحاضر والتي تُمثّل إرثَ الأمة العربية، فعمل الكتاب على استحضار الحوادث التاريخية وتوظيفها في نثرهم ورسائلهم بفاعلية تأثيرية عالية ،وما يمتاز به هذا الاستحضار من شحذ الهمم ودفع أبناء الأمة إلى الاعتزاز بالتاريخ القديم الذي حقق فيه الأجداد المجد.

وجاء ابن أبي الخصال بهذه الحوادث في نصوصه النثرية ،ليدُلَّ على تعمق صلة الكاتب بمرجعياته التاريخية التي دأب على استحضارها كلما دعت حاجة التعبير إليها ،إذ وظف عدداً غير قليل من حوادثها وشخوصها وعبرها، ليمدَّ الجسور بين الآني والماضي ويُقدّم للمتلقي عِبراً ودروساً سجلها الماضي، وليُثري النص بما يفيد القارئ ويمدّه بمعرفة ليست إمتاعيه او تأثيرية فقط ،بل يُقدّم له شيئاً من تاريخ أمته الذي غاب عنه او تناساه، وهذه الثقافة

(١) المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي :٣٣٣

التاريخية العميقة مكنّتْ أديبنا من الخوض في غمار التاريخ واستحضار اللآليء التاريخية القيّمة ،والتي نفض عنها الكاتب غبار النسيان وبعثها بعثاً جديداً في سياقِ رسالته ليُحيي هذا الموروث من ناحية ويُغني رسالته من ناحية أخرى.

ومن الأمثلة على الحوادث التاريخية التي ورد ذكرها في رسائل ابن أبي الخصال، حادثة جذيمة الأبرش والزبّاء في رسالة يرثي فيها الوزير أبا محمّد عبد الرحمن بن مالك قال فيها:

(من الطويل)

وكرّت على الزَّباء إثر جذيمةٍ ... وحُمَّ لها من مثل ما جَرَّعت وِرْدُ
ولو ملَكتـْهُ رأيـهُ يومَ بَقـةٍ ... لما فاتـهُ من يومِ مكرهِها وَعْدُ
وَما بلـغ الثـأر المنـيمُ قتيلَها ... وهل تَبْلـغُ الأنباءُ مَـنْ دُونَـهُ اللَّحدُ
ولـم تُحصـن الزبّـاءَ قُنـةُ شـاهقٍ ... تُساميهِ أَوهـام الخطـوبِ فيرتَـدُّ
ولا نَفقٌ يسـتبطنُ الأَرضَ غامضٌ ... طَوتهُ كما يُطوى الضَّـميرُ فما يبدو
وجَرتْ على مَغْنى قصـير ذيولها ... ولم تُنجهِ منها العصـا وهْيَ تَشـتَدُّ[1]

يعود الكاتب في هاتين الرسالتين إلى حادثة من الحوادث التاريخية القديمة وهي حادثة جذيمة الأبرش والزباء، فقد استعان الكاتب ابن أبي الخصال بمرجعيته التاريخية للتعبير عن الغرض الذي قصده ،وقد أتاحت للكاتب سعة ثقافته التاريخية ان يتحكم في التعبير عن مقصده، باستحضار حوادث تاريخية قديمة، والزباء هي ملكة الجزيرة ،قتل جذيمة الأبرش أباها عمر بن الضرب ،وملكت هي من بعد أبيها وتمكنت من قتل جذيمة الأبرش فجدع قصير أنفه وذهب إليها يوهمها بان قومه جدعوا أنفه ،لأنّ إليها ولاؤه فصدقته ومنحته ثقتها فمكن قومه من قتلها[2] فسرت هذه الحادثة يتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل ،لما فيها من عِبَرٍ حقيقية استخرجها الكتاب الأندلسي ابن أبي الخصال من التاريخ، فوظفها في رسائله ،فهو يُدرك ما يثير اهتمام القارئ ويعي حبّ العربي للاطلاع على الحوادث التاريخية، فيحسن استحضارها

(١) رسائل ابن الخصال ٢٤٨-٢٤٩
(٢) العقد الفريد، شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، تقديم: الأستاذ خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال ،١٩٩٩م،١٠٤/٣.

وهو يلائم ويحسن التنسيق بين موضوع رسالته وموضوع الحادثة وإنّ" الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإنَّ لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية ، والقابلة للتجدد -على امتداد التاريخ- في صيغ وأشكال أخرى؛ فدلالة البطولة في قائد معين، أو دلالة النصر في كسب معركة معينة تظل - بعد انتهاء الوجود الزمني، لذلك القائد أو تلك المعركة- باقية، وصالحة لأن تتكرر عبر مواقف جديدة وأحداث جديدة، وهي في الوقت نفسه قابلة لتحمل تأويلات وتفسيرات جديدة"(١).

فقد شكلت الحادثة التاريخية جديداً للنص على وفق رؤية الكاتب لثقافته التاريخية التي أسهمت في إغناء النص واستثماره لها (٢).

وابن أبي الخصال يُدرك ما لهذه الحوادث من أثر وقدرة على اغناء النص النثري لذا جدّ في أن يُحسن استدعاءها وصوغها في رسائله.

وهناك حادثة أخرى كَثُرَ تداولها في الأدب العربي، وقد استحضرها ابن أبي الخصال في رسائله، ألا وهي قصة النعمان والذي كان له يومان يوم نعيم ويوم بؤس وجاء في الرسالة:

(هذا أَبو قَابُوس قَسم النعَّيم والبُؤس احْتَدَم فَفَري الفَرِيّ ، وتَنَدَّم فَبَنى الغَرِيّ...)(٣)

وهذه الحادثة انتشرت وسادت في الثقافة العربية ، فقد كان له نديمان، قتلهما في سكره ثم ندم على قتلهما فبنى لهما قبريين يسميان الغريين، فكان يخرج إليهما يومين في العام ،يوم النعيم ويوم البؤس (٤) وفي يوم النعيم يبالغ في إكرام أول من يقدم عليه زائراً، اما في يوم البؤس فيأمر بقتل أول من يأتيه زائراً، أو طالب حاجة ،وفي يوم تأخر النعمان بالصيد فأظله الليل فحلّ ضيفاً على زيد الطائي فأكرمه وقرّبه ذلك الرجل الطائي من دون أن يعرف من هو وفي الصباح قال له النعمان: إنّه الملك ومضت الأيام وقد أصاب الرّجَل الطائي الفقر والحاجة فخرج يطلب معونة النعمان وصادف ذلك اليوم يوم بؤس النعمان فأراد الملك ان

(١) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد ، الشركة العامة للنشر والتوزيع، دار الفكر العربي ،١٢٠.
(٢) ينظر: المرجعيات الثقافية الموروثة :٣٣٩
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٠٢
(٤) العقد الفريد:٣/ ٣١٥

يقتله فقال الطائي لو أمهلني الملك بعض الوقت أرجع إلى عيالي لأوصي بهم، وأودعهم قبل موتي ثم أعود فقبل الملك شريطة ان يكفله ،أحد الحضور ويرضى بالموت مكانه إذا تخلف عن الحضور فقبل رفيق الملك واسمه (شريك) أن يكفله فذهب الأعرابي ،وحمله وفاؤه بالعهد لأنْ يأتي فقال له الملك ما الذي حملك على الرجوع ؟ فقال له أخلاق عربية ترفض الغدر ووفاء ونبل أقوى من الموت وحمله هذا التصرف من شريك والطائي لأنْ يلغي يوم البؤس ويتخلّى عنه إكراماً لوفاء الطائي ومروءة شريك وأخلاقه النبيلة وهكذا نجد أنّ الأدب العربي مليء بالحوادث التي تناقلها الناس و تداولوها .

فقد استلهم الكاتب ابن أبي الخصال الحادثة التاريخية ،إذ أسند اليها رسالته فيستحضر من الحدث التاريخي ما يناسب غرض رسالته ،ويعطي النص دلالة جديده فهو يشير إلى الحدث التاريخي بلمحة من دون ذكر التفصيلات، فالحدث التاريخي منح النص أبعاداً ايحائية واسعة.

وكتب ابن أبي الخصال عدداً من الرسائل التي ذكر فيها بعض الحوادث التي وقعت في الأندلس، ومنها ما كتبه عن علي بن يوسف بن تاشفين ونذكر منها:

(...كتابُنا -أبقاكُم الله- وأَكرمكُم بِتَقواه، وعَصم جانِبكُم وحَماه، وتَمَّم عليكُم عَوارِف نُعماه -من فُلانةٍ حَرسها الله، وقَبلُ ما وَفد إلينا وورَد علينا الفَقيهُ الأجلُّ المُشاور أَبو الوليد بنُ رُشد -أَعزه اللهُ بطاعته- فبسطَ لدينا شأن تلْك الجزيرة -كلأَها الله- وجَلَّاه ووصَف من حَالها ما أَصخنا لهُ حتى اسْتَوفاه...)[1] .

وهذه الرسالة يذكر فيها الكاتب الحوادث التي دارت بالأندلس، ومنها سفارة الفقيه القاضي ابن رشد الجد ولقاؤه بعلي بن يوسف بن تاشفين ، والإشارة إلى بعض الأمور التي دارت بينهم وعرض عليه أحوال الأندلس بعد حملة الفونسو المحارب * واتضح فيها أنّ النصارى المعاهدين في غرناطة قد كاتبوا الفونسو ليأخذ البلاد ودلّوه على غوراتها ، وأفتى القاضي أبو الوليد بن رشد بأجلاء أولئك المعاهدين عن أرض الأندلس، فقد أكثر الكاتب من

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٦٠٣-٦٠٤

* وهو من أعظم ملوك أسبانيا النصرانية وأكثرهم جهداً في حرب المسلمين في الأندلس إذ عُرف بتعصبه القومي بلغت مدة حكمه ثلاثين سنة . الفونسو المحارب ودوره في حركة الاسترداد الاسبانية: أنسام غضبان عبود ،مجلة دراسات تاريخية ع٢٣، جامعة البصرة ،كلية التربية للبنات ، ٢٠١٧

ذكر الحوادث التي دارت بالأندلس والفتن التي ظهرت فيها، وما لهذه الحوادث من وقع شجيّ في نفس الكاتب الأندلسي الذي يرى ما أحاط بالأندلس من فتن ومؤامرات تحاول تدمير هذه البلاد الجميلة.

فأخذ الكاتب يذكر الحوادث التي دارت في الأندلس ويوثقها، ويُبرزُ مدى قوة أهل الأندلس وتضامنهم ومحاولتهم من الوقوف بوجه الأعداء ومنهم ابن رشد الذي أجلى المعاهدين بعدما اكتشف خيانتهم واتفاقهم مع الفونسو المحارب.

وقال في إحدى رسائله: (...وحدثت أثناءَ ذلك هذه الحوادثُ التي نَفت الْهُجوع وأَجْرَت الدُّموع من فَقد الأَمير أَبي يحيى كرَّم اللهُ مآبه وخَفّف بإدراك الثّأر رُزأه ومُصابه، إلى مَنْ أُصيبَ من الْمُسلمين، جبَر اللهُ الصدعَ وأجملَ العزاءَ والصّبر...) [1].

فالكاتب يشير إلى معركة (بلتيرة) *سنة ٥٠٣ هـ -١١١٠م وهي ضمن المعارك التي خاضها المرابطون للدفاع عن بلادِ الأندلس، والأحداث التي رافقت هذه المعركة وكان لهذه الحادثة أثر في تاريخ الأندلس من دون شك، وانتهت بقتل الملك المستعين بن هود فجاء بعده عبد الملك ابنه[٢] وذكر فيها أبا يحيى وهو أبو بكر بن أبي عبد الله محمد بن الحاج المشهور بالحاج وهو من كبار ولاة الأندلس والمغرب وكان ابن أبي الخصال مقرباً له ولأبيه.

أمّا أهم الأحداث التي كانت عام خمسمائة وثلاثة فأن المرابطين كانوا قد أخذوا سرقسطة وأخرجوا منها ابن المستعين بن هود حاكمها السابق بطلب من أهلها ،لكثرة استنجاده بالرُّوم فدخل محمد بن الحاج سرقسطة بدلاً من عبد بن فاطمة وفتحت لابن الحاج الابواب ثم أنّ

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٧١-٧٢

* وهي معركة شديدة هُزم فيها المسلمون وقُتل المستعين بن هود وعلى إثر هذه الهزيمة سقطت مدينة تطيلة وأستردت من قبل النصارى الأسبان سنة ١١١٠م. الفونسو المحارب ودوره في حركة الاسترداد الاسبانية :أنسام غضبان عبود،١٨٦

(٢) الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٩٩م ،١٠٥/١ .

ألفونسو المُلقَّب بالمحارب اقترب مع عماد الدولة عبد الملك بن المستعين بحجة نصرته لاسترداد ملك آبائه(١)

وخرج إليه أبو عبد الله بن الحاج ومعه الناس يتهيأ للقاء العدو وحليفه ابن هود ،فأخل بعضهم بالنظام وانسل بعضهم داخل المدينة فانتهز ألفونسو هذه الفرصة وقسم الجيش المرابطي الأندلسي قسمين وانفرد بأبي يحيى ومن معه في مناوشةٍ سريعة قضى أبو يحيى فيها نحبه وأصيب من معه (٢) ، فالكاتب قد حزن على محمد بن الحاج الذي مات في هذه الحوادث التي مرت بالأندلس، فهو يُشير إلى الحوادث التي وقعت في (٥٠٣هـ) وأدت إلى وفاة الحاج، فهذه الحوادث لها أثر نفسي على الكاتب فهو أندلسي يأسى لما حلّ ببلاده من دمار وخراب ،وما صارت إليه من حروب وفتن، قضت على جمالها الزاهر فَيُضّمنُ الكاتب رسائله شيئاً من التاريخ الأندلسي والحوادث التي حلت بالأندلس والشخصيات التاريخية التي كان لها أثر في هذا التاريخ الأندلسي المشرق.

فالكاتب ربط بين الأحداث التاريخية وحالته الشعورية حتى غدا الحدث التاريخي الذي كان سبباً بفقد الحاج مرتكز الرسالة وعمادها.

وقال في رسالة جوابية إلى ابن عبدون*: (...ولو أطَقْتُ بَراعة الكتاب، ووقفْتُ مُتَطارداً في رَجْعِ الجواب، مُستمداً من تلقائه لِدُرَرٍ تُلفظ، وغُرَرٍ تُحفَظ؛ ولو نال وَفْدُهُ من إرجائي نيل البَرِم، وسالَ نقدُه بأَرجائي سيلَ العَرِم...)(٣)

فقد ذكر الكاتب العديد من الحوادث التاريخية في رسائله ومن هذه الحوادث (سيل العرم) الذي أرسله الله عز وجل على قوم سبأ فأبدل حالهم من النعيم إلى الشقاء وقد ذُكرت قصتهم

(١) ينظر :الفونسو المحارب ودوره في حركة الاسترداد الاسبانية :أنسام غضبان عبود ع٢٣.
(٢) البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي: تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ،٤ /٥٣-٥٤.
* ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري وهو عالم نحوي وشاعر مفلق من أهالي الأندلس.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٣١٧

في القران الكريم ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (١)

فقد كان السبئيون يعيشون في منطقة مشهورة بجمالها فغرقت المنطقة بعد انهيار السد، فالكاتب يستحضر هذا الحدث التاريخي الذي دوّنه التاريخ، وما خلّفه هذا السيل من دمار وخراب لسبأ وهي التي كانت تتميز بجمالها وترفها فهو يستحضر هذا الحدث في رسالته ليُزينها ويُغني دلالتها بذكر شيء من الحوادث التاريخية ، وكلُّ هذا دليل ساطع على عمق مرجعيات ابن أبي الخصال، إذ امتدت إلى التي عاشت في الماضي السحيق، فضلاً عن أحداث التاريخ البارزة على شاكلة ذكره ما حصل لسبأ -بعد إعراضهم- وجحدهم بنعم الله سبحانه وتعالى فأتاهم سيل العرم وأنهى كلَّ شيء.

"فكانت الثقافة التاريخية الأرض الخِصْبة التي يلتمس شعراء عصري الطوائف والمرابطين منها صورهم ورؤاهم الشعرية وما تمنحه لخيالهم الشعري من خصوبة ونماء ووجدوا عن طريقها ما يمنحهم القدرة على التواصل بين الماضي والحاضر وما راموا إليه من أهداف في التعبير عن تجاربهم الذاتية والشعورية، وإقناع المتلقي بها وجدانياً وفكرياً"(٢).

وأذ تأملنا قوله في رسالةٍ له وجهها لذي الوزارتين الأجلّ أبي عبد الله بن الخصال في الزرزور وفيها وافر من الإشارات الخفية الى حوادث وقعت في التاريخ الإسلامي، وقد ساقها الكاتب بفنيّة منقطعة النظير، إذ سلك إليها سبل الكناية والإلماح تارة ، والتعبير بالتصريح عنها تارة أخرى.

ب- الشخصيات التاريخية:

إنّ التاريخ العربي حافل بالعديد من الشخصيات التاريخية والأعلام الذين سجل التاريخ مواقفهم وكان لهذه الشخصيات التاريخية الأثر الكبير والواضح في بناء تاريخ الأمة،

(١) سبأ: (١٥-١٦)
(٢) المرجعيات الثقافية الموروثة: ٣٥٣

فيستحضر الكاتب ابن أبي الخصال الشخصيات التاريخية في رسائله فيعمد إلى استحضارها عن طريق الإشارة الخاطفة أو ذكر الموقف الذي تميزت به تلك الشخصية فوظف عدداً كثيراً من الشخصيات التاريخية القديمة والشخصيات الأندلسية ومنها شخصيات تميزت بالشجاعة والكرم والقوة والحكمة وما إلى ذلك.

وفي رسالة إلى صديق له قال فيها: (...وأَما العذر بالْمَهابةِ، والتوقّف عند الْمُفاتحة بعد الدُّعاء إليها والإهابة؛ فذلك مَذهبُ الإحسان، وبِرٌّ ... وإلا فقد مَضَى مثَلُ النُّعمان وما أَشَبه هذا المخوفَ بالأَمان...)[١].

فقد استحضر ابن أبي الخصال شخصية النعمان بن المنذر ملك الحيرة وكان النابغة الذبياني شاعره وقد أهدر النعمان دمه، وكان بين الشاعر النابغة الذبياني والنعمان بن المنذر علاقة طيبة ولكن حدث أنْ غَضِب النعمان من النابغة الذبياني فكتب النابغة في الاعتذار إليه قائلاً:

أُنبئــت أن أبــا قــابوس أوعــدني ولإقــرار علــى زأرٍ مــن الأســدِ
مهــلاً فــداء لــك الأقــوام كلِّهــم ومــا أثمِّــر مــن مــالٍ ومــن ولــدِ[٢]

ذكر ابن أبي الخصال الشخصية التاريخية النعمان بن المنذر وما له من أثر في نفس النابغة الذبياني الذي يخشى غضبه، وهذا الاستدعاء التاريخي للشخصية التاريخية قد نوع في المفاصل الفنية للرسالة وعزز مضامينها ، فللكاتب قدرة رائعة على توظيف مرجعياته النصية المختلفة في المقطع النثري الواحد، وهذا دليل على عمق ثقافته، وقيل إنّ النابغة قد وصف زوجة أبي قابوس أو قيل لانّ النابغة هجا النعمان فاهدر دمه فهرب خوفاً من النعمان إلى بلاط الغساسنة فزاد ذلك غضب النعمان فأخذ بعدها يعتذر إلى النعمان ويطلب رضاه ولكن النعمان لن يرضى عنه [٣].

(١) رسائل ابن أبي الخصال ١٦٣-١٦٤
(٢) ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٣، ١٩٩٦م،١٥-١٦.
(٣) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم، بيروت، ط٤، ١٧٨/١-١٧٩

فيُحسن الكاتب المواءمة بين موقفه في رسالة إلى صديقه، وموقف الشاعر من النعمان بن المنذر والذي ذهب يلتمس العفو ويكثر من الاعتذار.

وفي الرسالة نفسها يذكر الكاتب عدداً من الشخصيات التاريخية منها ما قاله :(...ومن أَشْعَب إلى الطَّمَع، ومن حارثة إلى زيد، ومن عبد اللهِ إلى دُريد، ومن حُضير الكتَائب إلى أُسيد، ومن أهل البَطالةِ إلى حُمَيد ...)[١] .

لقد ذكر الكاتب ابن أبي الخصال عدداً من الشخصيات في رسائله فهو يعود بين الحين والأخر ليستدعي شخصية ويوظفها في رسالته، وهذه الشخصية بما تحمله من قصه أو خبر تاريخي يثري دلالة الرسالة ويمنحها بعداً تأثيرياً وجمالياً فضلاً عنما يضفيه هذا الاستدعاء التاريخي للرسالة من تشويق، وحث المتلقي على البحث في تاريخه، للتعرف على الأمور التي عجز عن فهمها الّا بالرجوع إلى التاريخ العريق، إذ استدعى في هذا المقطع النثري عدداً من الشخصيات التراثية منها:

اشعب بن جُبير ت(١٥٤هـ): هو شخصية تاريخية من العصر العباسي عُرف بشدة طمعه والكاتب يذكر هذه الصفة في رسالته من أشعب إلى الطمع " وكان من اهل المدينة وكان صاحب نوادر"[٢] ويذكر شخصية أخرى في قوله (ومن حارثه إلى زيد) وهو حارثة بن شراحيل او شرحيل بن كعب بن عبد العُزى بن يزيد[٣] والد الصحابي زيد بن حارثة

وذكر ايضاً (عبد الله إلى دريد) وعبد الله أخو دريد بن الصمة، أما أخوه عبد الله فقد قتله غطفان حيث أشتهر دُريد بشعره في الصبر على النوائب وقال دريد يرثي أخاه عبد الله:

أَرَثَّ جَديدُ الحَبْلِ مِنَ أمّ مَعْبَدِ بعَاقبةٍ وَأخْلفَتْ كُلّ مَوْعِدِ

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٦٤- ١٦٥

(٢) سيرة اعلام النبلاء، تصنيف الامام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي: تحقيق: شعيب الارناؤوط وبشر معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة ،٢٠/١.

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لابي منصور الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط١، ١٢٧

وَبَانَـتْ ولـم أَحمَـدْ إلَيْـكَ جِوارَهـا وَلَـمْ تَـرْجُ فينـا رِدَّةَ اليـوم أَو غَـدِ[١]

وأم معبد هي زوجته طلقها لانها عاتبته على شِدّة جزعه على أخيه.

وذكر ايضاً (ومن حُضير الكتائب إلى أُسيد) وأُسيد بـن حضـير بـن سماك بـن عتيك بـن نافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل وكان حُضير شريفاً مطاعاً يُدعى حضير الكتائـب وكان رئيس الأوس يوم بعاث، فقتل يومئذ قبل الهجرة بست سنين وخلَّفه ابنـه أُسيد وكـان مـن الأشراف وذوي الرأي وقد حضر العقبة الثانية [٢]

فقد ذكر الكاتب عدداً من الشخصيات التاريخية والتي أستند النص إليها، فكان لها حضور لافت في النص، وأثرت الجانـب الـدلالي لـه " فالمرجعيـة الثقافيـة التاريخيـة شـكَّلت أداة فنيـة أعتمد الشاعر فيها على التداخل بين الشخصية التاريخيـة محلّ الاسـتدعاء الثقـافي والابـداعي التي امتلكت حظا في ذاكرة المبدع ومتلقيه التاريخية، وبين الشخصـية المعاصـرة التـي حـاول الشاعر التعبير عنهـا بتجربتـه الشـعرية ورسـم ابعادهـا المثاليـة عـن طريـق توظيـف مناشـطه الثقافية "[٣]

وفي رسالة جوابية إلى صديق له قال فيها: (... ومن الْمُصـاب لا مـن الصَّـواب رَدُّ لـواءِ بني لُؤي إلى صُؤاب ...)[٤]

وهنا يستحضر الكاتب شخصية (صؤاب) وهو عبد حبشي لبني طلحة [٥] وذُكر أنه حمـل رايـة قـريش فـي أحـد بعـد مصـرع حملتـه مـن بنـي عبـد الـدار وهـم أصـحاب الرايـة لقـريش [٦]فالكاتب يستذكر ما حدث ويذكر ذلك العبد الحبشي، فهو -إذن- لا يملُّ العـودة إلـى التـاريخ وإرفاد رسائله بشي منه.

(١) ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف ،٢٠٠٩ ، ٥٧.
(٢) سيراعلام النبلاء :١/ ٣٣٩-٣٤٠
(٣) المرجعيات الثقافية الموروثة: ٣٨٥
(٤) رسائل ابن أبي الخصال:١٨٠
(٥) الخصال: ٥٦٠
(٦) ذكره المحقق محمد رضوان الداية ١٨٠ الهامش رقم (٢٩)

وفي الرسالة نفسها قال (...أَما السُّؤدد فأُسيلمُ بن الأَحنف ، وأما النُّبل فإبراهيم بنُ العَباس ،والعباس بن الأحنف وإن له في العِصاميَّ لَقلائدَ مُعجزات ، وبدائع آيات أَربت على بدائع ابن العَبَّاس في ابن الزيات ومن تجسّم من ذلك الشُّعاع وتركَّب من تلك الطّبـاع فَكلُّ المحسنين لـه من الْخوَلِ الأتباع ...)[١]

ذكر الكاتب في هذا المقطع النثري عدداً من الشخصيات منها أسيلم بـن الأحنـف الأسـدي وكان ذا بيانٍ وأدبٍ وعقلٍ وجاهٍ وقال فيه الشاعر:

ألا أُيهَّا الركْبُ المُحبّون هَلْ لكُمْ ... بسّـيد أهلِ الشـام تحبوا وترجعوا
أسـُيلم ذاكـُم لاخفـاء مكانـهُ ... لِعـينٍ تُرجّـى أو لأذن تسَـمعُ [٢]

وذكر شخصية أخرى وهو إبراهيم بن العباس الصولي وهو أحد الكتاب في العراق، وذكر العباس بن الأحنف وهو شاعر عباسي ،وذكر أيضاً ابراهيم بن العباس الصولي وكان كاتباً بليغاً فصيحاً وكان صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيات قبل وزارته فلما وليها وابراهيم على الاهواز يلي معونتها وخراجها أيام الواثق تنكّر له وآذاه واعتقله وعزّله، ووجّه اليه بأبي الجهم وأمره بكشفه، فتحامل عليه تحاملاً ثقيلاً فكتب إليه إبراهيم يستعطفه بنثره ونظمه...حتى عُدّ في شكاية الإخوان وذكر تغيرهم، أشعَر الناس [٣]

وذكر ابن الزيات وهو محمد بن عبد الملك، كان كاتباً وشاعراً وكان وزيراً للمعتصم والواثق

فقد تداخلت في رسالة ابن أبي الخصال العديد من الشخصيات التي دوَّن التاريخُ أخبارها وأثَّر هذا التداخل النصي بين الرسالة والمرجعية التاريخية في قوة التأثير للمتلقي وإغناء الرسالة بالجانب التاريخي الثري.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ١٨١-١٨٢
(٢) البيان والتبيين: ١/ ٣٩٦
(٣) الطرائف الأدبية، عبد القاهر الجرجاني، صححه عبد العزيز الميمني، مطبعة الجنة، القاهرة، ١٩٣٧م، ١١٨-١٢١.

وقال في رسالة إلى صديق (...فلْيسخُ بنفسكَ ماسَخا بنفسِ الدُّوليّ فَما تأسى هناك على زمَنٍ ناضرٍ، ولا ثَمَّ شيءٌ يَخاف عليه لذعه نَاظر...) (١)

يستحضر الكاتب في رسالته شخصية ابي الأسود الدؤلي مُستذكراً قوله:

أبَـــتْ نَفْســـي لـــه إلّا وصِـــالاً وتـــأبى نفســـهُ إلّا انقطاعـــا(٢)

فالكاتب يُعاتب صديقه الذي جفاه وهو يحاول وصاله، ولكن الصديق مشغول ومنقطع عن صديقه الوفي وذكر هنا الدؤلي ويستدعي هذه الشخصية، وخصوصاً في قوله الذي يعاتب فيه صديقاً له يقّربه الدؤلي ويوُّده، ولكن صديقه يزداد ابتعاداً فالكاتب شبَّه حاله بحال الدؤلي فكلاهما يسعى للتواصل مع الصديق لكن الصديق، يميل إلى الانقطاع ويزداد بعداً وهذا الاستحضار للشخصية والموقف مناسب لسياق الرسالة.

وقال ايضاً (...ولئن تَمَمْتَ على ما أراه لَيذُمَّنَّ عند الصَّباح سُراه، ولَيرينّ من الفزعِ ما رآه صاحب أبي بصير ...)(٣)

وأبو بُصير هو عُتبه بن أسيد ابن جارية، وهو مسلم وكان ممن حُبس بمكة فوفد على النبي (ص) في المدينة المنورة فأرسلت قريش رجلين يردان أبا بصير وهما رجل من بني عامر بن لؤي ،ومعه مولى له، فقال رسول الله (ص) يا أبا بصير، إننا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت؛ ولا يصلح لنا في ديننا الغَدرْ، وأن الله حامل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فذهب معهما ،فلما وصلا إلى ذي الخليفة وثب أبو بصير على أحدهما فقتله وهرب الآخر منهما إلى النبي فقال الرسول إن هذا رجل قد رأى فزعاً (٤) فالكاتب يعي علاقة النص التاريخي بالنص النثري ويدرجه بتناسق تام مما جعل النص التاريخي يتفاعل داخل النص، لإ نتاج دلالة رائعة تكشف عن تمكن مبدعها وتميزّه.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال١٧٣-١٧٤

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي: ١٤٩ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٢٦

(٤) تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، لابي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠ ه) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر ، ٢/ ٦٣٨- ٦٣٩

وقال يرثي الوزير أبا محمد بن مالك *:

[من الكامل]

عنْـدي عَليـكَ وأَنـتَ مجـداً مالـكٌ حـُزْنٌ يَهـُدُّ مُتممـَّاُ أَدنـاهُ (١)

فالكاتب ذكر مالكاً ومتمماً ابني نويرة بن ثَعلبة بن يَرْبُوع، وكان مالك فارسَاً قد قتله خالد بن الوليد في الردّة فأكثر مُتمم بن نويرة من رثائه والبكاء عليه ،حتى عندما يُذكر الرثاء يذكر معه متمم بن نويرة ،والخنساء وقد جعلهما ابن سلام في كتاب الطبقات ضمن طبقة المراثي، نظراً لما تميزا به من كثرة الرثاء والوجد، فالكاتب يرثي في هذه الرسالة الوزير أبا محمد بن مالك ويعبّر عن الحزن الذي أصابه في فقده، مشبهاً حاله بحال متمم بن نويرة الذي حزن حزناً شديداً على أخيه مالك، والحادثة مشهورة ذكرها الأدباء وضمنها الشعراء في أشعارهم واختار الكاتب مُتمم بن نويرة، لأنه عرف بشدة حزنه ووجده على أخيه أولاً ،ولأنّ اسم أخيه مالك كأسم أبي محمد بن مالك ،وهذا الاستدعاء للشخصيات فنّي يَنِمّ عن ثقافة واسعة مكنت الأديب من هذا الاستحضار للشخصيات التاريخية بما يناسب موضوع الرسالة وغرضها، فقد أحسن تشبيه حزنه على صديقه الوفي بحزن متمم بن نويرة على أخيه مالك ،ولهذا الحضور في الشخصيات مكانة متميزة في الرسالة إذ أغنت الجانبين الدلالي والجمالي ويعكس العلاقة الطيبة التي تجمع الكاتب بصديقه المتوفى ، وهذا التداخل النصي يكشف عن صلة الكاتب بمرجعيته التاريخية واستدعائه للشخصيات التراثية في نصوصه بما يثري ويعزز المقصد الذي أراد الكاتب الأفصاح عنه.

وقال في رسالة إلى أحد الأصدقاء (...فَما كان عندي لحُرمتها انتهاك، ولا أَخذتُها إلّا بما أخذ السَّيف سِماك ذللّتُ عِندك صَعْبَها، وأَربتُ بالْمُواساة والتوجّع شَعْبَها..)(٢)

* أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري الغرناطي قال عنه لسان الدين الخطيب "كان أحد وزراء الأندلس لم يُرَ بعد مثله في الأندلس ذاكراً الفقه والحديث، بارعاً في الادب شاعراً مجيداً حلو الكتابة والشعر " قلائد العقيان: للفتح بن خاقان ،١٦٩.

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٢٧١

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٢٤

وسماك هو أبو دجانه سماك بن أوس بن خرشه بن كوْذان بن عبد ودّ بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعده[١] وكان أبو دجانة شجاعاً ونقل الطبري خبر السيف في أكثر من رواية وإحداها عن هشام بن عروة عن أبيه قال :قال الزبير: عرَض رسول الله (ص)سيفاً في يده يوم أحد فقال من يأخذ هذا السيف بحقه؟ قال فقمت فقلت انا يا رسول الله قال فأعرض عني، ثم قال من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقمت فقلت أنا يا رسول الله فأعرض عنّي، فقال من يأخذ هذا السيف بحقه؟ قال: فقام أبو دُجانة سماك بن خرشه فقال أنا آخذه بحقه وما حقه؟ قال ألّا تقتل به مسلماً ولا تفرّ به عن كافر، قال فدفعه إليه [٢] فالكاتب استحضر شخصية سماك والحادثة التي اشتهر بها وجاء بها في نص الرسالة لإثراء دلالتها ،فالتاريخ هو السِجلُّ الحافل بالأحداث والشخصيات التاريخية ،وهو الذي ينقل الإرث الإنساني عبر الأجيال، لذا مثل مصدراً مهماً لا يمكن لأيّ أديبٍ تجاهِلُه ،وغض الطرف عنه ، فالكاتب يشبّه موقفه بسماك ويذكر كيف أخذ سماك السيف بقوة وإقدام وشجاعة ،وهذا التداخل بين النصوص منح الرسالة فعالية وإنتاجية عالية وقدرة على التأثير، فضلاً عمّا ضمنه للرسالة من تفوق وإبداع في طريقة نظمها ومناسبة الحدث التاريخي للموقف الذي يتحدث عنه الكاتب .

وقال في إحدى رسائله الزرزورية :

(...لا جرم أنّه ينثر الحِكَم، ويُناجيكم بلسان أكثم ويتَتَّبعُ الشّعر عَرُوضاً عَرُوضاً...) [٣]

وذكر الكاتب في رسالة أخرى وهي الرسالة التي اعتذر فيها عن المقامة القرطبية قال: (...ويُعرب عن الشّجر جَناهُ وتفضح الشّناشنَ أخزم وتنسُب الحكَمُ أَكثَم وما هُو بِمُطَاعٍ ثَمّ أَمين ...)[٤]

فقد ذكر الكاتب أكثم بن صيفي الذي توفي سنة (٩ ق. هـ) وهو اكثم بن رباح بن الحارث بن صيفي من أهل الحجاز، وأحد حكماء العرب وقيل كان الملوك والرؤساء يزورونه لسماع

(١) جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ٣٣٦.
(٢) تاريخ الطبري :٢/ ٥١٠.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال:٣٣٨
(٤) المصدر نفسه: ٣٦٠

حكمه ونصائحه ويُضرب به المثل بأصالة الرأي والحكمة [١] وقد ذكره الكاتب في رسائله اكثر من مرة، فاستحضر شخصية أكثم قائلاً:(ويناجيكم بلسان أكثم) لما عرف عنه من الحكمة والبلاغة ورجاحة الرأي والعقل .

وقال في إحدى رسائله (...وأُعَرّج على الصِّهريْن: أبي عمرو ذي النُّورين، وأبي السِّبطين الحسَن والحُسَين وأَندب الشَّهيدَ المقْتُول، وأُعزّي الزّهراءَ البَتُول ...) [٢]

ذكر الكاتب في رسالته المنوّه بها أعلاه عدداً من الشخصيات التي استلهمها من موروثه التاريخي الإسلامي، فقد ذكر أهل البيت عليهم السلام نادباً سيد الشهداء معزيّا الزهراء (عليها السلام) بعد أن ذكر أبا عمرو ذي النورين وقصد به الخليفة عثمان بن عفان وذكر أيضاً أبا السبطين وهو الأمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)،والسبطان هما الحسن والحسين (عليهما السلام) وتلحظ الباحثة استعمال الكاتب للفظة (نادباً) لمواءمتها المقام ،لأن الندب ذو صلة شديدة بما حصل للسبط الشهيد (عليه السلام)في واقعة كربلاء ذات الطابع الفريد، فكان اختياره للمفردة دقيقاً ،الأمر الذي يؤمي الى براعته وعلو كعبه في فنه النثري.

ويرى أحد الدارسين أنَّ نصَّ الكاتب هذا قد صدر عن إحساس شيعي مأساوي، متخذاً من مأساة الحسين (عليه السلام) رمزاً لآلامه[٣] .

ففي الاستحضار للشخصيات الإسلامية وايّ شخصيات؟ إنهم آل الرسول ، يكسب الرسالة دلالة روحية عالية مناسبة لموضوعها الذي صيغت فيه والتي يعبر الكاتب فيها عن شوقه لزيارة النبي (صلى الله عليه واله وسلم).

وقال في مقامة عارض بها الحريري (...بل سيَثُوبُ إن ثابَ جُذيمة ويؤوب إذا آب خُزيمة وأقبلَ يَتهافت ويشْمَخ ويأنَف...)[٤]

---

(١) الأعلام:٢/و٦تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ ، ٢٠١

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٦٨

(٣) ينظر: فنون النثر الأندلسي في ظل المرابطين، د.مصطفى الزباخ ، دار الكتب والوثائق الوطنية، بغداد، ١٩٨٧م، ٢٠١ .

(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٤٢-٤٤٣

وعاد ابن أبي الخصال إلى استدعاء شخصية جذيمة الأبرش وهي أحدى الشخصيات التأريخية المشهورة ،واستحضر شخصية أخرى وهي (خزيمة بن نهد) وهي شخصية يُضرب بها المثل بالذهاب وعدم العودة، فالكاتب يمتلك ثقافة تاريخية واسعة ،إذ يستحضر العديد من الشخصيات التاريخية في رسم صورته الفنية ومنها شخصية (جذيمة الأبرش) هذه الشخصية التاريخية المعروفة، فهو يشير إلى الحوادث التاريخية والشخصيات إشارات ولا يوردها سرداً ،بل يذكرها بلمحة موجزة ، يستدعي الشخصية التاريخية ويربطها في سياق رسالته بما يكشف عن تفنن الكاتب وإبداعه في النظم ومعرفته الواسعة بالتاريخ العربي

وغنّي عن البيان أنّ ابن أبي الخصال -وبفضل سعة اطلاعه على مرجعياته النصية- استطاع أن يثري خطابه بما توافر لديه من معجم غزير وقدرةٍ على صوغ أساليب ترفع كفاية نصه النثري وترصّن بناءه الفني ،مثلما رأينا في هذه الرسائل الفنية ،فالمرجعيات النصّية التي أثرت في أسُلوب ابن أبي الخصال ومضامينه، كثيرة وعميقة وها نحن بصدد المرجعيات النصية التاريخية المتمثلة باستحضار الشخصيات في النص الأدبي والتي أرى لها بالغ الأثر في توافر الخطاب النثري على الأبداع، وقد أعرب علي عشري زايد عن هذا الأمر قائلاً" وإن توظيف الشخصية التراثية في الأدب يعني استخداماً تعبيرياً يمثل بعداً من أبعاد تجربة الشاعر المعاصر، أي أنها تصبح وسيلة تعبير وإيحاء في يد الشاعر يعبّر من خلالها أو يعبر بها عن رؤياه المعاصرة"[١].

وقال ابن أبي الخصال في تعزية بقينة: (...ولا يحفزُ الأضيافَ عنها تِرْحال، لو حلَّتْها رَقاشِ لنَسيتْ عَمْراً وطَوْقَه، أَو لَمَّتْ بِها الخَنْساءَ لسَلتْ صَخراً وشوْقَه ، أو شاهَدَها مُتَمِّم لما أَبَّنَ هالكاً ولانَدَبَ مالكاً...)[٢]

فقد ذكر عدداً من الشخصيات منها رقاش ابنة مالك أخت جذيمة الأبرش وعمراً هو ابنها الذي أخلف خاله جذيمة في الملك.

(١) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: ١٣.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٨٤-٤٨٥

أما الخنساء فهي تُماضر بنت عمرو بن الشَّريد الشاعرة المعروفة والتي عرفت بكثرة شعر الرثاء على أخيها صخر، فَعُدَّتْ من أكثر شعراء الرثاء كثرةً وإجادةً كانت تقول الشعر في زمن النابغة الذبياني، فقال لها النابغة : والله لولا أن أبا بصير أنشدني لقلت إنكّ أشعر الجن والإنس[١] وذكر أيضاً متمم بن نويرة ورثاءه لأخيه مالك، فقد عُرف متمم بن نويرة والخنساء بكثرة شعر الرثاء على أخويهما، فالكاتب يذكر لو حلت هذه الديار رقاش لنست ابنها عمراً وطوقه ولو حلتها الخنساء لسلت عن شوقها لأخيها، ولو شاهدها متمم ،لما ندب أخاه مالكاً ،وهذا الاستحضار للشخصيات التاريخية القديمة يكشف عن ثقافة موسوعية ويضرب المثل في عمرو وطوقه يضرب مثلاً للشيء يكبر عنه الأنسان، وأصله أن عمرو بن عدي كان له طوق يلبسه في صغره فاستهوته الجن دهراً إلى أن وجده مالك وعقيل نديما جُذيمة ، فاتيا به خاله جذيمة فألبسته أمه وطوقته بالطوق الذي كان يلبسه في صغره فلما رأى جذيمة ابن اخته عمراً والطوق في عنقه قال: شب عمر عن الطوق فسرى مثلاً[٢] .

ومن الشخصيات التي ذكرها الكاتب ابن أبي الخصال في رسائله شخصية الخليفة العباسي المعتصم ويشير إلى فتح عمورية ويعارض ابن أبي الخصال هذه القصيدة في مخمسته إلى الأمير أبي أسحاق.

إنّ ما اطلعت عليه الباحثة من مواهب لهذا الأديب وقدرة على ربط المضامين التراثية بما امتدت له ذاكرته الوسيعة، تومئ إلى مصداق ما ذكره معاصروه ومن جاء بعده من تقريظ له ولأدبه فليس غريباً أن يُنعت ب (رئيس كتاب الاندلس).

وإن معرفته بالتاريخ وحوادثه مما شهد له بها علماء الأندلس المعاصرون له أو اللاحقون لعصره، حتى قال عنه صاحب جذوة المقتبس من تاريخ علماء الأندلس ما نصّه "كان من أهل

(١) الشعر والشعراء:١/٣٣١-٣٣٢
(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٥٠٦

المعارف الجمة والإتقان للحديث والمعرفة برجاله، والتقييد لغريبه، واتقان ضبطه والمعرفة بالعربية واللغة والأدب والنسب والتاريخ مُقدَّماً في ذلك كلِّه"(١)

ج- الثقافة النسبية والقبلية

كان المجتمع الجاهلي يتكون من قبائل عدة ،والقبيلة تضمُّ عدداً من الناس الذين ينتمون إلى أصل واحد وتجمعهم أهداف ومبادئ مشتركة.

وكان لكل قبيلة فرسانها الذين يمثلون حصنها المنيع الذي يردُّ عنها هجمات الأعداء نظراً لما كان يتمتع به المجتمع الجاهلي من عصبية قبلية، وطلب الثأر وكثرة الحروب والقتال، وربما كان هذا الأمر يعود لطبيعة بيئتهم الصحراوية القاسية .

وقد قسمت القبائل العربية على فئات:

١-القبائل العربية البائدة وتسمى البائدة بمعنى الهالكة ؛ لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلها (٢) وهؤلاء القبائل أمثال عاد وثمود وجديس وجرهم والعمالقة قد عاشت هذه القبائل منذ القدم في الجزيرة العربية، بيد أنّ هناك من يرى أنهّا من بابل وهو موطنها الأصلي ومنه اتجهت إلى الجزيرة العربية بعد أنْ أجلاها بنو حام عنه وقد اندثرت هذه الأقوام بفعل عوامل طبيعية قاسية (٣).

٢- العرب العاربة: وهي بمعنى الراسخة في العروبة أو المبتدعة لها بما كانت أول أجيالها (٤) وقال صاحب اللسان " العرب العاربة هم الخُلَّص وأخذ لفظة فأكد به كقولك ليل لائل تقول عرب عاربة وعرباء صرحاء"(٥)

---

(١) جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ابو عبد الله بن فتوح الحميدي، تحقيق: ابراهيم الايباري، دار الكتاب العربي، القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ٢٥٧.

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ، محمد سهيل طقوس، دار النفائس ، ٢٠٠٩م، ٢٩.

(٣) ينظر: أيام العرب واثرها في الشعر الجاهلي ، منذر الحيدري ، دار الشؤون الاجتماعي ،ط٢، ١٩٨٦م، ٢١-٢٤.

(٤) تاريخ العرب قبل الاسلام: ٢٩

(٥) لسان العرب: ٥٨٦/١

وهم الذين انحدروا من نسل قحطان او يقطان وهؤلاء هم القحطانية من حمير وأهل اليمن وفروعها [١]

٣-العرب المستعربة: قال عنهم القلقشندي " والمستعربة هم الداخلون في العربية بعد العجمة، أخذ من استفعل بمعنى الصيرورة نحو استنوق الجمل أي صار بمعنى الناقة ...واستحجر الطين أي صار بمعنى الحجر ليبسه "[٢] وهم يُنسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم والذي صاهر قبيلة جرهم احدى القبائل القحطانية التي نزلت مكة مهاجرة من اليمن فتعلم بنوه العربية من هذه القبيلة بعد أن كان لسان أبيهم العبرانية أو السريالية "[٣]

وهكذا تفرعت القبائل العربية وانتشرت وأصبحت القبيلة الواحدة تتفرع إلى قبائل عدة، وقد تمتع ابن أبي الخصال بمعرفة واسعة بأنساب العرب وقبائلها فذكر عدداً غير قليل من القبائل العربية في رسائله ما يكشف عن سعة ثقافة هذا الأديب ومعرفته في القبائل والنسب.

فكان للنسب شأن كبير عند العرب، ولايزال العربي يقيم له وزناً...فنسب الإنسان هو الذي يحميه ، وهو الذي يحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه [٤]

ففي رسالته إلى صديق له قال فيها: (...والمظلومِ إلى الإعداء ؛بل من بني قَيْلَة إلى الفَزعِ ...)[٥] فذكر الكاتب بنو قيلة وهم الأنصار من ولد ثعلبة بن عمر بن مُزيقاء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة الأوس والخزرج ،أمهما قيلة بنت الأرْقَم بن عمرو بن جَفنة بن عمر مُزيقياءَ[٦] فالكاتب يستحضر ثقافته التاريخية في رسائله ليغنيها بمختلف الدلالات ويستحضر الحديث النبوي الشريف الذي قاله الرسول (ص) في الأنصار

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام :٣٠

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، للقلقشندي، تحقيق إبراهيم الايباري، القاهره،١٩٥٩م، ١١-١٢

(٣) المصدر نفسه:٩٠

(٤) يُنظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،جواد علي ،دار العلم للملايين ،ط١،بيروت،١٩٧١م،٤٦٦/١

(٥) رسائل ابن أبي الخصال: ١٦٤

(٦) جمهرة انساب العرب: ٣٣٢

((أنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع)) والكاتب ذكر اسمهم بني قيلة نسبة إلى أمهّم قيلة بنت الأرقم ، فهو يستدعي ثقافته النسبية ويوظّفها في رسائله ليُثريها ويُغنيها بذكر لأنساب والقبائل العربية القديمة، والتي كانت وما تزال فخراً لابنائها فهم يتفاخرون بقبائلهم ويعدون عن حبهم لهذه القبائل وشدة تعلقهم بها ويذكرون قوتها وانتصاراتها والكاتب الأندلسي ذكر جملةً من القبائل العربية التي حفلت بها الذاكرة التاريخية وسجلت بطولاتها وأخبارها.

وقال (...وأستعيرُ لسانَهُ، وأَحيدُ عن عدنان وأميل إلى عُدثَان تقرّباً منهُ ومن حَسّان ...)[١]

وهو عدثان بن عبد الله بن زهران بن كعب [٢]

وقال صاحب جمهرة الأنساب "ولد عدنان: معد بن عدنان وعك بن عدنان وقيل اسمه الحارث وقيل اسمه الديث فولدُ معد بن عدنان نزار واياد وقصي أبناء معد"[٣]

فالكاتب يستحضر النسب ويستذكر القبائل العربية الأصيلة والتي طالما أفتخر العربي بتلك القبائل وذكرها في شعره، فالكثير من الشعراء خلّدوا أسماء قبائلهم بالتاريخ وذكروا أهم الحوادث والأيام التي خاضتها تلك القبائل ،وكذلك فعل الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال إذ حشَّد في رسائله فذكر العديد من القبائل العربية ودلّ هذا الاستحضار للنسب والقبائل ،على عمق الصلة بين الكاتب والتاريخ العربي الذي أتاح له تعبيراً بهذه الدقة والجمال، فيأتي بهذا الاستحضار ويلقيه في فضاء الرسالة بما يحقق جمالية عالية وتناسقاً جميلاً كشف عن موهبة فنيّة وإبداع عالٍ في إعادة توظيف التراث العربي، وبثَّ فيه الروح من جديد مما يغني الرسالة بكنوز التراث وهو أيضاً تذكير بالتراث الماضي والكنوز العربية.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٠٧-٤٠٨

(٢) جمهرة انساب العرب: ٣٧٩

(٣)المصدر نفسه :٩

فالمرجعية التاريخية بنمطها الثقافي والنسبي، قدمت خدماتها من أجل بناء النص الشعري الاندلسي وتكوينه الدلالي إذ استطاع الكاتب تطويع تلك الثقافة النسبية والقبلية بما حملته من معانٍ ومضامين في استيعاب تجربته الشعورية(١)

وذكر في إحدى قصائده الأنساب العربية فقد جاء فيها: **[من الطويل]**

عظيمٌ بسلمى بنت سَوْدِ بنِ أَسْلمٍ لكل قُضاعِيٍّ كريمٍ مُعصّبِ
ومدركةٌ ذو اليُمْن والنُّجْح عامرٌ وخيرُ مُسمًّى في العُلا ومُلَقَّب
...ولم يَكْفِه حتّى أَعانَتْ معانَةٌ بكلّ عَتيقٍ جُرْهُمي مُهذَّبِ(٢)

وسؤد بن أسلم من قضاعة بن مالك بن الحمير وقال قوم منهم الكلبي: هو قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير (٣) .

ومدركة قيل كان اسمه عامراً واسم طابخة عمراً قيل: وزعموا انهما كانا في إبل لهما يرعيانها، فاقتنصا صيداً ، فقعدوا عليه يطبخانه ، وعدت عادية على ابلهما فقال عامر لعمرو أتدرك الابل أو تطبخ هذا الصيد؟ فقال عمرو بل أطبخ الصيد، فلحق عامر الأبل فجاء بها، فلما راحا على أبيهما فحدّثاه بشأنهما قال لعامر أنت مُدركة وقال لعمر وأنت طابخة (٤)

وذكر قبيلةً من القبائل العربية الا وهي جُرهم بقوله:

ولم يَكْفِه حتّى أَعانَتْ معانَةٌ بكلّ عَتيقٍ جُرْهُمي مُهذَّبِ

فجُرهم أحدى القبائل العربية المعروفة، فالكاتب وبفضل سعة اطلاعه، يوظِّف التراث بطريقة متناسقة جميلة تكشف عن مرجعية نصّية رصينة، وإبداع فنّي رائع أتاح له ومكّنه من هذه الصياغة الفنية والتماسك الفنّي في الرسالة، فهو يذكر في الرسالة الواحدة أكثر من قبيلة

(١) ينظر: المرجعيات الثقافية الموروثة :٤٤٦
(٢) رسائل ابن ابي لخصال:٦٣٤- ٦٣٥
(٣) جمهرة انساب العرب: ٤٤٠
(٤) المصدرنفسه: ٢٦٦-٢٦٧

مستذكراً إيّاها في حدثٍ وقع لها، واسعفته ذاكرته في توظيف هذه المواقف التراثية والقبائل العربية في سياق رسالته بما يناسبها ويُثريها.

وقال في رسالة إلى أبي بكر بن العربي:

(... فأُحيل على الكتبِ والآثار، وأَجيء بالزُّبير بن بَكّار، واستظهرُ بأبي الْمُنذر أيَّ استظهار ؛ وأُعلمُه غير َشكّ، أني من غافق بن الشّاهد بن عَكّ...)(١)

ذكر الكاتب في رسالته أسماء عددٍ من النسابة العرب ومنهم:

الزبير بن بكار * وذكر عالماً اخر وهو أبو المنذر بن هشام ** وذكر الكاتب انه ينتمي إلى غافق بن الشاهد بن عك في قوله(أني من غافق بن الشّاهد بن عَكّ وهم بنو غافق بن الشاهد بن علقمة بن علكٍ ؛ ودارهم بالأندلس معروفة بأسمهم في الجوف شمال قرطبة (٢)

فقد ذكر الكاتب أسماء النسابة ونسبه الذي أراد ان يثبت حجته ويقويها بقوله (ولعلّه يذودُ عنها ويقول : حَنّ قدْحٌ ليسَ مِنها)فيذكر بأسماء النسابة والعودة اليهم ويذكر نسبه وأنه من غافق بن عك انما أراد في ذكر الأنساب والنسابين الاحتجاج على الشخص الذي يشك أو يحاول أن يشك في نسب الكاتب وهذا خير دليل على اعتزاز الكاتب بنسبه وافتخاره به.

وقد أغنى هذا الاستحضار للأنساب الرسالة َبالتنوع والقيمة التاريخية، فالكاتب يذكر في رسالته الأنساب والنسابين العرب المشهورين بل وجعل موضوعه النسب والنسابين محوراً ومرتكزاً للرسالة آقام عليها النص النثري واسنده إليها.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٨٦-١٨٧

* وهو أبو عبد الله بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام. وهو أحد أعلام العرب كان نسابة وحافظاً واخبارياً قال عنه الخطيب " كان الزبير ثقة عالماً بالنسب وأخبار المتقدمين " طبقات النسابين، بكر أبو زيد، دار الرشيد للنشر والتوزيع، السعودية - الرياض، ١٩٧٨م ، ٦٤-٦٥.

** هو ابو المنذر بن هشام بن محمد السائب بن بشير الكلبي الكوفي قال عنه أحمد بن حنبل " إنما كان صاحب سمر ونسب وما ظننت أحداً يحدث عنه" وكان أبوه نسابة أيضاً وعالماً بالتفسير والأخبار وأيام العرب، طبقات النسابين :٣٢و٤٧و٤٨.

(٢) جمهرة انساب العرب: ٣٢٨

ولا يمكن ذلك الّا لرجلٍ ذي ثقافة نسبية وتاريخية واسعة ساعدته في التحكم بصياغة هذا الموروث بالشكل الماثل أمامنا بالرسالة.

وذكر عدداً من القبائل في رسالته إلى ابن عبدون (...وساجَلْتُ ربيعةَ في دَغْفَلِها وأبي بَصيرها ، وتميماً في هَمّامها وجريرها وهُذيلاً في أبي ذُؤيبها وأبي كَبيرها ، وخزاعةَ في دِعبلها وكُثيِّرها ، وحَكماً في أَبي نُواسها ، وحَنيفةَ في عَبّاسها، وتغلبَ في كُلثومها ووأَبي فِراسها ،ومُزَيْنَة في مَعْنِها وإياسها ، وإياداً في قسّها وأبي دُوادِها ، وحرباً في عُتبتها وزيادها، وعقيلاً في تَوْبَتها وبشّارها ،وأسداً في عمرها وعِرارها ،ويشكر في حارِثها وسُيدها وهَوزِانَ في تَميمها ودُريدها ، وطيئاً في طِرمّاحها وزَيْدِها...)[1]

في هذا المقطع القصير في رسالته، نقع على هذا الاستدعاء المكثف للقبائل والشخصيات، مركّزاً على الشخصيات التي طبقت شهرتها الآفاق ، إذ ذكر قبيلة ربيعة وهي من القبائل العربية التي تنتمي إلى ربيعة بن نزار بن مَعَدَّ بن عدنان[2] وذكر شخصية دغفل والاعشى وهما ينتميان إلى ربيعة ودغفل بن حنظلة بن زيد بن شيبان بن ذهل الشيباني ومن أمثال العرب فلان أنسب من دغفل فهو نسابة عربي مشهور[3]

وذكر الاعشى، هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف ويكنى أبا بصير وهو شاعر من الشعراء الفحول[4] ويذكر الكاتب قبيلة أخرى وهم تميم بن مُرّ بن أُدّ وهم قاعدةٌ من أكبر قواعد العرب[5] ولهم ينسب الشاعران الفرزدق وجرير .

والفرزدق هو همّام بن غالب بن صَعْصَعَة من مُجاشع بن دارم من بني تميم وكان الفرزدق من فرع قوي من بني تميم وأمه لبنة بنت قرظة.

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٣٢٠-٣٢١
(٢) جمهرة أنساب العرب :٢٩٢
(٣) طبقات النسابين :١٦
(٤) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام ،٤١
(٥) المصدرنفسه: ٢٠٧

أمّا جرير بن عطية بن الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كُليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وهو يلتقي بالفرزدق في جدهما الأعلى تميم وأمه هي أم قيس بنت معبد نشأ فقيراً في قومه يرعى الأبل(١) وذكر قبيلة هُذيل ومن بطونها المشهورة بنو لحيان بن هُذيل وهذيل بن مدركة ولد سعد ولحيان فولد لحيان بن هذيل ، طابخة ودابغة ولهم عدد فمن ولد دابغة :المحبق واسمه صخر بن عبيد بن الحارث وابناه سلمة وسنان وولد سعد بن هذيل خريب من ولده أبو كبير الهذلي الشاعر وأبو ذؤيب الهذلي وهو خويلد بن خالد بن مُحرث من بني سعد بن هُذيل وهو شاعر مخضرم (٢) وذكره ابن سلام :وهو خويلد بن خالد بن مُحرث بن زبيد بم مخزم بن صاهلة بن كاهل بن الحرث بن تميم بن سعد بن هذيل وجعله من شعراء الطبقة الثالثة (٣).

وذكر خزاعة وينسبون إلى خزاعة وهو كعب بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء (٤) وذكر من هذه القبيلة من الشخصيات منهم علي بن دعبل الخزاعي الشاعر العربي المعروف.

وذكر كُثير عزَّة وهو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر من بني خزاعة بن ربيعة من الأزد بن قحطان (٥)

وذكر حنيفة: وهم من ولد لحيم بن صعب حنيفة والأوقص ولُهيماً وأمهم صفية بنت كاهل بن أسد بن خُزيمة فولد حنيفة الدول وعدياً وعامراً وزيد مناه وحجراً وأمهم بنت

(١) تاريخ الأدب العربي :٦٦٤
(٢) تاريخ الادب العربي: ٢٩٠
(٣) طبقات فحول الشعراء :٥٣
(٤) عجالة المبتدي وفضالة المنتهى في النسب ، أبو بكر بن محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني، تحقيق: عبد الله كنون ، ط٢،الهيئة العامة لشؤن المطابع، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ٥٤.
(٥) تاريخ الادب العربي: ٦١٧

الحارث بن الدول بن صباح بن غزة وعبد عمرو وأمه مارية بنت الجعيد بن صبرة بن الديل بن قصي بن عبد القيس [١].

أما العباس بن الأحنف: وهو عباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة بن فرات بن كلدة بن خُزيم بن شهاب بن سالم بن حبَّه بن كليب بن عبد الله بن عدي وهو شاعر [٢]

وذكر الكاتب قبيلة تغلب بن وائل ومن ولده غنما والأوس وعمران وأمهم الوجيهة بنت عمران بن عمرو بن عامر بن غسان ... ومن عتاب بن سعد بن زهير بن جثم بن بكر بن عمرو بن غنم بن تغلب ولد عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب الشاعر [٣] وهو عمرو بن كلثوم بن عتاب بن سعد بن زهير بن جثم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب[٤]

وذكر الشاعر والفارس المشهور أبا فراس الحمداني.

وقد ارتكزت هذه الرسائل على ثقافة الكاتب القبلية والنسبية التي مثلت جزءاً، مهماً من مرجعية الكاتب النصية، إذ ذكر العديد من القبائل وشخصياتها، وهذا الاستدعاء المكثف بهذه الكيفية ينمّ عن ثقافة واسعة تمتع بها الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال ،وهذا التكوين المعرفي اللافت مكن الأديب الأندلسي من استثماره في فنه النثري فبدت رسائله بمستوىً عالٍ من الإبداع والفوز بالمجد الأدبي .

وذكر ايضاً قبيلة مُزينة: فقد ولد عمر بن أدّ عثمان وأوس وأمهما مُزينة بنت كلب بن برة فنسب ولدها اليها ودارهم بالأندلس [٥] وقد ذكر من شخصيات هذه القبيلة معن بن أوس بن

(١) جمهرة النسب: هشام بن محمد السائب، تحقيق، ناجي حسن، ١٩٨٦، ط١، مكتبة النهضة العربية:٥٣٨.
(٢) المصدر نفسه: ٥٤٤
(٣) جمهرة النسب ،٥٦٦ وما قبلها
(٤) طبقات فحول لشعراء: ٦٤
(٥) جمهرة انساب العرب: ٢٠١

نصر بن زياد بن أسحم بن ربيعة بن عداد بن ثعلبة بن ذؤيب الشاعر[١] وذكر إياس بن معاوية أحد قضاة البصرة [٢] .

وقبيلة إياد وهي إحدى القبائل العربية التي ينسب إليها العرب، ويعودون إلى معد بن عدنان الذي ولد إياداً ونزاراً وقنص[٣] وذكر من هذه القبيلة قس بن ساعده وأبا دُواد الإيادي .

قبيلة يشكر وهو يشكر بن بكر بن وائل بن قاسط [٤] بن هذيل بن أقصى بن جديلة بن اسد بن ربيعة [٥]ومن الشخصيات التي اشتهرت في هذه القبيلة، الحارث بن حلّزة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله بن مالك بن عبد سعد بن كنانه بن يشكر بن بكر بن وائل [٦]

وسؤيد بن أبي كاهل من بني حارثه بن حنبل بن مالك بن عبد سعد بن ذبيان بن كنانة بن يشكر [٧] وذكر العديد من القبائل الأخرى مثل حرب وعقيل وأسد وطي وهوزان إلى غير ذلك من القبائل والانساب التي يطول بنا المقام لو وقفنا عندها جميعا.

وغني عن البيان أن الكاتب -وهو يستدعي -القبائل وأعلامها ووقائعها -لم يأت ذكره لها ذكراً وثائقياً تاريخياً بل استطاع الكاتب وبفضل سعة اطلاعه على الموروث التاريخي والنسبي خاصة، وبفضل تمرّسه في فنّ الكتابة أن يقدم لوحة نثرية متماسكة تماسكاً نصياً ناطقاً بقدرة ناظمها وقوة إبداعه.

---

(١) جمهرة النسب :٢٩١
(٢) رسائل ابن أبي الخصال :٣٢١ هامش رقم ١٤٤
(٣) جمهرة انساب العرب:٩
(٤) المصدر نفسه: ٣٠٨
(٥) عجالة المبتدي وفضالة المنتهي :١٢٧
(٦) طبقات فحول الشعراء: ٦٤ وجمهرة انساب العرب :٣٠٩
(٧) جمهرة انساب العرب: ٣٠٩وطبقات فحول الشعراء:٦٥

د-الأماكن التراثية:

لقد حفل الأدب العربي بشكل عام والنثر بشكل خاص بذكر بعض الأماكن التراثية القديمة والتي يعتزُّ بها الأديب العربي ، نظراً لما تمتع به من حبّ لمدنه والأماكن التي حلّوا بها وشيدوها.

وابن أبي الخصال كغيره من الأدباء العرب، لقيت الأماكن التراثية في رسائله مكاناً رحباً فذكر عدداً كثيراً من هذه المدن والأماكن في رسائله.

فقد برع الأمراء العرب والاندلسيون بتشييد القصور وتزيينها بالنقوش والرسوم فأخذ الشعراء والأدباء يصفون هذه القصور المشيدة، فضلاً عن تمجيد الشعراء وذكرهم للأماكن التي اقترن ذكرها بحوادث دينية مثل جبل أُحد وبئر معونة وغيرها.

وقد ذكر الكاتب عدداً كثيراً من الأماكن التراثية مثل المدن القديمة بابل وبغداد والمدينة ومكة وغيرها فضلاً عن ذكره أسماء الجبال القديمة مثل شامة وطفيل وأحد وثهلان وغيرها.

فضلاً عن ذكره القصور مثل قصر الخورنق، والأماكن التراثية القديمة التي حفلت بها رسائله، فللمكان دلالة خاصة في نفس الشاعر العربي لاسيما ما عُرف على العرب من تعلّقهم بأماكنهم وأوطانهم والحنين إليها ،إذ جرى على ألسنةِ الشعراء منذ القدم ذكر الأماكن التراثية التي عاشوا بها أو التي تعيش بها محبوباتهم، لذا رحنا نطالع في دواوين الشعراء ورسائل الكتاب أماكن كثيرة فضلاً عن تخليد هذه الأماكن في كتب التاريخ والسير وغيرها.

ومن الرسائل التي ذكر فيها الكاتب أماكن تراثية مخمسته في أبي أسحاق التي قال فيها[البسيط]:

طودٌ نَمَتْهُ إلى العَلْيَاءِ أَطْوادُ كيف استقلّت بهِ في النَّعشِ أَعوادُ
كأنهم حَمَلُوا رَضْوى وما كادُوا والعدلُ والبرُّ والتقوى لهُ زادُ
فَحَلَّ من ذروةِ الفِردوسِ في رُتَبِ[1]

(١) رسائل ابن ابي الخصل:٤٤

فقد استحضر الكاتب جبل (رضوى)وهو جبل ضخم من جبال تهامة، وقيل إنّه جبلّ منبثق ذو شعاب وأودية ورأسه من ينابيع الماء كخضرة البقل [١]

قال السُكوني: أملى علىَّ أبو الأشعث عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الكندي قال: أملى علي عَرّامُ بن أصبع السلمي أسماء جبال تهامة وسُكانها، وما فيها من القرى والمياه وما نبت من الأشجار فأولهما رضوى وهي ينبع على يوم ومن المدينة على سبع مراحل ميامنه طريق المدينة، ومياسره طريق البر لمن كان مصعداً إلى مكة، وعلى ليلتين من البحر قال بشر:

لو يُوزنون كيالاً أو معابرة قالوا بَرْضَوى ولم يفضُلهمُ أحدُ
القائمون إذا ما الجهل قيم به والثاقبون إذا ما معشر خَمدوا [٢]

فقد شبّه ابن أبي الخصال يوسف بن تاشفين بجبل رضوى ،وذلك ليدل على عظمة المرثي وعظيم حزن الكاتب عليه والأثر الذي تركه بعد فراقه وكأن الأرض أُقتُلِعَ منها أحد الجبال العظام فأختل توازنها فشبه يوسف بن تاشفين بالجبل من حيث القوة والشموخ وجاء هذا التشبيه جميلاً جداً اكسب المخمسة جمالاً إضافياً رائعاً وقد كَثُر ذكر الجبل في الشعر الأندلسي وذلك لشدة تعلق الأديب الأندلسي بطبيعة بلاده الصامتة او الحية إذ كتب ابن خفاجة قصيدتين في الجبل منها بائيته المشهورة وغالباً ما يشبه الشاعر الأنسان بالجبل ويضفي على الجبل الصفات الإنسانية (التجسيد) ولكن الأديب ابن أبي الخصال عكس الصورة فقد شبه رضوى بالأمير فكأنما رحيل الأمير سقوط رضوى واختلت الأرض وهذه مبالغة في التشبيه لها حضور في التطبيقات البلاغية وتسمى التشبيه المقلوب وله نظائره في اشعار العباسيين، وذكر رضوى في رساله أخرى[٣] .

وفي رسالة إلى الوزير ابي بكر بن عبد العزيز قال فيها:

(١) الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي)، محمد عبد المنعم الحميري ، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان ، ٤٦٩.
(٢) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت ،٢/ ٦٥٥-٦٥٦.
(٣) رسالة في رثاء أبي الحسن بن دري : ٢٨٥

(...كتبتُ -أدامَ اللهُ عِزَّهُ- والنَّشاطُ أُمنيةٌ تُزْوى، أَو طَلَلٌ بِحزْوى ؛ والقلب صادٍ ، والذُّكرة التّي تَجذِبُ الضُّلوع بِمرصاد...)[١]

وحُزوى هو موضع في ديار بني تميم وقد كثر ذكره في الشعر العربي القديم ومنها ما قاله ذو الرمة:

ألمت وحُزوى عُجمة الرمل دُونها وخفانُ دوني سيلهُ فالخورنق

وقال ايضاً:

عفا الزرقُ من أكناف مية فالوحلُ فأجبال حُزوى فالقرينة فالحبل[٢]

وقال صاحب معجم البلدان حُزوى موضع في ديار بني تميم وقال الأزهري جبل من جبال الدهناء مررت به [٣] فقد أورد الكاتب مكاناً تراثياً وهو (حُزوى) وقد كثر ذكر هذا المكان في الشعر العربي فجاء بالأماكن التراثية العالقة في ذهن العربي الأصيل وبثها في رسائله ما يضفي على الرسالة العراقة، والأصالة، وإدامة الصلة بين الحاضر والماضي عن طريق استذكاره للأماكن التراثية التي كثر ذكرها في التاريخ .

إذن "اصبح المكان جُزءاً مهماً من العمل الأدبي يرفده بدلالات معينة تثري رموزه المكانية ... ويولِّد حب الارتباط بالأرض والتاريخ والانتماء إليهما "[٤]

وقال في رسالة إلى صديق منعته من زيارته موانع (...وَليتَني قَدْ أَجزتُ نحوكُمْ حبل المعرّف في أَمثالِها...)[٥].

والحبل على لفظ واحد من الحبال، قال الأخفش: هو جبل عرفة وأنشد:

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٥١

(٢) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع٢/ ٤٤٣

(٣) معجم البلدان، شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت الحموي، دار صادر بيروت، ٢ /٢٥٥

(٤) المضامين التراثية والدينية في الشعر الاندلسي في القرن الرابع الهجري (رسالة ماجستير) :٩٧

(٥) رسائل ابن أبي الخصال: ١٣٢

فراحَ بها من ذي المجاز عشـــية يُبادر أُولى الســـابقات إلى الحبل[١]

فالكاتب يستحضر بعض الأماكن التراثية ومنها الأماكن التي ارتبطت بالأيمان مثل عرفة والذي له مكانة خاصة عند المسلمين فيعود الكاتب ليستقي من التراث اقتباساً مكانياً رائعاً وينقله إلى سياقه لينمي داخل السياق ويعطي دلالة رائعة وجميلة تُكسب النص غنىً في دلالته وتضفي عليه مزيداً من الجمالية والتأثير في نفس المتلقي.

واستحضر بعض الأماكن في رسالته التي فضل فيها الصابي على بديع الزمان الهمذاني (...ونُحاسنُ بالهشيم خُضرة الربيع، ونضرة الرَّوض الْمَريع، ونُباهي رَصْفَ الْخَورنق بنسْجِ الْخدرْنَق ...)[٢]

والخَوَرْنق بفتح أوله وثانيه وراء مهملة ساكنة قصر النعمان بن المنذر بظهر الحيرة

وهذا القصر كَثُرَ ذكره في الشعر العربي فقال علي بن محمد الكوفي:

كم وقفة لك بالخورنق ما توازى بالمواقف
بين الغدير إلى السدير إلى ديارات الأساقف

قال عدي بن زيد :

وتفكرْ ربْ الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تَفَكَّرُ
تسرّهُ حاله وكثرة ما يملك والبحر معرض والسريرُ[٣]

وكان سبب بناء الخورنق أن يزدجرد بن سابور كان لا يبقى له ولد فسأل عن منزل مرئ صحيح من الأدواء فذكر له ظهر الحيرة فدفع ابنه بهرام جُور إلى النعمان وأمر ببناء الخورنق مسكناً له[٤] وغيره من الاشعار الكثيرة التي قيلت في هذا الصرح الشامخ، فالكاتب

(١) معجم ما استعجم :٤٢١/٢
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ١٥٣
(٣) معجم البلدان ٢/ ٤٠٢-٤٠٣
(٤) ينظر: الروض المعطار :٢٢٥ومعجم البلدان ٤٠٠/٢

قد أحسن كلّ إحسان في هذا التعبير الرائع المتمثل في قوله(ونُباهي رَصْفَ الْخَورنق بنسْجِ الْخدرْنَق) إذ أحسن اختيار التعبير المناسب لرسالته التي فضل فيها الصابي فذكر الخورنق ذلك الصرح الشامخ المعروف وكأنه هو الصابي في شموخه وحُسن أسلوبه وأدبه .

وقال في إحدى رسائله: (...والبأسُ الذي تُدْفعُ بهِ البأساء، ولا يدرأ عن شَرفٍ دراء، ما أَقامَ ثَبيرٌ وحِرَاء..)(١)

وثبير هو أعلى جبال مكة وأعظمها وهو الذي عناه امرؤ القيس:

كأن ثُبيراً في أفانين ودقة كبير أناس في بجادٍ مزمَّل

وثبير وحراء ما بين الشرق والشمال من مكة (٢) وثبير جبل في مكة وهي أربعة أثبرة بالحجاز والأول الذي بمكة وكانوا يقولون في الجاهلية: أشرف ثَبير، كيما نُغيرْ

والثاني: ثيبر غلينا بالغين المعجمة والثالث: ثبير الأعرَج والرابع: ثُبير الأحدَب(٣)

وكثر ذكر هذين المكانين في الأدب العربي، فالعربي يكثر من ذكر الجبال في أدبه لما يرى فيها من ثبات وقوة وشموخ، فإذا أراد التشبيه بالقوة والعلو والشموخ ذكر الجبال واذا أراد الرثاء ذكر أنّ المرثي كأنه أحد الجبال، وقد زال بزواله وهكذا شأن العربي والجبل فهو يقف امامه متعجباً ومُعجباً بقوته وثباته وانه الثابت والأنسان الزائل لذي لا حيلة بيده.

وقال ايضاً (...والمنيَّةُ غِمارُها تُخَاضُ، والشَّدائدُ صِعَابُها تُراضُ؛ فكم عَلى بئْرِ مَعُونَةَ مِنْ طاوي الْحَشي صَوَّام، وأَشعثَ بآيات رَبِّهِ قَوَّام؛ لا تَحفِزُهُ زَهرةُ الحياةِ الدُّنيا...)(٤)

فقد استحضر الكاتب(بئر معونة) وهو أحد الأماكن التراثية المشهورة وبئر مَعُونه بالنون؛ قال ابن إسحاق بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سُليم ، وقال كلا البلدين

(١) رسائل ابن أبي الخصال:١٨٨
(٢) الروض المعطار:١٤٩
(٣) معجم ما استعجم:٣٣٥/١-٣٣٦
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ١٩٦

منها قريب إلا أنها إلى حرة بني سليم أقرب ؛ وقيل بئر معونة بين جبال يُقال لها أبلس في طريق المصعد من المدينة إلى مكة وهي لبني سُليم ؛ وقال أبو عبيدة بئر معونة ماء لبني عامر بن صَعصعة ؛ وقال الوافدي بئر معونة في أرض بني سليم وأرض بني كلاب [١] فالكاتب لا يقتصر على ذكر المدن والجبال التراثية بل يذكر (الآبار) والتي كان لها الفضل الأول في توظيف القبائل العربية ونشوء الحضارات ،إذ أحتلت الآبار مكانة عالية في نفوسِ العرب.

وكلّ الشواهد التي ورد ذكرها تدلّ دلالة قاطعة على عمق ثقافة الأديب ابن أبي الخصال وسعة اطلاعه على الموروث بأشكاله كافة، إذ نهل من هذه المرجعيات النصّية بما توافر لديه من مدوناتها التي وصلت إلى بلاد الأندلس منذ وقت مبكر ، فضلاً عما وهب من سمات خاصة اجتمعت في شخصه وتفرقت عند غيرها على شاكلة قوة الفطنة وبعد الهمة والذكاء وقوة الحافظة وصلابة العقيدة في الدفاع عن الوطن ،الأمر الذي جعله يسخّر انتاجه الأدبي في سبيل إدامة زخم المعارك الجهادية، إذ أتاح له موقعه -بوصفه كاتباً سلطانياً- إن يوجه طاقاته البيانية للإعلام الحربي طوال مدة عمله لدى زعماء المرابطين الذين قامت دولتهم على الجهاد في سبيل الله وردّ الجيوش الإسبانية والمتحالفين معهم من الصليبيين الذين تكالبوا على ديار المسلمين مستغلين تفّرق المسلمين وضعف حكامهم ونشوب الخلافات بين أمرائهم .

وقال في رسالة أخرى (...والله يُمتعني وجَميعَ أوليائه بِسُؤدَدِهِ وعَلائه، ويقذفُ في نَجْرانَ بأعدائه ليَذُوقوا العَيشَ الأحَرَّ والخِزْيَ الأَمرَّ ، بحولِ اللهِ تعالى)[٢] .

ونَجْران بفتح أوله وسكون ثانيه من بلاد اليمن بنجران بن زيد سبأ بن يعرب بن قحطان

وقال صاحب معجم ما استعجم هي مدينة بالحجاز من شق اليمن سميت بنجران بن زيد ابن يعرب وهو أول من نزلها وقال وأطيب البلاد نجران من الحجاز وصنعاء من اليمن ودمشق من الشام والري من خراسان [٣].

(١) معجم البلدان ٣٠٢/٢
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٢٥٩
(٣) معجم ما استعجم ١٢٩٨/٤-١٢٩٩

وهذه الثقافة التراثية تبدو واضحةً جليةً لقارئ رسائل ابن أبي الخصال، فهو يتحكم في توظيف العبارات والأماكن التراثية بما يناسب رسالته ويدع مالا يناسبها وهذا مما يشدُّ القارئ للرسالة ويدفعُ عنه السأمَ والملَلَ، إذ نوَّع الكاتب في تشكيل رسالته وسقاها من مختلف الينابيع والمرجعيات المتنوعة مما يُغني القارئ للرسالة ويمده بالصلة بتراثه العربي الأصيل بأسلوب سهل بسيط متناسق مع رسالته عاكساً لمقصد الكاتب .

لقد نوهنا بالمرجعيات النصية لابن أبي الخصال واتساعها فلا غروَ أن يثني عليه غير واحد بما جُبل عليه من تفنن في العلوم، واستبحار في الآداب، ومعاني الحديث والآثار، فقد نقل ابن بشكوال عن ابن الآبار البلنسي قوله" لم يطلق اسم كاتب بالأندلس على رجل مثل محمد بن أبي الخصال"[١] ولعلّ هذا التنويه بـابن أبي الخصال من كاتب كبير ومؤرخ وشاعر هو ابن الآبار، كافٍ للوقوف على سعة اطلاعه وعمق مرجعياته النصَّية .

وقال في رثاء أبي الحسن بن دُري :

ومَاذا عليه والسَّلامةُ حظُّهُ بأَنْ تتخطَّاهُ النَّوائِبُ والمِحَنْ

فَلَيْتَ كريماً يُنعشُ الناسَ خيرُهُ يعمَّرُ فينا عُمْرَ ثهلانَ أَو حَضنْ[٢]

ثهلان بالفتح وهو أحد الجبال العالية، وثهلان جبل من بلاد نمير طوله في الأرض مسيرة ليلتين وثَهْلان بفتح أوله وإسكان ثانيه على فَعْلان وهو جبل باليمن ولضخم هذا الجبل تضرب به العرب المثل في الثقل فيقول أثقل من ثَهْلان، لعظمه في صدورهم [٣] أما حضن فهو جبل بأعلى نجد وهو أول حدود نجد وفي المثل (انجد من رأى حضناً) أي من شاهد هذا الجبل فقد صار في أرض نجد، وجاء في معجم البلدان حضن جبل مشرف على السيء إلى جانب ديار سليم وهو أشهر جبال نجد [٤].

(١) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم :٨٧

(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٢٨٣

(٣) معجم ما استعجم ١/ ٣٤٧

(٤) معجم البلدان ٢/٢٧١-٢٧٢

فالكاتب يتمنى لو أنَّ الكرام لا يرحلون ويعمرون في قومهم كما يعمر الجبل في الأرض وهذا تعبير لطيف وصورة جميلة، فابن أبي الخصال يُكثر من ذكر الجبال في رثائه ويعبر عن المرثي كأنه أحد الجبال التي زالت من الأرض تارة، أو يتمنى أن المرثي لا يدركه الموت ويأخذه فيتمنى أن يُعمر كما تُعمر الجبال في الأرض فهو يريد بقاء المرثي كما تبقى الجبال ولاتزول فيذكر لهذا التعبير جبلين من أعظم الجبال وهما ثهلان وحضن .

وقال (...حاسَنْتُ بها الْحَمامَ في نضرةِ أَجيَادها، والأَيام في خُضرةِ أَعيادها ؛ والمباني في إيوانها ، والمغاني في شِعْب بَوَّانها...)[١]

قال صاحب معجم البلدان بَوّانُ بالفتح وتشديد الواو وألف ونون في ثلاثة مواضع؛ أشهرها وأسيرها ذكراً شعب بوان بأرض فارس بن أرجان ، وهو أحد متنزهات الدنيا ؛ ويقال انهم من ولد بوان بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح وبوان هو الذي أنسب اليه شعب بوان من أرض فارس وهو أحد المواضع المشتهرة بالحسن وكثرة الأشجار وتدفق الماء وكثرة أنواع الأطيار قال الشاعر :

فشعب بوّان فوادي الراهب فثَمَّ تُلقى أرحُلُ النجائبِ

وقال بعضهم جِنانُ الدنيا أربعة مواضع: غوطة دمشق وصُعد سمرقند وشعب بوان ونهر الأبله [٢] وقد وصفها المتنبي فقال:

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمانِ

فقد استحضر الكاتب هذا المكان التراثي الجميل والذي ذكره المتنبي ووصفه في قصيدة كاملة له.

وقال في رسالة (...وإن تغلغلَ القولُ إلى طابة، وتَشوّقتُ أنبَاءها الْمُستَطابة ..)[٣]

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٢٠
(٢) معجم البلدان :٥٠٢/١-٥٠٣
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٤٨

وطابة اسم من أسماء المدينة النبوية[١] فالكاتب في هذه الرسالة التي حملها إلى قاصد البيت الحرام والمدينة المنورة ،فقد عبّر في رسالته عن شوقه للمدينة المنورة ولزيارة النبي الاكرم (ص) فاستحضر أسماً تراثياً من أسماء المدينة المنورة وهو (طابة) هذه المدينة ذات القدسية العالية التي شرفها النبي بقدومه اليها فصارت هذا المكان من قدسية الرسول الاكرم(ص) فالمسلمون يتشوقون لزيارة النبي الأكرم ويذكرون المدينة ويقصدونها فلها أثر عميق في نفوسهم ولاسيما نفس الكاتب وهو العالم الفقيه .

وقال في مقامة عارض فيها الحريري (...قال: فبينا نحن بخُناصرة إذْ نشأتْ بَحريّة فَجعلت تسحُّ ولا تَشحّ...)[٢]

وخُناصرة بضم أوله والصاد المهملة موضع بالشام ويقال ايضاً خناصر بلا تاء قالوا فيها: **[من الطويل]**

وعارف أصـــراماً بإير وأحبحت له حاجة بالجزع جزع خناصـــرِ

وقد أضافها عدي بن الرقاع إلى الأحص، والأحص من ديار بني تغلب **[من الكامل]**

وإذا الربيــع تَتَابَعــتْ أنــواؤه وسَــقَى خُناصِــرةَ الأحــصّ فَجادهــا
نــزا الوليــدُ بهــا فكــان لأهلهــا غيثــاً أغــاث أنيســها وبلَادهــا[٣]

وقال صاحب معجم البلدان هي بلدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية وقيل بناها خُناصرة بن عمرو بن الحارث بن كعب بن عمرو بن عوف بن كنانة ملك الشام[٤]

وقد تغنّى الشعراء بذكر هذه المدينة كثيراً، لما لها من أثر في نفوسهم، وجمال تميزت به هذه المدينة التراثية، وذكر الكاتب في رسائله العديد من الأماكن التراثية التي دار ذكرها في التاريخ العربي ومنها الكرخ، وذكر العديد من الجبال مثل شامة وطفيل وأذخر وجليل وجبل

(١) الروض المعطار: ٣٨٠
(٢) رسائل ابن أبي الخصال:٤٢١
(٣) معجم ما استعجم :٥١١/٢والروض المعطار:٢٢٢
(٤) معجم البلدان:٣٩٠/٢

شمام *فشغلت الأماكن التراثية إذن في رسائل الكاتب مساحةً واسعة في رسائله، وهذا الاستدعاء للمرجعية التاريخية المتمثلة بالأماكن التراثية ، يكشف عن صلة الأديب بهذه الأماكن التي كَثر ذكرها في التاريخ والأدب العربي .

* ذكر الكرخ في رسالة :٤٣٦ والجبال في رسالة ٤٧٥ و٩٨

المبحـــث الثـــاني

المرجعيات الأسطورية والاعتقادية

شغلت الأساطير مكانه واسعة في الفكر الإنساني فهي قد تفسر لنا الظواهر غير المنطقية التي يمتزج فيها الواقع بالخيال؛ لأنها تتجاوز تصورات العقل(١)

الأسطورة في اللغة: جاء في معجم مقاييس اللغة (سطر)السين والطاء والراء أصلٌ يدلُ على اصطفافِ الشيء، مثل كتاب والشجر، وكل شيء أصطفَّ.

فأما الأساطير فكأنها أشياء كُتبت من الباطل فصار ذلك أسما لها، مخصوصاً بها يقال: سَطّر فلانُ علينا تسطيراً إذا جاء بالأباطيل (٢)

أمّا الأسطورة في لسان العرب من الجذرِ اللغوي (س - ط - ر) وقد جاء (سطر: السطرُ والسَطر الصف من الكتاب والشجر والنخل والجمع من كلّ ذلك أسطرُ وأسطار وأساطير.

ويُقال سطر فلان فلاناً بالسيف سطراً إذا قطعه به وكأنه سطر مسطور منه قيل لسيف القصاب ساطور (٣)

اما الأسطورة في الاصطلاح:

فقد اختلف الباحثون في تعريفهم للأسطورة وكل منهم رآها من زاوية مختلفة، فمنهم من يرى الأسطورة إنتاجاً صبيانياً وخيالاً مشوشاً ووهماً، وفريق يراها بأنها تمثل واحدةً من أعمق منجزات الروح الإنسانية، وأنها نتاج لقدرة خيالية موهوبة وسليمة، اما الفريق الثالث فيراها روايات خرافية تطورت من أجل تفسير طبيعة الكون ومصير الأنسان بينما يراها

---

(١) مضمون الاسطورة في الفكر العربي، خليل أحمد خليل ، دار لطليعة للطباعة والنشر ،ط١، بيروت،١٩٧٣م، ٨.

(٢) معجم مقاييس اللغة:٣ /٧٢-٧٣

(٣) لسان العرب، :١٨٢/٧

فريق رابع أنهّا ذخائر من دوافع ذات طابع أولي بدائي وتكشفُ وتنيرُ العقلَ الباطن الجماعي للإنسان [١]

وعرفها آخرون انها " الحكاية عن كائنات تتجاوز تطورات العقل الموضوعي"[٢]

فقد وظف الأدباء العرب الأساطير العربية المختلفة في نتاجاتهم الأدبية وهي "تجسيدٌ للتوق الإنساني وشكله الخيالي، غير أنَّ وصفها يكتنفه الغموض"[٣]

ولفتت هذه الاساطيرُ انتباه الكاتب ابن أبي الخصال فأخذ يوظّف اسطورة من الأساطير العربية القديمة التي شغلت العربي الا وهي اسطورة العنقاء.

وقد وظف ابن أبي الخصال الأسطورة في رسالة إلى ابي بكر بن العربي قال فيها (... لا جَرمْ إنّي بعدَ أن لثمتُ ثَراها، وقدّسْتُ ورُودَها وسُراها وقَرَيْتُها من التّعظيمِ قِرَاها؛ رُمتُ التَّرفُّع في مِضْمَارِها، والتّطلع في أَنوارها، بل التلفُّع بغبارها ، والتعلّق بأذيالِ آثارها فرأيت شأواً لا يَتعاطاهُ البَرقُ ، وتَبريزاً يسلّم لهُ الغَرب والشّرق ، فقبلت أمر ابن معدي كرب ، وتركتُ العَنقاءَ الْمُغرب ، وله أن يقول :كنتَ تَرقعُ وَهْيَةَ ذلكَ العِثار ، وتنزل عن النّظام إلى النِّثار...)[٤].

فقد استحضر ابن أبي الخصال إحدى الأساطير العربية القديمة وهو طائر العنقاء وهو طائر خُرافي وقال الفراهيدي: والعنقاء طائر لم يبق في إيدي الناس صفتها غير اسمها ويقالُ بل سميت به لبياض في عنقها كالطوق وقال:

اذا ما ابنُ عبد الله خلّى مكانه فقد حلَّقت بالجودِ عنقاء مغربِ[٥]

(١) اساطير العالم القديم، صموئيل نوح كريمر، ترجمة أحمد عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة القاهرة،١٩٧٤ م، ١١.
(٢) مضمون الأسطورة في الفكر العربي: ٨.
(٣) الأسطورة والأدب ، وليم رايتر، ترجمة صبار سعدون السعدون ،مراجعة عدنان داوود الواسطي ،وزارة الثقافة والاعلام ،دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ،١٩٩٢م،.١٥
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ١٨٩
(٥) كتاب العين، لابي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، :١/ ١٦٩ .

وجاء في معجم مقاييس اللغة قال أبو عمر: العنقاء فيما يقال طائر لم يبق الا أسمهُ وسميت العنقاء لبياض كان في عنقها وفي المثل لما لا يوجد (طارت به العنقاء)[1] فقد ذكر الكاتب هذه الأسطورة القديمة ووظفها في رسالته بما يدل على سعة اطلاعٍ وثقافةٍ عالية للكاتب مكنته من هذا الاستحضار وهذه الصياغة فهو يعود إلى الاساطير العربية القديمة ليستقي منها اسطورة طالما جرت على لسان العرب القدماء.

فالكاتب -وبفضل ثقافته الموسوعية -يستحضرُ التراث العربي ويُعيد صياغته بأسلوبه الخاص ،فيمنح رسالته دماً جديداً، فتوظيف الأسطورة جاء ليثري العمل الأدبي ويُضفي عليه رونقاً جديداً، وهذا التوظيف في رسائل ابن أبي الخصال ليغني الرسالة ويمنحها أبعاداً دلالية أخرى فضلاً عن مزجه بين الموروثات المختلفة أمثال وحكم وشعر وغير ذلك مما له الأثر في إثراء الرسالة والارتفاع بها وعكس هذا التوظيف للموروث التاريخي تَفَوُّقَ الكاتب وهضمه للتراث العربي، فهذه العودة إلى استعمال الأسطورة عودة حقيقية إلى المنابع المبكرة للتجربة الإنسانية[2]

وقد حمّل شعراء عصري الطوائف والمرابطين بعضاً من نصوصهم دلالات هذا الطائر المعنوية واستعملوا منها عوالم ساعدتهم في تجسيد تداعياتهم الشعورية والإيحائية

فالعربي كثيراً ما يتعلق بالأساطير، فالأنسان البدائي أخذ يفكر في مظاهر هذا الكون وأخذ ينسب المظاهر الطبيعية إلى الآلهة فجعل للهواء إلهاً والماء الهاً وللشمس إلهةً ...الخ فالأنسان منذ البدء تعلق بالأساطير وأخذ ينشئها ويضيف اليها العجائب ويتناقلها الناس فيما بينهم ، وتعتمد الأسطورة- بشكل كبير- على الخيال الذي اخذ ينسج مختلف الحكايات والمواقف الغريبة.

وهناك الثقافة الاعتقادية التي تمس بعض الجوانب الأسطورية منها ما قاله في رسالته بتزكية رجل والتوصية به (...فإنْ جَرَت السَّوانِحُ كنتُ بَشيراً، وإن تَعرَّضتِ البَوارحُ ناديتهُ

(١) معجم مقايس اللغة: ٤/ ١٥٩

(٢) الأسطورة في الشعر العربي الحديث، أنس داود :١٢

وراءَكَ مُشيراً، وحاشا لمجدِه من هذه الأخيرةِ معَ وَفْدِه وإني لأَقطَعُ على الأولى تَحقيقاً وأُؤمنُ بها تَصديقاً ...)[١].

فقد ارتبط الطير عند العرب منذ القدم بالتطير وهو انهم يقومون على الطيرة ، فإذا رأى الطير يمينه تيمن به، وان رآه يسراه تشاءم منه ،وكانوا يسمونه السانح وجمعه سوانح والبارح الذي يمر من اليسار إلى اليمين [٢] فقد تفاءل العرب والاندلسيون كذلك بالسانح وتشاءموا بالبارح، وكذلك فعل اديبنا فقد استدعى الثقافة الاعتقادية التي سادت ،انه يتفاءل كما تفاءلت العرب بالسوانح "والتطير والتفاؤل لا يمكن فصله عن عالم الغيبيات أو القوة الخفية التي كانت في نظر العرب وراء كلّ مكروه يصيبهم"[٣] فيبدو جلّيا تأثر ابن أبي الخصال بمرجعيته الاعتقادية في رسالته المذكورة آنفاً وان توظيفه لهذا المعتقد العربي القديم يدل على صلته بالاعتقادات العربية ومعرفته بها.

وعدا هذا فقد شغلت الكواكب مكانا فسيحا في الاعتقادات العربية إذ كان بعضهم يعتقد بألوهيتها فضلاً عن معرفتهم، بالنجوم ومواقعها ومسالكها وعرفوا عن طريقها الخصب والجدب [٤] وقد نسج المجتمع العربي العديد من الاعتقادات منها نسبة المطر إلى الكواكب وقد وظَّف ابن أبي الخصال هذا المعتقد العربي القديم في خطبته في الشكر على نزول الغيث:

(...فيا أيُّها الْمُؤمنُ بالْكَواكِب، أُنظر إلى الدِّيَمِ السَّواكِب ، واسبَحْ في لُجَجِ سيولِها ، وارتَعْ في مَجرِّ ذُيولِها،...)[٥]

(١) رسائل ابن أبي الخصال:٣٣١-٣٣٢

(٢) ينظر العقد الفريد:٤٧/٢

(٣) الاسطورة في الشعر العربي قبل الاسلام، أحمد اسماعيل النعيمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ،ط١، ٢٠٠٥م،٢٥٨.

(٤) ينظر: الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الادب الجاهلي ، يحيى الجبوري، مطبعة المعارف بغداد، ١٣٨٨ه-١٩٦٩م،٩٥.

(٥) رسائل ابن أبي الخصال:٢٧٦

فقد أحسن الكاتب استحضار المعتقد العربي في رسالته التي شكر الباري (عزَّ وجلَّ) على نعمة الغيث فالكاتب لم يغفل عما للاعتقادات عند العرب من مكانة عالية فقد قدس العرب الكواكب ونسبوا لها العديد من الاعتقادات وارتبطت عندهم بالعديد من الأساطير.

فقد عاد الكاتب الأندلسي إلى الأساطير العربية والمعتقدات السائدة ووظفها في رسالته بشكل جميل يجعل هذه المعتقدات القديمة تتفاعل مع نصه النثري لتعطي دلالة مختلفة للرسالة فاستحضر هذه المعتقدات من التاريخ العربي الذي حفل بمثل هذه المعتقدات التي سادت وانتشرت في المجتمع العربي.

الخاتمـــــة

الخاتمة

تناولت الدراسة المرجعيات النصّية في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي وأثر هذه المرجعيات في تغذية رسائل هذا الكاتب الأندلسي ولابدّ لي في نهاية الدراسة أن أشير الى أهم النتائج التي توصلت إليها:

- توصلت هذه الدراسة إلى أن المرجعية الدينية هي الأكثر حضوراً في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي، وهذا الحضور يدلُّ على عمق الثقافة الدينية للكاتب الأندلسي، فعمد الكاتب إلى اسناد بعض النصوص اسناداً كلياً على النص القرآني حتى غدا مرتكزاً رئيساً في بعض رسائله.
- عمق ثقافة الكاتب ومعرفته بالحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية المباركة، وقدرته على استحضار الأحاديث النبوية الشريفة، والافادة منها في تماسك نصوصه وقوة تأثيرها في المتلقي .
- نهل أبن أبي الخصال من الأدب العربي (شعره ونثره)، فتأثر بكبار الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين، فأستحضر نصوصهم في رسائله، وقد وصل حدّ التأثر بهؤلاء الشعراء إلى التصريح بأسمائهم وذكرهم في رسائله.
- لم يقتصر تأثر ابن أبي الخصال الأندلسي بالشعر المشرقي بل تأثر بالشعر الأندلسي ،الذي سجل حضوراً في رسائله بما تميز به من ميزات خاصة.
- ضمن الكاتب الأندلسي كثيراً من أبيات الشعر العربي -بعد حلّها-إلى نصٍّ نثري موحٍ وبهذا أضاف الى نصوصه (رسائله) قوةً في الإيحاء وبعداً في التأثير في متلقيه على مرّ الحقب ،وبذا يمكننا أن نرى أصالة فنه ومدى الإفادة من مرجعياته النصيّة التي كانت موضوع بحثنا.
- قد يأخذ الكاتب الاندلسي بعض الفاظ البيت أو عبارة منه فينطلق بها في انموذج نثري ذي فاعلية تعبيرية -موائمة لخطابه هو متخلٍ احياناً- عن السياق التي وردت فيه تلك الألفاظ أو التراكيب المتجزأة من أبياتها وعدا هذا قد يأتي الكاتب بسياق النص المستحضر ليكون له

قوةً وبرهاناً ساطعاً يخدم مضمونه ويبعث فيه الروح والتأثير فيحدث انبهار المتلقي واعجابه.

- تميزت هذه الرسائل بحضور واضح للنصوص الشعرية وهي من نظم الكاتب نفسه، وإن هذه النصوص -على كثرتها – على درجة من البلاغة والتماسك النصي إذ يمكن عدّ ابن أبي الخصال شاعراً مجيداً.
- شغلت الأمثال العربية مساحة واسعة في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي، بوصف الأمثال جزءاً من الموروث الثقافي العربي، وبوصف المثل يتضمن قصة لا تخلو من عبرة يحبذ الكاتب توظيفها في نصوص رسائله.
- يتبع الكاتب في رسائله احياناً توظيفاً للمثل العربي بأسلوب غير مألوف ،إذ يستعمل المثل بخلاف معناه متشبثاً بلفظه ومتخلياً عن مضمونه الأساس .
- لاحظت الباحثة أن ابن أبي الخصال يتحكم ببعض الأمثال عاكساً دلالاتها على وفق ما يتطلبه غرضه من نصه النثري .
- ظهرت في رسائله -عبر استدعائه للأمثال العربية الأصيلة- الخصال التي تتوافر في كل عربي على شاكلة المروءة والإيثار والكرم والشجاعة واغاثة الملهوف .
- لمست الدراسة براعة الكاتب في توظيفه للمرجعية التاريخية وانه استقى من التراث ما مدّ رسالته بالرصانة وعاد الى الحوادث والشخصيات والأماكن التاريخية ويكشف هذا التوظيف للمرجعية التاريخية عن الثقافة الواسعة التي تمتع بها ابن ابي الخصال الأندلسي واطلاع على التراث العربي بوصف الحاضر هو امتداد للماضي ومكمل له.
- أما الأساطير والمعتقدات القديمة فكانت قليلة في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي فقد وردت في رسائله اسطورة العنقاء وما مثلته هذه الأسطورة في الموروث العربي القديم من أهمية بالغة.
- كان لأسلوب الازدواج والتقابل والتجنيس حضور مكثف ولافت في رسائل الكاتب كلّها مقارنة بحضور الاشكال البديعية الأخرى.

المصـــادر والمراجع

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، اعتنى به وعلق عليه مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة -ناشرون، ط١، ١٤٢٩ هـ/٢٠٠٨م.

٢. أثر التراث في الشعر العراقي الحديث، علي حداد، دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والاعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، ط١ ،١٩٨٦م.

٣. أثر القرآن في الشعر العربي الأندلسي منذ الفتح وحتى سقوط الخلافة، محمد شهاب العاني، دار دجلة، ط١ ،٢٠٠٨م.

٤. الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن سعيد السلماني الغرناطي الأندلسي الشهير بلسان الدين بن الخطيب ت (٧٧٦ هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠١م.

٥. الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، د.أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة ،١٩٨٥م.

٦. الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٩٧م.

٧. اساطير العالم القديم، صموئيل نوح كريمر، ترجمة أحمد عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة القاهرة،١٩٧٤م.

٨. أسباب النزول، تصنيف أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري، تأليف أبي القاسم هبة الله بن سلامة أبي النصر، عالم الكتب، بيروت (د.ت).

٩. استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد ، الشركة العامة للنشر والتوزيع، دار الفكر العربي.

١٠. أسرار البلاغة في علم البيان، تأليف الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١ هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م.

١١.الأسطورة في الشعر العربي الحديث، د. أنس داوود، دار الجيل، القاهرة،١٩٧٥م.
١٢.الاسطورة في الشعر العربي قبل الاسلام، أحمد اسماعيل النعيمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٥م.
١٣.الأسطورة والأدب، وليم رايتر، ترجمة صبار سعدون السعدون، مراجعة عدنان داود الواسطي، وزارة الثقافة والاعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،١٩٩٢م.
١٤.الأمثال البغدادية، للشيخ جلال الحنفي، المقدمة بقلم محمد رضا الشبيبي، مطبعة اسعد، بغداد،١٩٦٢م.
١٥.الامثال العربية، أحمد تيمور باشا، ط٢، مطابع دار الكتب العربية، مصر، ١٩٥٦م.
١٦.الامثال العربية القديمة، رودلف زلهايم، ترجمة: رمضان عبد التواب، بيروت
١٧.الامثال العربية القديمة (دراسة في كتابي مجمع الامثال للميداني والمستقصي في أمثال العرب للزمخشري) سلام احمد الدليمي، ط١، ٢٠١٠م.
١٨.الامثال في القرآن الكريم، محمد جابر الفياض، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٨م.
١٩.أميه ابن ابي الصلت حياته وشعره، تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث الأمارات، ط١ ،٢٠٠٩م
٢٠.أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، منذر الحيدري، دار الشؤون الاجتماعي، ط٢، ١٩٨٦م.
٢١.الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن الخطيب القزويني ت (٧٣٩ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
٢٢.بحوث في الرواية الجديدة، ميشال بوثور، ترجمة فريد أنطونيوس -عويدات للطباعة والنشر، بيروت، باريس، ط٣، ١٩٨٦م.
٢٣.بلاغة التقابل في الحديث النبوي الشريف، اسماء سعود الخطاب، سلسلة الرسائل الجامعية، جامعة الموصل، العراق، دار النابغة -الإسكندرية، ط١، ٢٠١٤م.
٢٤.البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي: تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت(د.ط).

٢٥. البيان والتبيين، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت (٢٥٥ هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر.
٢٦. تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠١م.
٢٧. تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، نوري حمودي القيسي وآخران، مطبعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الموصل، ط٣، ١٩٨٩م
٢٨. تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم، بيروت، ط٤.
٢٩. تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، لابي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠ هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٢.
٣٠. تاريخ العرب قبل الاسلام، محمد سهيل طقوس، دار النفائس، ٢٠٠٩م،
٣١. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١ ،١٩٨٥م.
٣٢. التصوير الجمالي في القرآن الكريم، عيد سعد يونس، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦.
٣٣. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٦٨م.
٣٤. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨ هـ)، اعتنى به وعلق عليه خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٣٠ هـ/٢٠٠٩م.
٣٥. تلخيص الخطابة: أبو الوليد بن رشد (ت٥٩٥ هـ)، تحقيق وشرح محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة احياء التراث الإسلامي- القاهرة ،١٣٧٨ هـ/١٩٦٧م.
٣٦. التناص نظرياً وتطبيقياً، احمد الزغبي، مؤسسة عمون للتوزيع والنشر، عمان، الأردن، ط٢، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م.
٣٧. تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول، عبد الرحمن الزبيدي، تصحيح محمد حامد الفقي، المكتبة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٨م.

٣٨. الثقافة الإسلامية، محمد راغب الطباخ، حلب ،١٩٥٠م.
٣٩. ثقافة المتنبي وأثرها في شعره، هدى الارناؤوطي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٧م.
٤٠. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لابي منصور الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٣م.
٤١. الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، لأبي محمد بن عيسى بن سورة ت(٢٩٧ هـ) تحقيق ابراهيم عطوه عوض، مطبعة مصطفى البابي واولاده، ط١ ،١٩٦٢م.
٤٢. الجامع الكبير، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ت (٢٧٩ هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١ ،١٩٩٦م.
٤٣. الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي، يحيى الجبوري، مطبعة المعارف بغداد، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩م.
٤٤. جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، أبو عبد الله بن فتوح الحميدي، تحقيق: ابراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
٤٥. جماليات الأسلوب (الصورة الفنية في الأدب العربي) فايز الداية، دار الفكر المعاصر -بيروت، دمشق، ط٢، ١٩٩٠م.
٤٦. جمهرة الأمثال، تأليف الشيخ أبي هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٤٧. جمهرة النسب، لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت٢٠٤هـ)، رواية السكري عن ابن حبيب، تحقيق: ناجي حسن، مكتبة النهضة العربية -بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
٤٨. جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥.
٤٩. الحديث النبوي (مصطلحه -بلاغته- كتبه)، محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٩٨١م.

٥٠. الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د. كمال عز الدين، دار اقرا، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٥١. الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٩٩م
٥٢. خزانة الأدب وغاية الإرب، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي (ت٨٣٧ هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١ ،١٩٨٧م.
٥٣. الخصال، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق ت (٣٨١ هـ) صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة،١٤٠٣ هـ/١٩١٨م.
٥٤. دراسات في الأدب الأندلسي، إحسان عباس، وداود القاضي، وألبير مطلق، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس،١٩٧٦م.
٥٥. دراسات في الأدب الأندلسي، د. سامي مكي العاني ،ساعدت الجامعة المستنصرية على نشره ،بغداد،١٩٧٨م.
٥٦. الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، الاصبهاني، تحقيق عبد المجيد قطامش، مطابع دار المعارف -القاهرة ١٩٧١م.
٥٧. دلائل الاعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ت (٤٧٤ هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٥٨. دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين -دراسة سياسية وحضارية – سلامة محمد سلمان، دار الندوة الجديدة، ١٩٨٥م.
٥٩. ديوان ابن خفاجة، بعناية عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
٦٠. ديوان ابن زيدون تحقيق: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
٦١. ديوان ابن هانئ الأندلسي، بعناية: المعلم شاهين عطية، المطبعة اللبنانية، بيروت، ١٨٨٦م.

٦٢.ديوان أبي الاسود الدؤلي، صنعة أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، منشورات دار ومكتبة الهلال، ط٢، ١٩٩٨م.
٦٣.ديوان أبي العتاهية، دار بيروت، (د. ط)، ١٩٨٦م.
٦٤.ديوان أبي النجم العجلي، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢٠٠٦م.
٦٥.ديوان أبي تمام، شرح التبريزي، بعناية راجي الاسمر، دارا لكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م،
٦٦.ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تحقيق: أحمد خليل الشال مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بور سعيد، ط١، ٢٠١٤م.
٦٧.ديوان أبي نؤاس برواية الصّولي، تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الأمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٠م
٦٨.ديوان الاعشى الكبير ميمون بن قيس ت (٦٢٩ هـ)، تحقيق: محمد محمد حسين، الناشر مكتبة الآدب بالجامبزت، المطبعة النموذجية، (د. ط. ت).
٦٩.ديوان الحارث بن حلزة، تحقيق: أميل بديع يعقوب، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
٧٠.ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، بعناية: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
٧١.ديوان الحماسة، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
٧٢.ديوان الخرنق بنت هفان برواية أبي عمرو بن العلاء المتوفى (١٥٤ هـ) تحقيق: يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
٧٣.ديوان الطغرائي، تحقيق: علي جواد طاهر ويحيى الجبوري، مطبعة الدوحة لحديثه، الدوحة -قطر، ط٢، ١٩٨٦م.
٧٤.ديوان الفرزدق، بشرح إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط١، ١٩٨٣م.

٧٥.ديوان الكميت بن زيد الاسدي، تحقيق: محمد نبيل طريفي، دار صادر بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٧٦.ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، مؤسسة هنداوي ،٢٠١٢م.
٧٧.ديوان النابغة الذبياني ت (١٨ ق. هـ) تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط٢، (د.ت).
٧٨.ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٣، ١٩٩٦م
٧٩.ديوان امرئ القيس ت (٨٠ ق. هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط٤، (د.ت).
٨٠.ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم، الجامعة الامريكية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠ م.
٨١.ديوان بشار بن برد، تحقيق: السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د. ط)،١٩٨١م.
٨٢.ديوان تأبط شرا، تحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الاسلامي، ط١، ١٩٨٤م.
٨٣.ديوان جرير ت (١١٠ هـ)، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان محمد أمين، دار المعارف المصرية، ط٣، (د.ت).
٨٤.ديوان جميل بثينة، تحقيق: حسين نصّار، دار مصر للطباعة –٣٧ شارع كامل صدقي
٨٥.ديوان حاتم الطائي، تحقيق: أحمد رشاد، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٢م.
٨٦.ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق: عبدا مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٤م.
٨٧.ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: عمر عبد الرسول، دار المعارف ،٢٠٠٩
٨٨.ديوان ذي الرمة، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٩٩٥م.

٨٩.ديوان زهير ابن ابي سلمى شرحه وقدم له، علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
٩٠.ديوان زيد بن مفزع الحميري، تحقيق: الدكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة ط١، ١٩٧٥م.
٩١.ديوان طرفه بن العبد شرح مهدي محمد ناصر الدين، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣ ،٢٠٠٢م
٩٢.ديوان عبد الله بن رواحة (دراسة في سيرته وحياته وشعره) تحقيق: وليد قصاب، دار العلوم للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٢م.
٩٣.ديوان عدي بن الرقاع العاملي، تحقيق حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م.
٩٤.ديوان عمر بن أبي ربيعة، قدم له فايز محمد دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢ ،١٩٩٦م.
٩٥. ديوان عنترة بن شداد، شرح الخطيب التبريزي، بعناية مجيد طرّاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
٩٦. ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني - بغداد، ط١، ١٩٦٢م.
٩٧. ديوان قيس بن ذريح (قيس لبنى) اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م.
٩٨.ديوان كُثَيِّرْ عَزَّة: تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان ،١٩٧١م.
٩٩. ديوان كعب بن زهير: تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،١٩٩٧م.
١٠٠.ديوان لبيد بن ربيعة شرح الطوسي، تحقيق: حنا نصر، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
١٠١.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، بيروت، (د. ط)، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٠٢.رايات المبرزين وغايات المميزين لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.
١٠٣.رسائل ابن أبي الخصال، تأليف الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي ت (٥٤٠ هـ)، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٨٨م.
١٠٤.الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي)، محمد عبد المنعم الحميري، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان.
١٠٥.سحر النص (قراءة في بنية الإيقاع القرآني)، د. عبد الواحد زياره اسكندر المنصوري، الفيحاء للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٣م
١٠٦.سقط الزند، لأبي العلاء المعري، تحقيق أمين هندية، مطبعة هندية بشارع المهدي - مصر ١٩٠١م.
١٠٧.السنن، ابي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (ت ٢٧٣ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ومحمد كامل، وعبد اللطيف حرز الله، مؤسسة الرسالة.
١٠٨.سير اعلام النبلاء، تصنيف الامام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي: تحقيق: شعيب الارناؤوط وبشر معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة.
١٠٩.سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، التهامي نقرة، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع،١٩٧١م
١١٠.شرح صحيح البخاري، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، تخريج العلامة الألباني، تعليقات العلامة أبن باز، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٣٨ هـ/٢٠٠٨م.
١١١.الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، ترجمة وتحقيق: سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت،١٩٦٣م.
١١٢.صبح الأعشى في صناعة الانشاء، تأليف الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ت(٨٢١هـ)، المطبعة الاميرية -القاهرة ،١٣٣٨هـ/١٩١٩م.
١١٣.الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري ت (٣٩٣ هـ)، تحقيق أحمد بن الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

١١٤.صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦ هـ)، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر،١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م.
١١٥.صحيح مسلم، للأمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت(٢٦١هـ)، تحقيق مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
١١٦.الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تأليف أبي القاسم بن بشكوال (ت٥٧٨هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٠م.
١١٧.الصمة بن عبد الله القشيري حياته وشعره، تحقيق: خالد عبد الرؤوف الجبر، دار المناهج، عمان، الأردن
١١٨. الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٥٥م
١١٩.الصورة الأدبية في القرآن الكريم، صلاح الدين عبد التواب، مكتبة لبنان- ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ط١، ١٩٩٥م.
١٢٠.الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر عصفور، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٧٤م.
١٢١.الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين الصغير، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد ،١٩٨١م.
١٢٢.طبقات النسابين، بكر أبو زيد، دار الرشيد للنشر والتوزيع، السعودية - الرياض، ١٩٧٨م.
١٢٣.الطبيعة في القرآن الكريم، كاصد ياسر الزيدي، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات ٢٣٦، ١٩٨٠م.
١٢٤.الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز، تأليف يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، مطبعة المقتطف، مصر ،١٣٣٢ هـ/١٩١٤م.
١٢٥.الطرائف الأدبية، عبد القاهر الجرجاني، صححه عبد العزيز الميمني، مطبعة الجنة، القاهرة، ١٩٣٧م.

١٢٦.ظاهرة التعالق النصي في الشعر السعودي الحديث، د. علوي الهاشمي، مؤسسة اليمامة السعودية الصحفية، الرياض، ١٩٩٨م.
١٢٧.عجالة المبتدي وفضالة المنتهى في النسب، أبي بكر بن محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني، تحقيق: عبد الله كنون، ط٢، الهيئة العامة لشؤن المطابع، القاهرة، ١٩٧٣م.
١٢٨.العقد الفريد، شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، تقديم: الأستاذ خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال ،١٩٩٩م.
١٢٩.علم أساليب البيان، غازي يموت، دار الفكر اللبناني، دار النهضة للطباعة والنشر - بيروت، ط٢ ،١٩٨٥م.
١٣٠.عناصر الإبداع الفنّي في شعر ابن زيدون، فوزي خضير، الكويت، ٢٠٠٤م.
١٣١.الفائق في غريب الحديث، تأليف العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت (٥٣٨ هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط٢، (د.ت).
١٣٢.الفتح الكبير في ضَمّ الزيادة إلى الجامع الصغير، جلال الدين للسيوطي، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت (د. ط. ت).
١٣٣.الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف، مؤسسة الانتشار العربي سينا للنشر، ط٤، ١٩٩٩م.
١٣٤.فن المقالة محمد يوسف نجم، دار الثقافة، لبنان -بيروت، ط٤، ١٩٦٦م.
١٣٥.الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط ٩ ،١٩٧٦م.
١٣٦.فنون النثر الأدبي في أثار لسان الدين بن الخطيب-المضامين والخصائص الأسلوبية- محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بنغازي ،٢٠٠٣م، (د.ت).
١٣٧.فنون النثر الأندلسي في ظل المرابطين، د. مصطفى الزباخ، دار الكتب والوثائق الوطنية، بغداد، ١٩٨٧م.
١٣٨.في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٠م.

١٣٩.في النقد الأدبي، د. كمال نشأت ،مطبعة النعمان ،النجف الأشرف ،١٩٧٢م.
١٤٠.في عالم التراث الشعبي، لطفي الخولي، الموسوعة الصغيرة (٤٠)، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية، بغداد ،١٩٧٩م.
١٤١.القاموس المحيط، تأليف العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ت(٨١٧هـ)، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي بيروت، لبنان، ط٨ ،١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
١٤٢.قراءات أسلوبية في الشعر العربي الحديث (دراسات أدبية)، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٥م.
١٤٣.قصص القرآن عظات وعبر، سعيد عبد العظيم، دار العقيدة للتراث، ط١، ٢٠٠١م.
١٤٤.قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تأليف أبي نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي الشهير بأبن خاقان (٥٢٩ هـ)، تحقيق: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط١، ١٤٠٩ هـ /١٩٨٩م.
١٤٥.قيام دولة المرابطين (صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى)، د. حسن أحمد محمود، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ط)، ١٩٥٧م.
١٤٦.كتاب الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م.
١٤٧.كتاب الصناعتين (الشعر والكتابة)، تصنيف ابي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ت (٣٩٥ هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أ بو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ،١٩٧٦م.
١٤٨.كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي ت (١٧٥ هـ)، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي (د. ت. ط).
١٤٩.لسان العرب، تأليف الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري ت (٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت (د. ط. ت).
١٥٠.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير ت (٦٣٧ هـ) قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار النهضة، القاهرة، مصر، ١٩٥٩م.

١٥١.مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني ت (٥١٨ هـ)، المعاونية الثقافية التابعة للآستانة الرضوية المقدسة.

١٥٢.محمد بن عمار الأندلسي (دراسة أدبية تأريخية)، صلاح خالص، مطبعة الهدى، بغداد،١٩٥٧م.

١٥٣.مختار الصحاح، للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت (٦٦٠ هـ)، اخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، بيروت، (د. ط)،١٩٨٦م.

١٥٤.المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين حسين مجيد رستم الحصونة، مؤسسة دار الإسلام، ط١، ٢٠١٤م

١٥٥.مرجعيات بناء النص الروائي، عبد الرحمن التمارة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط١ ،٢٠١٣م.

١٥٦.المزهر في علوم اللغة وانواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ت (٩١١ هـ) بعناية: أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت.

١٥٧.مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل ت (٢٤١ هـ) تحقيق: شُعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد، وإبراهيم الزيبق، ومحمد رضوان العرقسوسي، كامل الخياط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة.

١٥٨.مسند الشهاب، أبي عبد الله محمد بن سلامه القضاعي ت (٤٥٤ هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٥٩.مضمون الاسطورة في الفكر العربي، خليل أحمد خليل، دار لطليعة للطباعة والنشر، ط١، بيروت،١٩٧٣م.

١٦٠.مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس، تأليف الوزير الكاتب أبي نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان ابن عبد الله القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩ هـ)، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣م.

١٦١.المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة -القاهرة، ط١، ١٣٦٨ هـ /١٩٤٩م.

١٦٢.معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرّومي البغدادي ت (٦٢٦ هـ)، دار صادر، بيروت (د. ط)،١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
١٦٣.معجم المصطلحات البلاغية ،أحمد مطلوب ،مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٣م.
١٦٤.معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
١٦٥.معجم المصطلحات اللغوية، خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١ ،١٩٩٥م.
١٦٦.معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تأليف عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت (٤٨٧ هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت (د. ط، ت)
١٦٧.معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا ت (٣٩٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د. ط)،١٣٩٩ هـ /١٩٧٩م.
١٦٨.مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم ولأراده، لأبي عبد الله محود بن ابي بكر بن قيّم الجوزية ت (٧٥١ هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد للنشر (د.ط. ت).
١٦٩.المقترح في علم المصطلح، ابراهيم بن ابراهيم قريبي، مكتبة الرشاد، صنعاء (د.ت. ط).
١٧٠.مقدمة كتاب مجمع الأمثال العامية والبغدادية وقصصها، محمد صادق زلزلة، ط١، تقديم: عناد غزوان دار الإرشاد للطباعة والنشر، سورا،٢٠٠٦م.
١٧١.المكونات الأولى للثقافة العربية (دراسة في نشأة الأولى والمعارف العربية وتطورها)، د. عز الدين اسماعيل، مديرية الثقافة العامة، وزارة الاعلام (د.ت):
١٧٢.نثر أبي العلاء المعرّي (دراسة فنية)، صلاح رزق، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
١٧٣.النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، حازم عبد الله خضر، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، سلسلة الدراسات العراقية ٢٤٤، ١٩٨١م.

١٧٤. النص والسلطة والحقيقة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٥م.
١٧٥. النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية)، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، لبنان، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
١٧٦. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي، تحقيق إبراهيم الايباري، القاهرة،١٩٥٩م.
١٧٧. الوزن والقافية والشعر الحر: ع. س فريزر -ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤه من موسوعة المصطلح النقدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م .

- **الرسائل والأطاريح الجامعية:**

١. التناص في شعر علي بن الجهم، عواد صباح حسن المساعيد، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الاردن، ٢٠١٢م
٢. التناص في شعر محمد القيسي، نداء علي يوسف، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠١٢م
٣. الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، زينه عبد الجبار محمد، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة ٢٩، ط١، ٢٠٠٩م.
٤. الشخصية في القصص القرآني (دراسة نصية نقدية تحليلية لشخوص مختارة)، خالد سليمان عيد، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك ،١٩٩٦م
٥. شعرية الخطاب الصوفي، محمد يعيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس-المغرب، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١ ،٢٠٠٣م.
٦. القرآنية في شعر الرواد في العراق، احسان محمد جواد التميمي، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة القادسية ،٢٠٠٠م.
٧. المضامين التراثية في الشعر العراقي الحديث، فازع حسن رجب المعاضيدي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٥م.
٨. المضامين التراثية والدينية في الشعر الاندلسي في القرن الرابع الهجري، فائزة رضا شاهين (رسالة ماجستير)، كلية التربية للبنات، جامعة تكريت ،٢٠٠٤م.
٩. النص الغائب -تجليات التناص في الشعر العربي -محمد عزّام، منشورات اتحاد الكتاب العرب -دمشق،٢٠٠١م.

- الدوريات :

١. الزينة في العصر الجاهلي، يحيى الجبوري، جامعة قطر-حوليات كلية الإنسانيات، ع٦، ١٤٠٣ هـ -١٩٨٣

٢. الفونسو المحارب ودوره في حركة الاسترداد الاسبانية ،أنسام غضبان عبود ،مجلة دراسات تاريخية ،جامعة البصرة /كلية التربية للبنات ،٢٠١٧م.

٣. منابع الالهام والثقافة في الادب العربي(بحث)، عادل جاسم البياتي، مجلة المجمع العلمي العراقي مج ٢٣، ج٣،٤ ،١٩٨١م،

٤. المنهج القرآني في الإعجاز العلمي، رعد شمس الدين الكيلاني، مجلة ديالى للبحوث الإنسانية العدد٢٨، ٢٠٠٨م.

٥. النص والاسلوبية بين النظرية والتطبيق(دراسة)، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، ط١، ٢٠٠٠م.